

# كليلة ودمنة

## الفيلسوف الهندي : ديبيا

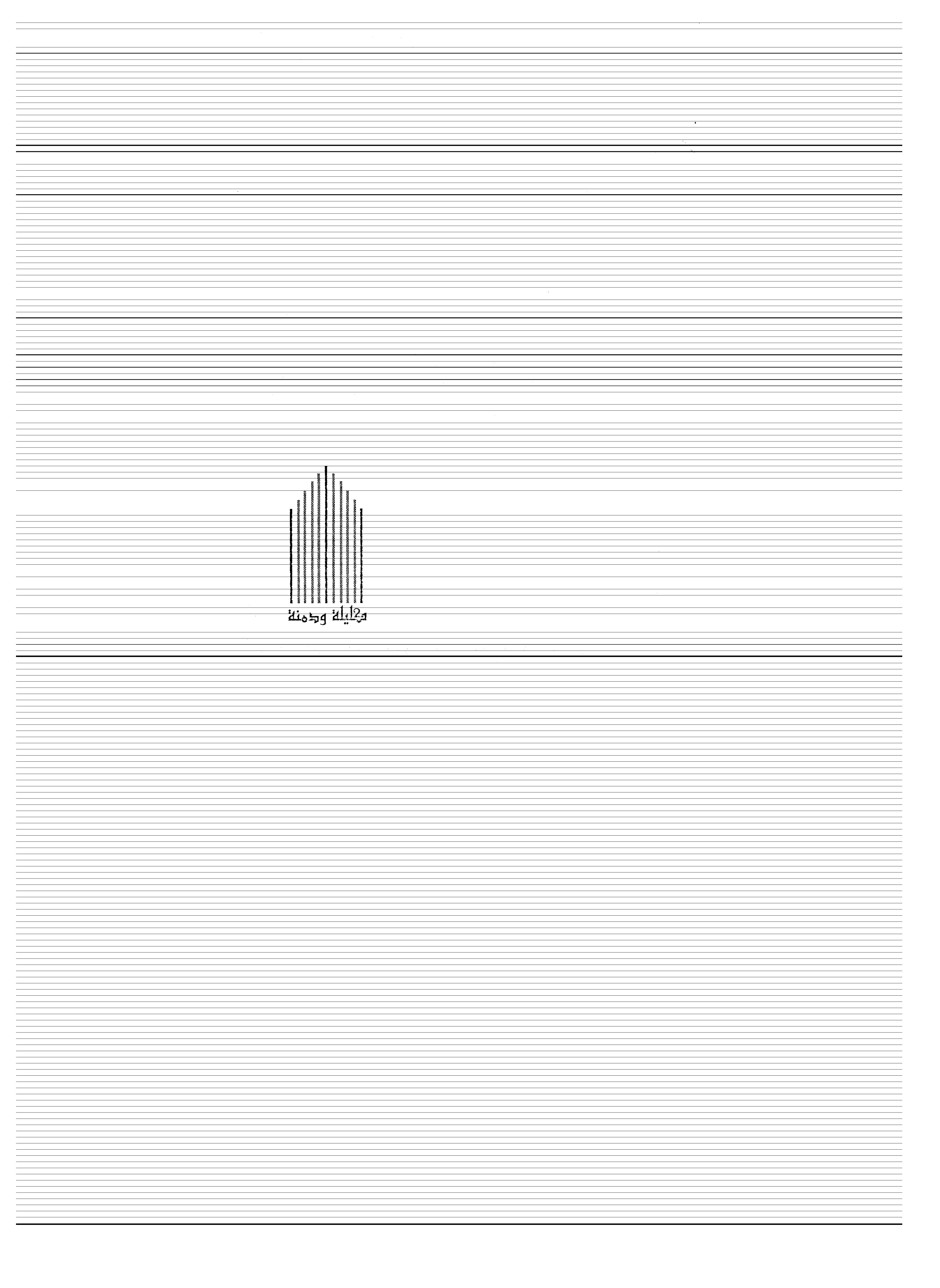
نقلها إلى العربية ..... ابن المقفع
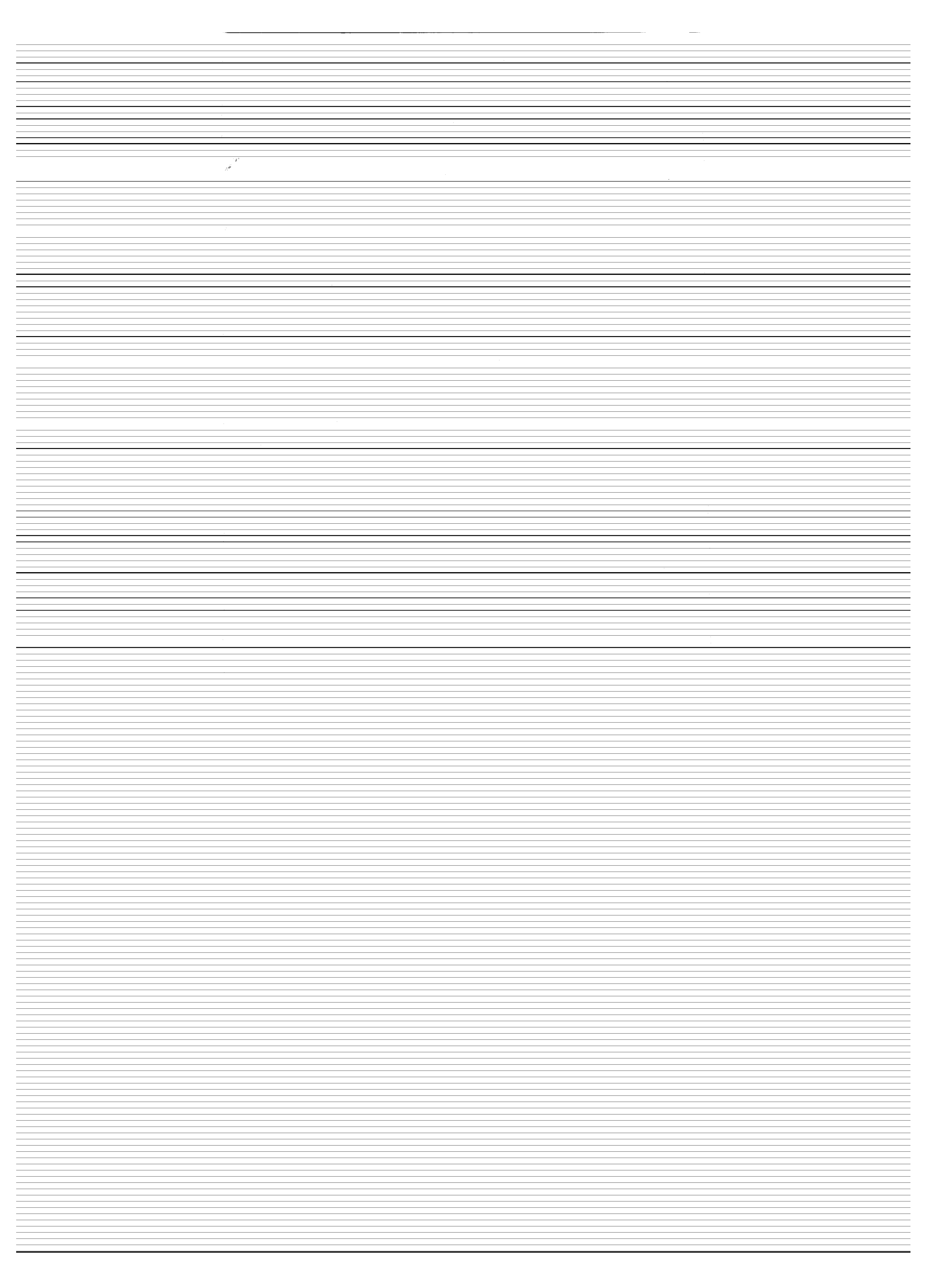
مكتبة زهران

١٥ ش الشيخ محمد عبده - خلف الجامع الأزهر

ت : ٥١٤٢٩٥٥

رقم الإيداع بدار الكتب
٢٠٠٥/٩٣٠٣
الترقيم الدولى
977-349-056-4


كليلة ودمنة



## بسم الله الرحمن الرحيم

الحمدُ لله الذى خلق الإنسان في أحسن تقويم ، وخصه دون المخلوقات بشرف التكريم ، ووهب له عقلاً يتدبر به ما في السموات والأرض من آياتٍ ، ليسلك بإرشاده أوضح المحجات ، ويمحو بنوره ظلمات الريب والإلباس ، قائلاً : وتلك الأمثال نضربها للناس ، والصلاة والسلام على من بين معالم العرفان ، المختص بجوامع الكلم في غاية البيان ؛ سيدنا محمدًا المبعوث رحمة للعالمين ، وعلى آله وصحبه أجمعين .

**أما بعد** .. فإن أتحف العوارف ، وألطف المعارف ، علم يتوصل به إلى صدق الفراسة ، ويُستنبط منه حُسن السياسة ، ومن أحسن ما لاح على صفحات ذلك الوجه وجنة ، كتاب « كليلة ودمنة » ، من الكتب التي تُرجمت في صدر الدولة العباسية من اللغة الأعجمية إلى اللغة العربية ، لأنه في ضروب السياسة أكبر آية، وفي جوامع الحكم والآداب من أبلغ غاية ، حرى بأن يُكتب بسواد المسك على بياض الكافور ، وحقيق بأن يُعلق بخيوط النور على نحور الحور ، ولذلك عكف على الاعتناء به أصناف الناس ، فترجموه من العربية إلى لُغاتهم من سائر الأجناس .

ثم اغتالت نسخه بالعربية أيدي الدهور والأعصار ، وطار بها من رياح الحوادث إعصار ، فقيض الله صاحب الفتوح السنية ، والهمة العلية العلوية ، حامى ذمار المسلمين والإسلام ، ماد سرادق العدل على كافة الأنام ، قاهر الطغاة والجبابرة ، ومرغم أنوف المتمردة الفاجرة ؛ أمير أمراء المؤمنين ، وسيف الله المسلول على أعناق المعتدين ، الحاج محمد على باشا لا زالت بذباب سيفه مهج العدا تتلاشى ، ولا برحت ألويته بالنصر منشورة ، وعساكره في كل وجهة مظفرة منصورة ، فأعمل في خدمة الشريعة الغراء ، وسلوك المحجة الواضحة البيضاء ،

كلا من حد السيف وسنان القلم ، حتى فجر بمتون الصفائح والصحائف ينابيع النصر والحكم ،وتصدى لإحياء رميم المكرمات الدوارس ، وانتدب لإعادة دارس العلوم بإنشاء المدارس جامعًا بين داني الشرف وقاصيه ، حقيقًا بما قلت فيه :

ماذا أقول وكيف القول في ملك ... قد فاق كل ملوك الأعصر الأول

محمد أنت إن أحمدك مبتهلاً ... وإن طلبت لك العليا فأنت علي

قد أعجز البلغاء اللسن[1] منقبة ... عنها رووا بين صدق القول والعمل

وما تقر سيوف في ممالكها ... حتى تقلقل دهراً قبل في القلل

مثل المليك بغى أمرًا فقربه ... طول الرماح وأيدي الخيل والإبل

وعزمة بعثتها همة[2] زحل ... من تحتها بمكان الترب من زحل

على الفرات أعاصير[3] وفي حلب ... توحش لملقى النصر مقتبل

تتلو أسنته الكتب التي نفذت ... ويجعل الخيل أبدالاً من الرسل

يلقى الملوك فلا يلقى سوى جزرٍ[4] ... وما أعدوا فلا يلقي سوى نفل[5]

الفاعل الفعل لم يفعل لشدته ... والقائل القول لم يترك ولم يقل

والباعث الجيش قد غالت[6] عجاجته[7] ... ضوء النهار فصار الظهر كالطفل[8]

الجو أضيق ما لاقاه ساطعها ... ومقلة الشمس فيه أحير المقل

ينال أبعد منها وهي ناظرة ... فما تقابله إلا على وجل

قد عرض السيف دون النازلات به ... وظاهر الحزم بين النفس والغيل

ووكل الطعن بالأسرار فانكشفت ... له ضمائر أهل السهل والجبل

هو الشجاع يعد البخل من جبن ... وهو الجواد يعد الجبن من بخل

---

(١) أي الفصحاء لسن كفرح فهو لسن وألسن .

(٢) زحل مبتدأ وخبره بمكان والجملة صفة لهمة والمعنى همة دونها زحل .

(٣) في العراق فتن لا يخمد نارها سوى جيشك الجرار وسيفك البتار وفي حلب همجية لا يثلم حدها غير مستأنف ماضي عزمك وسنان رمحك .

(٤) الجزر : جمع جزور وهو البعير .

(٥) النفل : الغنيمة .

(٦) غال : كاغتال أهلك ،والمراد حجب .

(٧) العجاجة : الغبار .

(٨) الطفل بالتحريك : دنو الشمس للغروب .

يعود من كل فتح غير مفتخر ... وقد أعد إليه غير محتفل
ولا يجير عليه الدهر بغيته ... ولا تُحصن درع مهجة البطل
إذا خلعت على عرض له حللاً ... وجدتها منه في أبهى من الحلل
بذى الغباوة من إنشادها ضرر ... كما تضر رياح الورد بالجعل
لقد رأت كل عين منه مالئها ... وجربت خير سيف خيرة الدول
فما تكشفك الأعداء عن ملل ... من الحروب ولا الآراء عن زلل
وكم رجل بلا أرض لكثرتهم ... تركت جمعهم أرضًا بلا رجل
ما زال طرفك[١] يجرى في دمائهم ... حتى مشى بك مشى الشارب الثمل
يا من يسير وحكم الناظرين له ... فيما يراه وحكم القلب في الجذل
إن السعادة فيما أنت فاعله ... وفقت مرتحلاً أو غير مرتحل
أجر الجياد على ما كنت مجريها ... وخذ بنفسك في أخلاقك الأول
ينظرن من مقل أدمى أحجتها[٢] ... قرع الفوارس بالعسالة الذبل
فلا هجمت بها إلا على ظفر ... ولا وصلت بها إلا إلى أمل[٣]

ومن جملة ما جعله للدين والدنيا زينة وعيدًا ، ولأرباب الحروب والمحاريب موسمًا سعيدًا ؛ دار الطباعة التى أنشأها ببلاق : إذ لم يكن مثلها في سائر الأقطار والآفاق ، لأن الكتب تطبع فيها من سائر العلوم ، بكل لغة وبكل رسم مع تلون المداد كما هو معلوم ، فصادف سعده المقترن من الله بالمنة ، وجود نسخة مطبوعة بالعربي في غير بلاد العرب من كتاب كليلة ودمنة ، وهى التى ترجمها عبد الله بن المقفع الكاتب المشهور ، في أيام أمير المؤمنين أبى جعفر المنصور . وكانت ترجمتها من اللغة البهلوية[٤] إلى العربية ، واتفق الناس على

---

(١) الطرف : الكريم من الخيل .
(٢) أحجة : جمع حجاج ومن معانيه عظم ينبت عليه الحاجب وهو المراد هنا .
(٣) هذه القصيدة جميعها ما عدا الأبيات الثلاثة الأولى مأخوذة من قصيدة لأبى الطيب في مديح سيف الدولة .
(٤) الفارسية القديمة .

صحة تلك النسخة ، لشهرة مصححهـا بالألمعية ، إذ قال في ديباجتها : « اجتمع عندى من كـتاب كليلة نُسخ شـتى متـفقـة السياق والانـتظام ، مخـتلفة العبارة والألفاظ، وكان من عددها نسخة قديمة العهد ، عجيبة الخط ، غير أنه كان يوجد فيها مع جودتها بعض الغلطات . وقد ذهب منها أيضًا بتصريف الشهور والأيام ، أوراق جُعلت عوضًا عنهـا أوراق غيرها جـديدة العهد ، رديئـة الخط ليست على هيئة الباقي ، والنسـخة المذكورة هى التى اخترتها حـتى تكون هى الأصل المعتمد عليه عند طبع هذا الكتـاب غير أننى كلما عثـرت فيها على غلطة ، أو ما اشـتبه على القارىء فهـمه ، قابلتها بما عندى من النسخ غـيرها ، وأثبت ما رأيت لفظه أفصح ، ومعناه أوضح . انتهى كلامه .

ثم إن تلك النسخة المطبوعة عرضت هى وغيرها على شيخ مشايخ الإسلام، وقدوة عمد الأنام ، مولانا الشيخ حـسن العطار أدام الله عموم فضله ما دام الليل والنهار ، فقال : يصح ألا يوجد لـها في الصحة مثال لشهرة مصـححها بالضبط وسعة الاطلاع على الأقوال .

وحيـنئذٍ اتفـقت الآراء على أن يكون المعول في طبع ذلك الكـتاب عليـها ، ومنتهى اخـتلاف النسخ ووفاقهـا إليها ، فبـادرت إشارة الأمر بصريح الامـتثال ، وسرحت في رياض تلك النسخ سائم الطرف والبال ، فوجدت المـطبوعة أفصحها عبارةً وأوضحها إشارة ، وأصحها مـعنى ، وأحكمها مبنى ، غير أن فيها لُفيظات حادت عن سنن العربية وبعض معان مالت به الركاكة عن أن يفهم بطريقة مرضية، فقـريت أضياف المعـانى بأى لفظ تشتـهيه . وصـاحب البيت أدرى بالذى فـيه ، خصوصًا مع وجود المواد التى تكشف عن وجوه الصحة نقاب الاشتباه ، ومن كان ذا مكنة فلينفق ممـا آتاه الله ، مسـتـعينًا على ذلك بما لـدى من النسخ التى بخط القلم، معولاً على عناية من علم الإنسان مـا لم يعلم . حتى أثمرت بإشاعة ذلك الكتاب مع غاية التـحرير ، حديقة تلك المطبعة المـشرقة بطوالع التنوير ؛ على يد

مصحح ما بها من الكتب العربية ، المستمد من مولاه الإعانة والمعية ، راجى من للفضل يؤتى ، عبد الرحمن الصفتى ، غفر الله ذنوبه ، وستر في الدارين عيوبه مع سائر المسلمين . بحرمة طه ويس ، عليه الصلاة والسلام ، وعلى آله وصحبه الكرام .

* * *



## باب : مقدمة الكتاب

قدمها بهنود بن سحوان ويعرف بعلي بن الشاه الفارسي . ذكر فيها السبب الذى من أجله عمل بيدبا الفيلسوف الهندي رأس البراهمة[1] ، لِدَبشَليمَ ملك الهند كتابه الذي سماه كَليلة ودِمنَة ؛ وجعله على ألسن البهائم والطير صيانة لغرضه فيه من العوام ، وضنًّا بما ضمنه عن الطَّغَام ؛ وتنزيهًا للحكمة وفنونها ، ومحاسنها وعيونها ، إذ هِيَ للفيلسوف مَندُوحَةٌ ، ولخاطره مفتوحة ، ولمحبيها تثقيف ، ولطالبيها تشريف .

وذكر السبب الذى من أجله أنفذ كسرى أنوشِروان بن قَبَاذَ بن فيروز ملكُ الفرس برزويه رأسَ الأطباء إلى بلاد الهند لأجل كتاب كليلة ودمنة ؛ وما كان من تلطف برزويه عند دخوله إلى الهند ؛ حتى حضر إليه الرجل الذى استنسخه له سراً من خزانة الملك ليلاً ، مع ما وجد من كتب علماء الهند ، وقد ذكر الذى كان من بعثة برزويه إلى مملكة الهند لأجل نقل هذا الكتاب ؛ وذكر فيها ما يلزم مُطالعه من إتقان قراءته والقيام بدراسته والنظر إلى باطن كلامه ؛ وأنه إن لم يكن كذلك لم يحصل على الغاية منه ، وذكر فيها حضور برزويه وقراءة الكتاب جهراً. وقد ذكر السبب الذى من أجله وضع بُزُرجمهر بابًا مفردًا يسمى باب برزويه المتطبب ، وذكر فيه شأن برزويه من أول أمره وآن مولده إلى أن بلغ التأديب ، وأحب الحكمة واعتبر[2] في أقسامها ، وجعله قبل باب الأسد والثور الذى هو أول الكتاب .

قال عليّ بن الشاه الفارسي : كان السبب الذى من أجله وضع بيدبا الفيلسوف لدبشَليمَ ملك الهند كتاب كليلة ودمنة ، أن الإسكندر ذا القرنين الرُّوميَّ لما فرغ من أمر الملوك الذين كانوا بناحية المغرب ، سار يريد ملوك المشرق من

(١) البراهمة : قوم لا يجوزون على الله بعثة الرسل . (٢) اعتبر : نظر .

الفرس وغيرهم ؛ فلم يزل يحارب من نازعه ويواقع من واقعه ويسالم من وادعه من ملوك الفرس ، وهم الطبقة الأولى ، حتى ظهر عليهم وقهر من ناوأه وتغلب على من حاربه ؛ فتفرقوا طرائق[1] وتمزقوا حزائق[2] .

فتوجه بالجنود نحو بلاد الصين ؛ فبدأ في طريقه بملك الهند ليدعوه إلى طاعته والدخول في ملته وولايته . وكان على الهند في ذلك الزمان ملك ذو سطوة وبأس وقوة ومراس ، يقال له فور ، فلما بلغه إقبال ذي القرنين نحوه تأهب لمحاربته ، واستعد لمجاذبته ؛ وضم إليه أطرافه ، وجد في التألب[3] عليه ؛ وجمع له العدة في أسرع مدة من الفِيَلَة المعدة للحروب ، والسباع المُضَرَّاة بالوثوب ؛ مع الخيول المُسرجة والسيوف القواطع ، والحِراب[4] اللوامع .

فلما قرب ذو القرنين من فورِ الهندي وبلغه ما قد أعد له من الخيل التى كأنها قطع الليل ، مما لم يلقه بمثله أحد من الملوك الذين كانوا في الأقاليم ، تخوف ذو القرنين من تقصير يقع به إن عجل المبارزة ، وكان ذو القرنين رجلاً ذا حيل ومكايد ، مع حسن تدبير وتجربة ، فرأى إعمال الحيلة والتمهل ، واحتفر خندقًا على عسكره ؛ وأقام بمكانه لاستنباط الحيلة والتدبير لأمره ؛ وكيف ينبغي له أن يُقدم على الإيقاع به ، فاستدعى المنجمين ، وأمرهم بالاختيار ليوم موافق تكون له فيه سعادة لمحاربة ملك الهند والنُّصرة عليه فاشتغلوا بذلك .

وكان ذو القرنين لا يمر بمدينة إلا أخذ الصناع المشهورين من صناعها بالحذق من كل صنف فأنتجت له همته ودلَّته فطنته أن يتقدم إلى الصناع الذين معه في أن يصنعوا خيلاً من نحاس مجوفة عليها تماثيل من الرجال ، على بكر تجرى ، إذا دُفعت مرت سراعًا . وأمر إذا فرغوا منها أن تُحشى أجوافها بالنفط والكبريت ، وتُلبَسَ وتقدم أمام الصف في القلب ، ووقت ما يلتقي الجمعان تضرم فيها

---

(١) طرائق أى : فرقًا .
(٢) حزائق أي : قطعًا .
(٣) التألب : التجمع .
(٤) جمع حربة .

النيران. فإن الفيلة إذا لفت خراطيمها على الفرسان وهي حامية ، ولت هاربة ، وأوعز إلى الصناع بالتشمير والانكماش[١] ، والفراغ منها ، فجدوا في ذلك وعجلوا ، وقرب أيضًا وقت اختيار المنجمين ، فأعاد ذو القرنين رسله إلى فور بما يدعوه إليه من طاعته والإذعان لدولته ، فأجاب جواب مصرٍّ على مخالفته ، مقيم على محاربته .

فلما رأى ذو القرنين عزيمته سار إليه بأهبته ؛ وقدم فور الفيلة أمامه ، ودفعت الرجال تلك الخيل وتماثيل الفرسان ؛ فأقبلت الفيلة نحوها ، ولفت خراطيمها عليها ، فلما أحست بالحرارة ألقت من كان عليها ، وداستهم تحت أرجلها ، ومضت مهزومة هاربة ، لا تلوي على شيء ولا تمر بأحد إلا وطئته ، وتقطع[٢] فور وجمعه ؛ وتبعهم أصحاب الإسكندر ؛ وأثخنوا[٣] فيهم الجراح ، وصاح الإسكندر : يا ملك الهند ابرُز إلينا ، وأبق على عدتك وعيالك ، ولا تحملهم على الفناء ، فإنه ليس من المروءة أن يرمى الملك بعدته في المهالك المتلفة والمواضع المجحفة ، بل يقيهم بماله ويدفع عنهم بنفسه ، فابرز إليّ ودع الجند ، فأينا قهر صاحبه فهو الأسعد ، فلما سمع فور من ذي القرنين ذلك الكلام دعته نفسه لملاقاته طمعًا فيه ؛ وظن ذلك فرصة ، فبرز إليه الإسكندر فتجاولا على ظهري فرسيهما ساعات من النهار ، ليس يلقى أحدهما من صاحبه فرصة ، ولم يزالا يتعاركان .

فلما أعيا الإسكندر أمره ولم يجد له فرصة ولا حيلة أوقع ذو القرنين في عسكره صيحة عظيمة ارتجت لها الأرض والعساكر ؛ فالتفت فور عندما سمع الزعقة ، وظنها مكيدة في عسكره ؛ فعاجله ذو القرنين بضربة أمالته عن سرجه ، وتبعه بأخرى ؛ فوقع على الأرض ، فلما رأت الهند ما نزل بهم ، وما صار إليه

---

(١) الإسراع .   (٢) تفرق .   (٣) أكثروا .

ملكهم ، حملوا على الإسكندر فقاتلوه قتالاً أحبوا معه الموت ، فوعدهم من نفسه الإحسان ، ومنحه الله أكتافهم ؛ فاستولى على بلادهم ، وملك عليهم رجلاً من ثقاته . وأقام بالهند حتى استوثق مما أراد من أمرهم واتفاق كلمتهم ؛ ثم انصرف عن الهند وخلف ذلك الرجل عليهم ، ومضى متوجهًا نحو ما قصد له.

فلما بَعُد ذو القرنين عن الهند بجيوشه ، تغيرت الهند عما كانوا عليه من طاعة الرجل الذي خلفه عليهم ؛ وقالوا ليس يصلح للسياسة ولا ترضى الخاصة والعامة أن يملكوا عليهم رجلاً ليس هو منهم ولا من أهل بيوتهم ، فإنه لا يزال يستذلهم ويستقلهم واجتمعوا يملكون عليهم رجلاً من أولاد ملوكهم ؛ فملكوا عليهم ملكًا يقال له دَبشَليم؛ وخلعوا الرجل الذى كان خلفه عليهم الإسكندر فلما استوسق[1] له الأمر ، واستقر له الملك ، طغى وبغى وتجبر وتكبر ؛ وجعل يغزو من حوله من الملوك ، وكان مع ذلك مؤيداً مظفراً منصوراً ، فهابته الرعية ، فلما رأى ما هو عليه من الملك والسطوة ، عبث بالرعية واستصغر أمرهم وأساء السيرة فيهم ، وكان لا ترتقي حاله إلا ازداد عُتوًا ، فمكث على ذلك برهة من دهره .

وكان في زمانه رجل فيلسوف من البراهمة ، فاضل حكيم ، يُعرف بفضله ، ويُرجع في الأمور إلى قوله ، يقال له بيدبا ، فلما رأى الملك وما هو عليه من الظلم للرعية ، فكر في وجه الحيلة في صرفه عما هو عليه ، ورده إلى العدل والإنصاف ؛ فجمع لذلك تلاميذه ، وقال : أتعلمون ما أريد أن أشاوركم فيه ؟ اعلموا أنى أطلت الفكرة في دَبشَليم وما هو عليه من الخروج عن العدل ولزوم الشر ورداءة السيرة وسوء العشرة مع الرعية ؛ ونحن ما نَرُوض أنفسنا لمثل هذه الأمور ، إذا ظهرت من الملوك ، إلا لنردهم إلى فعل الخير ولزوم العدل ، ومتى

---

(١) استوثق : اجتمع .

أغفلنا ذلك وأهملناه لزم وقوع المكروه بنا وبلوغ المحذورات إلينا ، إذ كنا في أنفس الجهال أجهل منهم ؛ وفي العيون عندهم أقل منهم ، وليس الرأى عندى الجلاء عن الوطن ، ولا يسعنا في حكمتنا إبقاؤه على ما هو عليه من سوء السيرة وقبح الطريقة ، ولا يمكننا مجاهدته بغير ألسنتنا . ولو ذهبنا إلى أن نستعين بغيرنا لم تتهيأ لنا معاندته . وإن أحس منا بمخالفته وإنكارنا سوء سيرته كان في ذلك بَوَارنا ، وقد تعلمون أن مجاورة السبع والكلب والحية والثور على طيب الوطن ونضارة العيش لغدر بالنفس ، وإن الفيلسوف لحقيق أن تكون همته مصروفة إلى ما يحصن به نفسه من نوازل المكروه ولواحق المحذور ؛ ويدفع المخوف لاستجلاب المحبوب ، ولقد كنت أسمع أن فيلسوفًا كتب لتلميذه يقول : إن مُحاور رجال السوء ومصاحبهم كراكب البحر : إن سلم من الغرق لم يسلم من المخاوف ، فإذا هو أورد نفسه موارد الهلكات ومصادر المخوفات، عد من الحمير التى لا نفس لها، لأن الحيوانات البهيمية قد خصت في طبائعها بمعرفة ما تكتسب به النفع وتتوقى المكروه ، وذلك أننا لم نرها تورد أنفسها موردًا فيه هَلَكتها ، وأنها متى أشرفت على مورد مهلك لها ، مالت بطبائعها التى ركبت فيها - شحًا بأنفسها وصيانة لها - إلى النفور والتباعد عنه ، وقد جمعتكم لهذا الأمر ، لأنكم أُسرَتي ومكان سري وموضع معرفتي ، وبكم أعتضد ، وعليكم أعتمد ، فإن الوحيد في نفسه والمنفرد برأيه حيث كان فهو ضائع ولا ناصر له ، على أن العاقل قد يبلغ بحيلته ما لا يبلغ بالخيل والجنود والمثل في ذلك أن قُنبرة[1] اتخذت أُدحيَّة[2] وباضت فيها على طريق الفيل ؛ وكان للفيل مشرب يتردد إليه ، فمر ذات يوم على عادته ليرد مورده فوطىء عش القنبرة ؛ وهشم بيضها وقتل فراخها ، فلما نظرت ما ساءها ، علمت أن الذى نالها من الفيل لا من غيره ، فطارت فوقعت

(١) الأفصح فيها قُبَّرَة وهي طائر . (٢) محلاً تبيض فيه .

على رأسه باكية ؛ ثم قالت : أيهـا الملك لم هشمت بيضي وقتلت فراخي ، وأنا في جوارك ؟ أفعلت هذا استصغاراً منـك لأمري واحتقاراً لشأني ؟ قال: هو الذي حملني على ذلك ، فتركـته وانصرفت إلى جماعة الطير ؛ فشكت إليـها ما نالها من الفيل ، فقلن لهـا وما عسى أن نبلغ منه ونحن طيور ؟ فقـالت للعقاعق[1] والغربان : أحب منكن أن تصرن معي إليه فتفقأن عينيه ؛ فإني أحتال له بعد ذلك بحيلة أخرى ، فأجبنها إلى ذلك ، وذهبن إلى الفيل ، ولم يزلن ينقرن عينيه حتى ذهبن بهما ، وبقي لا يهتدى إلى طريق مطعمه ومـشربه إلا ما يلقمه من موضعه، فلما علمت ذلك منه، جاءت إلى غدير فيها ضفـادع كثيرة، فشكت إليها ما نالها من الفـيل. قالت الضـفادع : ما حـيلتنا نحن في عظم الفـيل ؟ وأين نبلغ منه ؟ قـالت : أحب منكن أن تصرن مـعي إلى وهدة[2] ، قريبـة منه ، فتنققن فيـها ، وتضجن ، فإنه إذا سـمع أصواتكن لم يشك في الماء فيهوى فيهـا، فأجبنها إلى ذلك ؛ واجتمعن في الهاوية ، فسمع الفيل نقيق الضفادع ، وقد أجهده العطش ، فأقبل حتى وقع في الوهدة ، فارتطم[3] فيها . وجاءت القنبرة ترفرف على رأسه؛ وقالت : أيهـا الطاغي المغتر بقوته المحـتقر لأمري ، كـيف رأيت عظم حيلتي مع صغر جُثتي عند عظم جثتك وصغر همتك ؟

فليُشِر كل واحـد منكم بما يسنـح له من الرأى ، قـالوا بأجـمعـهم : أيهـا الفيلسـوف الفاضل ، والحكيم العادل ، أنـت المقدم فينا ، والفـاضل علينا ، وما عسى أن يكون مبلغ رأينا عند رأيك وفهمنا عند فهمك ؟ غير أننا نعلم أن السباحة في الماء مع التمـساح تغـرير ؛ والذنب فيه لمن دخل علـيه في موضـعه ، والذى يستخرج السم من ناب الحية فيبلعه ليجربه جانٍ على نفسه؛ فليس الذنب للحية ، ومن دخل على الأسـد في غابتـه ، لم يأمن من وثبتـه ، وهذا الملك لم تُفـزعه

---

(١) جمع عَقعَق وهو طير أبلق بسواد وبياض .

(٢) أرض منخفضة . (٣) وقع ولم يمكنه الخروج .

النوائب ، ولم تؤدبه التجارب ، ولسنا نأمن عليك ولا على أنفسنا سطوته ، وإنا نخاف عليك من سورته[1] ومبادرته بسوء إذا لقيته بغير ما يحب .

فقال الحكيم بيدبا : لعمري لقد قلتم فأحسنتم ، لكن ذا الرأى الحازم لا يدع أن يشاور من هو دونه أو فوقه في المنزلة ، والرأىُ الفرد لا يُكتفى به في الخاصة ولا ينتفع به في العامة ، وقد صحت عزيمتي على لقاء دَبشَليم ، وقد سمعت مقالتكم ؛ وتبين لي نصيحتكم والإشفاق عليّ وعليكم ، غير أني قد رأيت رأيًا وعزمت عزمًا ؛ وستعرفون حديثي عند الملك ومجاوبتي إياه ؛ فإذا اتصل بكم خروجي من عنده فاجتمعوا إليّ ، وصرفهم وهم يدعون له بالسلامة .

ثم إن بيدبا اختار يومًا للدخول على الملك ؛ حتى إذا كان ذلك الوقت ألقى عليه مُسُوحه[2] وهي لباس البراهمة ؛ وقصد باب الملك ، وسأل عن صاحب إذنه وأرشد إليه وسلم عليه ؛ وأعلمه وقال له : إني رجل قصدت الملك في نصيحة ، فدخل الآذِن[3] على الملك في وقته ؛ وقال : بالباب رجل من البراهمة يقال له بيدبا ؛ ذكر أن معه للملك نصيحة ، فأذن له ؛ فدخل ووقف بين يديه وكفَّر[4] وسجد له واستوى قائمًا وسكت . وفكر دبشليم في سكوته ؛ وقال : إن هذا لم يقصدنا إلا لأمرين : إما لالتماس شيء منا يصلح به حاله ، وإما لأمر لحقه فلم يكن له به طاقة ، ثم قال : إن كان للملوك فضل في مملكتها فإن للحكماء فضلاً في حكمتها أعظم ؛ لأن الحكماء أغنياء عن الملوك بالعلم ؛ وليس الملوك بأغنياء عن الحكماء بالمال ، وقد وجدت العلم والحياء إلفين متآلفين لا يفترقان ، متى فقد أحدهما لم يوجد الآخر ؛ كالمتصافيين إن عُدِمَ منهما أحد لم يطب صاحبه نفسًا بالبقاء بعده تأسفًا عليه ، ومن لم يستحي من الحكماء ويكرمهم ، ويعرف فضلهم على غيرهم ، ويصنهم عن المواقف الواهنة ، وينزههم عن المواطن الرَّذلة ، كان

---

(١) سطوته واعتدائه . (٢) جمع مسح وهو الكساء من الشعر . (٣) الحاجب .
(٤) عَظَّم . . والكَفْر من معانيه تعظيم الفارسي لملكه والتكفير من معانيه إيماء الذمى برأسه .

ممن حرم عقله ، وخسر دنياه ، وظَلَمَ الحكماء حقوقهم ، وعدمن الجهال ، ثم رفع رأسه إلى بيدبا ؛ وقال له : نظرت إليك يا بيدبا ساكتًا لا تعرض حاجتك ، ولا تذكر بغيتك ، فقلت : إن الذى أسكته هيبة ساورته أو حيرة أدركته ؛ وتأملت عند ذلك من طول وقوفك ، وقلت : لم يكن لبيدبا أن يطرقنا على غير عادة إلا لأمر حركه لذلك ؛ فإنه من أفضل أهل زمانه ، فهلا نسأله عن سبب دخوله ؟ فإن يكن من ضيم ناله ، كنت أولى من أخذ بيده وسارع في تشريفه ، وتقدم في البلوغ إلى مراده وإعزازه ؛ وإن كانت بغيته غرضًا من أغراض الدنيا أمرت بإرضائه من ذلك فيما أحب ؛ وإن يكن من أمر الملك ، ومما لا ينبغي للملوك أن يبذلوه من أنفسهم ولا ينقادوا إليه ، نظرت في قدر عقوبته ؛ على أن مثله لم يكن ليجترىء على إدخال نفسه في باب مسألة الملوك ؛ وإن كان شيئًا من أمور الرعية يقصد فيه أني أصرف عنايتي إليهم ، نظرت ما هو ؛ فإن الحكماء لا يشيرون إلا بالخير ، والجهال يشيرون بضده ، وأنا قد فسحت لك في الكلام .

فلما سمع بيدبا ذلك من الملك أفرخَ روعُه[1]، وسُرِّيَ عنه[2] ما كان وقع في نفسه من خوفه ، وكفَّر له وسجد ؛ ثم قام بين يديه وقال : أول ما أقول : أسأل الله تعالى بقاء الملك على الأبد ، ودوام ملكه على الأمد ؛ لأن الملك قد منحني في مقامي هذا محلاً جعله شرفًا لي على جميع من بعدي من العلماء ، وذكرًا باقيًا على الدهر عند الحكماء . ثم أقبل على الملك بوجهه ، مستبشرًا به فرحًا بما بدا له منه ، وقال : قد عطف الملك علي بكرمه وإحسانه ، والأمر الذى دعاني إلى الدخول على الملك ، وحملني على المخاطرة لكلامه، والإقدام عليه ، نصيحة اختصصته بها دون غيره ، وسيعلم من يتصل به ذلك أني لم أقصر عن غاية فيما

(١) يقال : أفرخ روعه أى ذهب فزعه وخوفه . وقال أبو الهيثم : إنما هو : أفرخ روعه ومعناه خرج الروع والفزع من روعه وهو موضع الروع وهو القلب .

(٢) زال عنه .

يجب للمولى على الحكماء فإن فَسَح في كلامي ووعاه عني ، فهو حقيق بذلك وما يراه ؛ وإن هو ألقاه فقد بلغت ما يلزمني وخرجت من لوم يلحقني .

قال الملك : يا بيدبا تكلم كيف شئت ؛ فإنني مصغٍ إليك ، ومُقبل عليك ، وسامع منك ، حتى أستفرغ ما عندك إلى آخره ، وأجازيك على ذلك بما أنت أهله .

قال بيدبا : إني وجدت الأمور التي اختص بها الإنسان من بين سائر الحيوان أربعة أشياء ، وهي جُمَّاع[1] ما في العالم ، وهى الحكمة والعفة والعقل والعدل . والعلم والأدب والروية داخلة في باب الحكمة . والحلم والصبر والوقار داخلة في باب العقل . والحياء والكرم والصيانة والأَنَفَة داخلة في باب العفة . والصدق والإحسان والمراقبة وحسن الخلق داخلة في باب العدل . وهذه هى المحاسن ، وأضدادها هى المساوىء . فمتى كملت هذه في واحد لم تخرجه الزيادة في نعمة إلى سوء الحظ من دنياه ولا إلى نقص في عقباه ، ولم يتأسف على ما لم يعنِ التوفيق ببقائه ، ولم يحزنه ما تجري به المقادير في ملكه ، ولم يُدهَش عند مكروه، فالحكمة كنز لا يفنى على إنفاق وذخيرة لا يُضـرَبُ لها بالإملاق[2] ، وحُلة لا تخلُق[3] جدَّتها ، ولذة لا تُصرم[4] مدتها ، ولئن كنت عند مقامي بين يدي الملك أمسكت عن ابتدائه بالكلام ، إن ذلك لم يكن مني إلا لهيبته والإجلال له . ولعمرى إن الملوك لأهل أن يهابوا ؛ لا سيما من هو في المنزلة التى جل فيها الملك عن منازل الملوك قبله . وقد قالت العلماء : الزم السكوت ، فإن فيه سلامة، وتجنب الكلام الفارغ ؛ فإن عاقبته الندامة .

وحُكي أن أربعة من العلماء ضمهم مجلس ملك ، فقال لهم : ليتكلم كل بكلام يكون أصلاً للأدب . فقال أحدهم : أفضل خلة العلم السكوت . وقال

(١) مجتمع أصله . (٢) لعل الصواب : لا يَضُرُّف بها الإملاق .
(٣) لا تبلى . (٤) لا تقطع .

الثـاني : إن من أنفع الأشيـاء للإنسـان أن يعرف قـدر منزلتـه من عقله . وقـال الثالث: أنفع الأشياء للإنسـان ألا يتكلم بما لا يعنيه . وقال الرابع : أروح الأمور على الإنسان التسليم للمقادير .

واجتـمع في بعض الزمان ملوك الأقاليم مـن الصين والهند وفارس والروم ؛ وقالوا : ينبغـي أن يتكلم كل واحد منا بكلمة تدون عنه على غابـر الدهر . فقال ملك الصين : أنا على ما لم أقل أقدر مني على رد ما قلت . وقال ملك الهند : عجبت لمن يتكلم بالكلمة ، فإن كانت له لم تنفعه ، وإن كانت عليه أوبقته[١] . وقال ملك فارس : أنا إذا تكلمت بالكلمة ملـكتني ، وإذا لم أتكلم بها ملكتها . وقـال ملك الروم : مـا ندمت على مـا لم أتكلم به قط ، ولقـد ندمت على مـا تكلمت به كثيرًا .

والسكـوت عند الملـوك أحـسـن مـن الهَذر الذي لا يرجـع منه إلى نـفع . وأفضل[٢] ما استظل به الإنسان لسانه . غير أن الملك ، أطال الله مدته ، لما فسح لي في الكلام وأوسع لي فيه ؛ كان أولى ما أبدأ به من الأمور التى هي غرضي أن يكون ثمرة ذلك له دوني ؛ وأن أخـتصه بالفـائدة قبلي . على أن العقـبى هي ما أقصد في كلامي له ، وإنما نـفعه وشرفه راجع إليه ؛ وأكون أنا قـد قضيت فرضًا وجب علي فأقول :

أيهـا الملك إنك في منازل آبائك وأجـدادك من الجبـابرة الذين أسسـوا الملك قـبلك ، وشيـدوه دونك ؛ وبَنَوُا القـلاع والحصـون ، ومهـدوا البلاد ، وقـادوا الجيـوش ؛ واستجاشـوا العدة[٣] ، وطالت لهم المدة ، واسـتكثروا من السـلاح والكُراع[٤]؛ وعاشوا الدهور ، في الغبطة والسرور ؛ فلم يمنعهم ذلك من اكتساب جمـيل الذكر ، ولا قطعهم عن اغـتنام الشكر ؛ ولا استـعمال الإحـسان إلى من

(١) أهلكته . (٢) وفي نسخة : وأعضل ما ضل به الإنسان لسانه .
(٣) استجاش الجيش : جمعه . (٤) الكراع اسم لجمع الخيل وقيل الخيل والسلاح .

خولوه ، والإرفاق بمن ولوه ، وحسن السيرة فيما تقلدوه ؛ مع عِظَمِ ما كانوا فيه من غرة الملك[1] ، وسكرة الاقتدار . وإنك أيها الملك السعيد جده ، الطالع كوكب سعده ، قد ورثت أرضهم وديارهم وأموالهم ومنازلهم التى كانت عدتهم؛ فأقمت فيما خولت من الملك ، وورثت من الأموال والجنود ؛ فلم تقم في ذلك بحق ما يجب عليك ؛ بل طغيت وبغيت وعتوت وعلوت على الرعية ، وأسأت السيرة وعظمت منك البلية ، وكان الأولى والأشبه بك أن تسلك سبيل أسلافك ،وتتبع آثار الملوك قبلك ، وتقفو محاسن ما أبقوه لك ،وتقلع عما عاره لازم لك ، وشينه واقع بك ؛ تحسن النظر برعيتك ، وتسن لهم سنن الخير الذى يبقى بعدك ذكره ، ويعقبك الجميل فخره ، ويكون ذلك أبقى على السلامة وأدوم على الاستقامة ، فإن الجاهل المغتر من استعمل في أموره البطر والأمنية ، والحازم اللبيب من ساس الملك بالمداراة والرفق ؛ فانظر أيها الملك ما ألقيت إليك ، ولا يثقلن ذلك عليك ، فلم أتكلم بهذا ابتغاء غرض تجازيني به ، ولا التماس معروف تكافئني فيه ؛ ولكني أتيتك ناصحًا مشفقًا عليك .

فلما فرغ بيدبا من مقالته ، وقضى مناصحته ، أوغر صدر الملك فأغلظ له في الجواب استصغارًا لأمره ؛ وقال : لقد تكلمت بكلام ما كنت أظن أن أحدًا من أهل مملكتي يستقبلني بمثله ، ولا يقدم على ما أقدمت عليه ، فكيف أنت مع صغر شأنك ، وضعف مُنَّتِك[2] وعجز قوتك . ولقد أكثرت إعجابي من إقدامك عليّ ، وتسلطك بلسانك فيما جاوزت فيه حدك . وما أجد شيئًا في تأديب غيرك أبلغ من التنكيل بك ، فذلك عبرة وموعظة لمن عساه أن يبلغ ويروم ما رمت أنت من الملوك إذا أوسعوا لهم في مجالسهم ، ثم أمر به أن يقتل ويصلب ، فلما مضوا به فيما أمر ، فكر فيما أمر به فأحجم عنه ،ثم أمر بحبسه وتقييده ، فلما

---

(١) غروره . (٢) قوتك .

حبس أنفذ في طلب تلاميذه ومن كان يجتمع إليه ، فهربوا في البلاد واعتصموا بجزائر البحار ؛ فمكث بيدبا في محبسه أيامًا لا يسأل الملك عنه ، ولا يلتفت إليه؛ ولا يجسرُ أحد أن يذكره عنده ؛ حتى إذا كان ليلة من الليالي سَهِدَ الملك سُهدًا شديدًا[1] ؛ فطال سُهدُه ، ومد إلى الفلك بصره ؛ وتفكر في تفلك الفَلَك[2] وحركات الكواكب ، فأغرق الفكر فيه ؛ فسلك به إلى استنباط شيء عرض له من أمور الفلك ، والمسألة عنه ، فذكر عند ذلك بيديا ، وتفكر فيما كلمه به ، فارعوى[3] لذلك . وقال في نفسه : لقد أسأت فيما صنعت بهذا الفيلسوف ، وضيعت واجب حقه ؛ وحملني على ذلك سرعة الغضب . وقد قالت العلماء : أربعة لا ينبغي أن تكون في الملوك : الغضب فإنه أجدر الأشياء مقتًا ، والبخل فإن صاحبه ليس بمعذور مع ذات يده ؛ والكذب فإنه ليس لأحد أن يجاوره ؛ والعنف في المحاورة فإن السفه ليس من شأنها ، وإنى أتى إليّ رجل نصح لي ، ولم يكن مبلِّغًا ؛ فعاملته بضد ما يستحق ، وكافأته بخلاف ما يستوجب . وما كان هذا جزاءه منى ، بل كان الواجب أن أسمع كلامه ، وأنقاد لما يشير به ، ثم أنفذ في ساعته من يأتيه به .

فلما مَثَل بين يديه قال له : يا بيدبا ألست الذى قصدت إلى تقصير همتي ، وعجزت رأيي في سيرتي بما تكلمت به آنفًا ؟ قال له بيدبا : أيها الملك الناصح الشفيق ، والصادق الرفيق ، إنما نبأتك بما فيه صلاح لك ولرعيتك ، ودوام ملكك لك . قال له الملك : يا بيدبا أعِد عليّ كلامك كله ، ولا تدع منه حرفًا إلا جئت به . فجعل بيدبا ينثر كلامه ، والملك مصغ إليه . وجعل دبشليم كلما سمع منه شيئًا ينكت الأرض بشيء كان في يده ، ثم رفع طرفه إلى بيدبا ، وأمره بالجلوس . وقال له : يا بيدبا ، إني قد استعذبت كلامك وحسن موقعه من

---

(١) أرق أرقًا شديدًا . (٢) استدارة مدار النجوم .

(٣) ارعوى ارعواء : نزع عن الجهل ورجع عنه .

قلبي، وأنا ناظر في الذى أشرت به ، وعـامل بما أمرت ثم أمر بقيـوده فحلت ، وألقى عليه من لباسـه ،وتلقاه بالقبول . فقـال بيدبا : يا أيها الملك ، إن في دون ما كلمتك به نُهـية لمثلك . قال : صدقت أيها الحكيم الفـاضل . وقد وليتك من مجلسـي هذا إلى جميع أقـاصي مملكتي . فقـال له : أيها الملك أعـفني من هذا الأمر، فإني غيـر مضطلع بتقويمه إلا بك فأعفـاه من ذلك فلما انصرف ، علم أن الذى فعله ليس برأى ، فبـعث فرده . وقال : إني فكرت في إعفائك مما عـرضته عليك فوجـدته لا يقوم إلا بك ، ولا ينهض به غيـرك . ولا يضطلع به سواك . فلا تخالفني فيه ، فأجابه بيدبا إلى ذلك .

وكان عادة ملوك ذلك الزمان إذا استوزروا وزيرًا أن يعقدوا على رأسه تاجًا ، ويركب في أهل المملكة ، ويطاف به في المدينة ، فأمر الملك أن يفعل ببيدبا ذلك، فوضع التاج على رأسه، وركب في المدينة ورجع فجلس بمجلس العدل والإنصاف يأخذ للدني من الشريف ، ويساوى بين القوي والضعيف ؛ ورد المظالم ، ووضع سنن العدل ، وأكثر من العطاء ، والبذل ، واتصل الخبـر بتلاميذه فجاءوه من كل مكان ، فـرحين بما جـدد الله له من جـديد رأى الملك في بيـدبا ؛ وشكروا الله تعالى على توفيق بيدبا في إزالة دبشليم عما كـان عليه من سوء السيرة ، واتخذوا ذلك اليوم عيدًا يعيدون فيه فهو إلى اليوم عيد عندهم في بلاد الهند .

ثم إن بيدبا لما أخلى فكره من اشتغاله بدبشليم ، تـفرغ لوضع كتب السياسة ونَشِطَ لها ، فعمل كتبًا كثيـرة ، فيها دقائق الحيل . ومضى الملك على ما رسم له بيدبا من حـسن السيرة والعـدل في الرعية ، فـرغبت إليه المـلوك الذين كانوا في نواحيه ؛ وانقادت له الأمور على استوائهـا ، وفرحت به رعيته وأهل مملكته . ثم إن بيدبا جـمع تلاميذه فـأحسن صلتهم ، ووعدهـم وعدًا جميـلاً . وقال لهم : لست أشك أنه وقع في نفـوسكم وقت دخولي على الملك أن قلتم : إن بيـدبا قد ضاعت حكمته ، وبطلت فكرته ؛ إذ عزم على الدخول على هذا الجبار الطاغي ،

فقد علمتم نتيجــة رأيي وصحة فكري . وإني لم آته جهلاً به ؛ لأني كنت أسمع من الحكماء قبلي تقول : إن الملوك لها سورة[١] كسورة الشراب ؛ فالملوك لا تفيق من السورة إلا بمواعظ الـعلماء وأدب الحكماء ، والواجب على المـلوك أن يتعظوا بمواعظ العلماء، والواجب على العلماء تقويم الملوك بألسنتها ، وتأديبها بحكمتها، وإظهار الحجة البينة اللازمة لهم ؛ ليرتدعـوا عما هم عليه من الاعوجاج والخروج عن العدل، فوجدت ما قالت العلماء فرضًا واجبًا على الحكماء لملوكهم ليوقظوهم من رقدتهم كالطبيب الذى يجب عليه في صناعتـه حفظ الأجساد على صحتها أو ردها إلى الصحة فكرهت أن يموت أو أموت وما يبقى على الأرض إلا من يقول: إنه كان بيدبا الفيلسوف في زمان دبشليم الطاغي فلم يرده عما كان عليه ، فإن قال قائل : إنه لم يمكنه كلامه خوفًا على نفـسه ، قالوا : كان الهرب منه ومن جواره أولى به ؛ والانزعاج عن الوطن شـديد ؛ فرأيت أن أجود بحـياتي ، فأكـون قد أتيت فيما بيني وبين الحكماء بعدي عـذرًا ، فحملتها على التغرير[٢] أو الظفـر بما أريده ، وكان من ذلك ما أنتم معاينوه : فإنه يقال في بعض الأمثال : إنه لم يبلغ أحد مرتبة إلا بإحدى ثلاث : إما بمشقة تنالـه في نفسه ، وإما بوضيعة في ماله ، أو وكس في دينه[٣] . ومن لم يركب الأهوال لم ينل الرغائب . وإن الملك دبشليم قد بسط لسـاني في أن أضع كتابًا فيـه ضروب الحكمة ، فليـضع كل واحد منكم شيـئًا في أى فن شاء، وليعرضـه عليّ لأنظر مقدار عـقله ، وأين بلغ من الحكمة فهمه .

قالوا : أيها الحكيم الفاضل ، واللبـيب العاقل ، والذى وهب لك ما منحك من الحكمة والعـقل والأدب والفضـيلة ، ما خطر هذا بقلوبنا سـاعة قط ، وأنت

(١) حدة . (٢) التعريض للهلاك .
(٣) أي أن يكون صاحب عقيدة صحيحة يتمسك بها مع أنه يُؤْذَى ويُنْتَقَص في سبيلها ، فإذا ناله وكس بسبب ذلك فإنه لابد أن يعرف الناس قدره بعد حين .

رئيسنا وفاضلنا ، وبك شرفنا ، وعلى يدك انتعاشنا ، ولكن سنجهد أنفسنا فيما أمرت .

ومكث الملك على ذلك من حسن السيرة زمانًا يتولى ذلك له بيدبا ويقوم به. ثم إن الملك دبشليم لما استقر له الملك ، وسقط عنه النظر في أمور الأعداء بما قد كفاه ذلك بيدبا ، صرف همته إلى النظر في الكتب التى وضعتها فلاسفة الهند لآبائه وأجداده ؛ فوقع في نفسه أن يكون له أيضًا كتاب مشروح ينسب إليه وتذكر فيه أيامه كما ذكر آباؤه وأجداده من قبله ، فلما عزم على ذلك ، علم أنه لا يقوم ذلك إلا ببيدبا ، فدعاه وخلا به، وقال له: يا بيدبا، إنك حكيم الهند وفيلسوفها، وإنى فكرت ونظرت في خزائن الحكمة التى كانت للملوك قبلي ، فلم أر فيهم أحدًا إلا وقد وضع كتابًا يذكر فيه أيامه وسيرته ، وينبيء عن أدبه وأهل مملكته ؛ فمنه ما وضعه الملوك لأنفسها ، وذلك لفضل حكمة فيها ؛ ومنه ما وضعته حكماؤها . وأخاف أن يلحقني ما لحق أولئك مما لا حيلة لي فيه ،ولا يوجد في خزائني كتاب أذكر به بعدي ، وأنسب إليه كما ذكر من كان قبلي بكتبهم ، وقد أحببت أن تضع لي كتابًا بليغًا تستفرغ فيه عقلك ، يكون ظاهره سياسة العامة وتأديبها ، وباطنه أخلاق الملوك وسياستها للرعية على طاعة الملك وخدمته ، فيسقط بذلك عني وعنهم كثير مما نحتاج إليه في معاناة الملك ، وأريد أن يبقى لي هذا الكتاب بعدي ذكرًا على غابر الدهور .

فلما سمع بيدبا كلامه خر له ساجدًا ، ورفع رأسه وقال : أيها الملك السعيد جده ، علا نجمك ، وغاب نحسك ، ودامت أيامك ، إن الذي قد طبع عليه الملك من جودة القريحة ووفور العقل حركه لعالي الأمور؛ وسمت به نفسه وهمته إلى أشرف المراتب منزلة ، وأبعدها غاية ؛ وأدام الله سعادة الملك وأعانه على ما عزم من ذلك ، وأعانني على بلوغ مراده ، فليأمر الملك بما شاء من ذلك ؛ فإني صائر إلى غرضه ، مجتهد فيه برأيي .

قال له الملك : يا بيدبا لم تزل موصوفًا بحسن الرأى وطاعة الملوك في أمورهم. وقد اختبرت منك ذلك ، واخترت أن تضع هذا الكتاب ،وتُعمل فيه فكرك ، وتجهد فيه نفسك ، بغاية ما تجد إليه السبيل ، وليكن مشتملاً على الجد والهزل واللهو والحكمة والفلسفة ، فكفر له بيدبا وسجد ، وقال : قد أجبت الملك أدام الله أيامه إلى ما أمرنى به ، وجعلت بيني وبينه أجلاً . قال : وكم هو الأجل ؟ قال : سنة . قال : قد أجلتك ؛ وأمر له بجائزة سنية تعينه على عمل الكتاب ، فبقى بيدبا مفكرًا في الأخذ فيه ، وفي أى صورة يبتدىء بها فيه وفي وضعه .

ثم إن بيدبا جمع تلاميذه وقال لهم : إن الملك قد ندبني لأمر فيه فخري وفخركم وفخر بلادكم ، وقد جمعتكم لهذا الأمر . ثم وصف لهم ما سأل الملك من أمر الكتاب ، والغرض الذى قصد فيه ؛ فلم يقع لهم الفكر فيه ، فلما لم يجد عندهم ما يريده فكر بفضل حكمته ،وعلم أن ذلك أمر إنما يتم باستفراغ العقل وإعمال الفكر ؛ وقال : أرى السفينة لا تجري في البحر إلا بالملاحين ؛ لأنهم يُعَدلونها ، وإنما تسلك اللجة بمدبرها الذى تفرد بإمرتها[1] ؛ ومتى شحنت بالركاب الكثيرين وكثر ملاحوها لم يؤمن عليها من الغرق .

ولم يزل يفكر فيما يعمله في باب الكتاب حتى وضعه على الانفراد بنفسه ، مع رجل من تلاميذه كان يثق به ؛ فخلا به منفردًا معه ، بعد أن أعد من الورق الذى كانت تكتب فيه الهند شيئًا ، ومن القوت ما يقوم به وبتلميذه تلك المدة ، وجلسا في مقصورة ، وردا عليهما الباب ، ثم بدأ في نظم الكتاب وتصنيفه ؛ ولم يزل هو يملي ، وتلميذه يكتب ، ويرجع هو فيه ؛ حتى استقر الكتاب على غاية الإتقان والإحكام ورتب فيه أربعة عشر بابًا ، كل باب منها قائم بنفسه .

---

(١) الرياسة .

وفي كل باب مسألة والجواب عنها ؛ ليكون لمن نظر فيه حظ من الهداية ، وضمن تلك الأبواب كتابًا واحدًا ؛ وسماه كتاب كَلِيلَة ودِمنَة . ثم جعل كلامه على ألسن البهائم والسباع والطير ؛ ليكون ظاهره لهوًا للخواص والعوام ، وباطنه رياضة لعقول الخاصة ، وضمنه أيضًا ما يحتاج إليه الإنسان من سياسة نفسه وأهله وخاصته ، وجميع ما يحتاج إليه من أمر دينه ودنياه ، وآخرته وأولاه ؛ ويحضه على حسن طاعته للملوك ، ويجنبه ما تكون مجانبته خيرًا له . ثم جعله باطنًا وظاهرًا كرسم سائر الكتب التى برسم الحكمة ، فصار الحيوان لهوًا ، وما ينطق به حِكمَةً وأدبًا .

فلما ابتدأ بيدبا بذلك جعل أول الكتاب وصف الصديق ، وكيف يكون الصديقان ، وكيف تقطع المودة الثابتة بينهما بحيلة ذي النميمة ، وأمر تلميذه أن يكتب على لسان بيدبا مثل ما كان الملك شرطه في أن جعله لهوًا وحكمة ، فذكر بيدبا أن الحكمة متى دخلها كلام النقلة أفسدها واستجهل حكمتها .

فلم يزل هو وتلميذه يعملان الفكر فيما سأله الملك ، حتى فتق لهما العقل أن يكون كلامهما على لسان بهيمتين فوقع لهما موضع اللهو والهزل بكلام البهائم. وكانت الحكمة ما نطقا به ، فأصغت الحكماء إلى حكمه وتركوا البهائم واللهو ، وعلموا أنها السبب في الذى وضع لهم ، ومالت إليه الجهال عجبًا من محاورة بهيمتين ، ولم يشكوا في ذلك ؛ واتخذوه لهوًا ، وتركوا معنى الكلام أن يفهموه ولم يعلموا الغرض الذى وضع له؛ لأن الفيلسوف إنما كان غرضه في الباب الأول أن يخبر عن تواصل الإخوان كيف تتأكد المودة بينهم على التحفظ من أهل السعاية[1] والتحرز ممن يوقع العداوة بين المتحابين ؛ ليجر بذلك نفعًا إلى نفسه .

---

(١) السِّعاية : الوشاية والنميمة .

فلم يزل بيدبا وتلميذه في المقصورة، حتى استتما عمل الكتاب في مدة سنة، فلما تم الحول أنفذ إليه الملك أن قد جاء الوعد، فماذا صنعت ؟ فأنفذ إليه بيدبا : إني على ما وعدت الملك ، فليأمرني بحمله بعد أن يجمع أهل المملكة ، لتكون قراءتي هذا الكتاب بحضرتهم ، فلما رجع الرسول إلى الملك سر بذلك ، ووعده يومًا يجمع فيه أهل المملكة ثم نادى في أقاصي بلاد الهند ليحضروا قراءة الكتاب.

فلما كان ذلك اليوم ، أمر الملك أن ينصب لبيدبا سرير مثل سريره ؛ وكراسي لأبناء الملوك والعلماء . وأنفذ فأحضره . فلما جاءه الرسول قام فلبس الثياب التى كان يلبسها إذا دخل على الملوك ، وهي المسوح السود ، وحمل الكتاب تلميذه ، فلما دخل على الملك ، وثب الخلائق بأجمعهم ، وقام الملك شاكرًا ، فلما قرب من الملك كفر له وسجد ، ولم يرفع رأسه ، فقال له الملك : يا بيدبا ارفع رأسك ، فإن هذا يوم هناءة وفرح وسرور، وأمره أن يجلس، فحين جلس لقراءة الكتاب ، سأله عن معنى كل باب من أبوابه ، وإلى أى شيء قصد فيه ، فأخبره بغرضه فيه وفي كل باب ، فازداد الملك منه تعجبًا وسرورًا ، فقال له : يا بيدبا ما عدوت الذى في نفسي ؛ وهذا الذى كنت أطلب ، فاطلب ما شئت وتحكم .

فدعا له بيدبا بالسعادة وطول الجد وقال : أيها الملك أما المال فلا حاجة لي فيه ، وأما الكسوة فلا أختار على لباسي هذا شيئًا ، ولست أخلي الملك من حاجة.

قال الملك : يا بيدبا ما حاجتك ؟ فكل حاجة لك قِبلنا مقضية .

قال : يأمر الملك أن يدون كتابى هذا كما دون آباؤه وأجداده كتبهم ، ويأمر بالمحافظة عليه ، فإنى أخاف أن يخرج من بلاد الهند فيتناوله أهل فارس إذا علموا به ؛ فالملك يأمر ألا يخرج من بيت الحكمة .

ثم دعا الملك بتلاميذه وأحسن لهم الجوائز .

ثم إنه لما ملك كسرى أنوشروان وكان مستأثرًا بالكتب والعلم والأدب والنظر في أخبار الأوائل وقع له خبر الكتاب ؛ فلم يَقَرَّ قراره حتى بعث برزويه الطبيب وتلطف حتى أخرجه من بلاد الهند فأقره في خزائن فارس .

***

## باب : بعثة برزويه إلى بلاد الهند

أما بعد فإن الله تعالى خلق الخلق برحمته ، ومنّ على عباده بفضله وكرمه ، ورزقهم ما يقدرون به على إصلاح معايشهم في الدنيا ، ويدركون به استنقاذ أرواحهم من العذاب في الآخرة ، وأفضل ما رزقهم الله تعالى ومن به عليهم العقل الذى هو الدعامة لجميع الأشياء ، والذى لا يقدر أحد في الدنيا على إصلاح معيشته ولا إحراز نفع ولا دفع ضرر إلا به ، وكذلك طالب الآخرة المجتهد في العمل المنجي به روحه لا يقدر على إتمام عمله وإكماله إلا بالعقل الذى هو سبب كل خير ومفتاح كل سعادة ، فليس لأحد غنى عن العقل ، والعقل مكتسب بالتجارب والأدب ، وله غريزة مكنونة في الإنسان كامنة كالنار في الحجر لا تظهر ولا يُرى ضوءها حتى يقدحها قادح من الناس ؛ فإذا قُدِحت ظهرت طبيعتها ، وكذلك العقل كامن في الإنسان لا يظهر حتى يظهره الأدب وتقويه التجارب ، ومن رزق العقل ومن به عليه وأُعين على صدق قريحته بالأدب حرص على طلب سعد جده ، وأدرك في الدنيا أمله ، وحاز في الآخرة ثواب الصالحين .

وقد رزق الله الملك السعيد أنوشروان من العقل أفضله ، ومن العلم أجزله ؛ ومن المعرفة بالأمور أصوبها ، ومن الأفعال أسدها ، ومن البحث عن الأصول والفروع أنفعه ؛ وبلغه من فنون اختلاف العلم ، وبلوغ منزلة الفلسفة ، ما لم يبلغه ملك قط من الملوك قبله؛ حتى كان فيما طلب وبحث عنه من العلم أن بلغه عن كتاب بالهند ، علم أنه أصل كل أدب ورأس كل علم ، والدليل على كل منفعة ، ومفتاح عمل الآخرة وعلمها، ومعرفة النجاة من هولها ؛ فأمر الملك وزيره بُزُرجمهر أن يبحث له عن رجل أديب عاقل من أهل مملكته ، بصير بلسان الفارسية ماهر في كلام الهند ؛ ويكون بليغًا باللسانين جميعًا ، حريصًا على طلب

العلم ، مجتهدًا في استعمال الأدب ، مبادرًا في طلب العلم ، والبحث عن كتب الفلسفة ، فأتاه برجل أديب كامل العقل والأدب ، معروف بصناعة الطب ، ماهر في الفارسية والهندية يقال له برزويه ، فلما دخل عليه كفَّر وسجد بين يديه .

فقال له الملك : يا برزويه ، إني قد اخترتك لما بلغني من فضلك وعلمك وعقلك ، وحرصك على طلب العلم حيث كان وقد بلغني عن كتاب بالهند مخزون في خزائنهم ، وقص عليه ما بلغه عنه . وقال له : تجهز فإني مُرَحلُك إلى أرض الهند ؛ فتلطف بعقلك وحسن أدبك وناقد رأيك ، لاستخراج هذا الكتاب من خزائنهم ومن قبل علمائهم ، فتستفيد بذلك وتفيدنا ، وما قدرت عليه من كتب الهند مما ليس في خزائننا منه شيء فاحمله معك ؛ وخذ معك من المال ما تحتاج إليه ، وعجل ذلك ، ولا تقصر في طلب العلوم وإن أكثرت فيه النفقة ؛ فإن جميع ما في خزائني مبذول لك في طلب العلوم . وأمر بإحضاره ، فاختاروا له يومًا يسير فيه ، وساعة صالحة يخرج فيها ، وحمل معه من المال عشرين جرابًا؛ كل جراب فيه عشرة آلاف دينار .

فلما قدم برزويه بلاد الهند طاف بباب الملك ومجالس السوقة[1] وسأل عن خواص الملك والأشراف والعلماء والفلاسفة ؛ فجعل يغشاهم في منازلهم ، ويتلقاهم بالتحية، ويخبرهم بأنه رجل غريب قدم بلادهم لطلب العلوم والأدب ، وأنه محتاج إلى معاونتهم في ذلك .

فلم يزل كذلك زمانًا طويلاً يتأدب عن علماء الهند بما هو عالم بجميعه ، وكأنه لا يعلم منه شيئًا ؛ وهو فيما بين ذلك يستر بغيته وحاجته ، واتخذ في تلك الحالة لطول مقامه أصدقاء كثيرة من الأشراف والعلماء والفلاسفة والسوقة ومن أهل كل طبقة وصناعة ؛ وكان قد اتخذ من بين أصدقائه رجلاً واحدًا قد اتخذه لسره وما يحب مشاورته فيه ؛ للذى ظهر له من فضله وأدبه ، واستبان له من

---

(١) الرعية .

صحة إخائه ؛ وكان يشاوره في الأمور ، ويرتاح إليه في جميع ما أهمه ، إلا أنه كان يكتم منه الأمر الذي قدم من أجله لكي يبلوه ويخبره وينظر هل هو أهل أن يطلعه على سره .

فقال له يومًا وهما جالسان : يا أخي ما أريد أن أكتمك من أمري فوق الذي كتمتك . فاعلم أني لأمر قدمت ، وهو غير الذي يظهر مني ؛ والعاقل يكتفي من الرجل بالعلامات من نظره ، حتى يعلم سر نفسه وما يضمره قلبه .

قال له الهندي : إنى وإن لم أكن بدأتك وأخبرتك بما جئت له ، وإياه تريد؛ وأنك تكتم أمرًا تطلبه ، وتظهر غيره ؛ ما خفي عليّ ذلك منك ، ولكني لرغبتي في إخائك ، كرهت أن أواجهك به ، وإنه قد استبان ما تخفيه مني ، فأما إذ قد أظهرت ذلك ، وأفصحت به وبالكلام فيه ، فإنى مخبرك عن نفسك ، ومظهر لك سريرتك ، ومعلمك بحالتك التى قدمت لها : فإنك قدمت بلادنا لتسلبنا كنوزنا النفيسة ، فتذهب بها إلى بلادك ، وتسر بها ملكك ، وكان قدومك بالمكر والخديعة ، ولكني لما رأيت صبرك ، ومواظبتك على طلب حاجتك ، والتحفظ من أن يسقط منك الكلام ، مع طول مكثك عندنا ، بشيء يستدل به على سريرتك وأمورك ، ازددت رغبة في إخائك ، وثقة بعقلك ، فأحببت مودتك ، فإنى لم أر في الرجال رجلاً هو أرصن[1]منك عقلاً ، ولا أحسن أدبًا ، ولا أصبر على طلب العلم ولا أكتم لسره منك ؛ ولا سيما في بلاد غربة ، ومملكة غير مملكتك ، عند قوم لا تعرف سنتهم ، وإن عقل الرجل ليبين في ثماني خصال :

الأولى : الرفق . والثانية : أن يعرف الرجل نفسه فيحفظها . والثالثة : طاعة الملوك ، والتحري لما يرضيهم . والرابعة : معرفة الرجل موضع سره ، وكيف ينبغي أن يطلع عليه صديقه . والخامسة : أن يكون على أبواب الملوك أديبًا مَلِقَ اللسان[2]. والسادسة : أن يكون لسره وسر غيره حافظًا . والسابعة : أن

---

(١) أثبت . (٢) متوددًا : متلطفًا .

يكون على لسانه قادرًا ، فلا يتكلم إلا بما يأمن تبعته . والثامنة : إن كان بالمحفل لا يتكلم إلا بما يُسأل عنه .

فمن اجتمعت فيه هذه الخصال كان هو الداعي الخير إلى نفسه . وهذه الخصال كلها قد اجتمعت فيك وبانت لي منك ، فالله تعالى يحفظك ويعينك على ما قدمت له ؛ فمصادقتك إياي ، وإن كانت لتسلبني كنزي وفخري وعلمي تجملك أهلاً لأن تسعف بحاجتك ، وتشفع بطلبتك[1] ، وتعطى سؤلك[2] .

فقال له برزويه : إني قد كنت هيأت كلامًا كثيرًا ، وشعبت له شعوبًا ، وأنشأت له أصولاً وطرقًا ؛ فلما انتهيت إلى ما بدأتني به من اطلاعك على أمري والذى قدمت له ؛ وألقيته عليّ من ذات نفسك، ورغبتك فيما ألقيت من القول ، اكتفيت باليسير من الخطاب معك ، وعرفت الكبير من أموري بالصغير من الكلام، واقتصرت به معك على الإيجاز ، ورأيت من إسعافك إياي بحاجتي ما دلني على كرمك وحسن وفائك ؛ فإن الكلام إذا ألقى إلى الفيلسوف ، والسر إذا استودع إلى اللبيب الحافظ ، فقد حُصِّنَ وبلغ به نهاية أمل صاحبه ، كما يحصن الشيء النفيس في القلاع الحصينة .

قال له الهندي : لا شيء أفضل من المودة . ومن خَلَصَت مودته كان أهلاً أن يخلطه الرجل بنفسه ، ولا يدخر عنه شيئًا ، ولا يكتمه سرًا ؛ فإن حفظ السر رأس الأدب . فإذا كان السر عند الأمين الكتوم فقد احترز من التضييع ؛ مع أنه خليق ألا يتكلم به ؛ ولا يتم سر بين اثنين قد علماه وتفاوضاه ، فإذا تكلم بالسر اثنان فلابد من ثالث من جهة أحدهما ؛ فإذا صار إلى الثلاثة فقد شاع وذاع ، حتى لا يستطيع صاحبه أن يجحده ويكابر عنه ، كالغيم إذ كان متقطعًا في السماء فقال قائل : هذا غيم متقطع ، لا يقدر أحد على تكذيبه ، وأنا قد يداخلني من مودتك وخلطتك[3] سرور لا يعدله شيء ، وهذا الأمر الذى تطلبه مني أعلم أنه

---

(١) مطلوبك . (٢) المسؤول . (٣) عِشرَتك .

من الأسرار التي لا تكتم ، فلابد أن يفشو ويظهر ، حتى يتحدث به الناس ، فإذا فشا فقد سعيت في هلاكي هلاكًا لا أقدر على الفداء منه بالمال وإن كثر ؛ لأن ملكنا فظ غليظ ، يعاقب على الذنب الصغير أشد العقاب ؛ فكيف مثل هذا الذنب العظيم ؟ وإذا حملتني المودة التي بيني وبينك فأسعفتك بحاجتك لم يرد عقابه عني شيء .

قال برزويه : إن العلماء قد مدحت الصديق إذا كتم سر صديقه وأعانه على الفوز ، وهذا الأمر الذي قدمت له ، لمثلك ذخرته ، وبك أرجو بلوغه ؛ وأنا واثق بكرم طباعك ووفور عقلك . وأعلم أنك لا تخشى مني ولا تخاف أن أبديه؛ بل تخشى أهل بيتك الطائفين بك وبالملك أن يسعوا بك إليه ، وأنا أرجو ألا يشيع شيء من هذا الأمر لأني أنا ظاعن وأنت مقيم ؛ وما أقمت فلا ثالث بيننا ، فتعاهدا على هذا جميعًا .

وكان الهندي خازن الملك ، وبيده مفاتيح خزائنه ، فأجابه إلى ذلك الكتاب وإلى غيره من الكتب ، فأكب على تفسيره ونقله من اللسان الهندي إلى اللسان الفارسي ، وأتعب نفسه ، وأنصب بدنه ليلاً ونهارًا ، وهو مع ذلك وجل وفزع من ملك الهند ؛ خائف على نفسه من أن يذكر الملك الكتاب في وقت ولا يصادفه في خزائنه .

فلما فرغ من انتساخ الكتاب وغيره مما أراد من سائر الكتب ، كتب إلى أنوشروان يعلمه بذلك ، فلما وصل إليه الكتاب ، سر بذلك سرورًا شديدًا ؛ ثم تخوف معاجلة المقادير أن تنغص عليه فرحه ، فكتب إلى برزويه يأمره بتعجيل القدوم ، فسار برزويه متوجهًا نحو كسرى .

فلما رأى الملك ما قد مسه من الشحوب[1] والتعب والنصب قال له : أيها العبد الناصح الذي يأكل ثمرة ما قد غرس ، أبشر وقر عينًا ؛ فإني مشرفك وبالغ

---

(١) تغير اللون من السفر ونحوه .

بك أفضل درجة ، وأمره أن يريح بدنه سبعة أيام .

فلما كان اليوم الثامن ، أمر الملك أن يجتمع إليه الأمراء والعلماء ، فلما اجتمعوا ، أمر برزويه بالحضور ، فحضر ومعه الكتب ؛ ففتحها وقرأها على من حضر من أهل المملكة ، فلما سمعوا ما فيها من العلم فرحوا فرحًا شديدًا ؛ وشكروا الله على ما رزقهم ، ومدحوا برزويه وأثنوا عليه ؛ وأمر الملك أن تفتح لبرزويه خزائن اللؤلؤ والزبرجد والياقوت والذهب والفضة ؛ وأمره أن يأخذ من الخزائن ما شاء من مال أو كُسوة ؛ وقال : يا برزويه إني قد أمرت أن تجلس على مثل سريري هذا ، وتلبس تاجًا ، وتترأس على جميع الأشراف .

فسجد برزويه للملك ودعا له وطلب من الله وقال : أكرم الله تعالى الملك كرامة الدنيا والآخرة ، وأحسن عني ثوابه وجزاءه ؛ فإني بحمد الله مستغنٍ عن المال بما رزقني الله على يد الملك السعيد الجد ، العظيم الملك ؛ ولا حاجة لي بالمال ، لكن لما كلفني الملك ذلك وعلمت أنه يسره ، أنا أمضي إلى الخزائن فآخذ منها طلبًا لمرضاته وامتثالاً لأمره ، ثم قصد خزانة الثياب فأخذ منها تختًا[1] من طرائف خراسان من ملابس الملوك ، فلما قبض برزويه ما اختاره ورضيه من الثياب قال : أكرم الله الملك ومد في عمره أبدًا ، لابد أن الإنسان إذا أكرم وجب عليه الشكر ؛ وإن كان قد استوجبه تعبًا ومشقة ، فقد كان فيهما رضا الملك . وأما أنا فما لقيته من عناء وتعب ومشقة ، لما أعلم أن لكم فيه الشرف يا أهل هذا البيت ، فإني لم أزل إلى هذا اليوم تابعًا رضاكم ، أرى العسير فيه يسيرًا ، والشاق هينًا ، والنصب والأذى سرورًا ولذة ، لما أعلم أن لكم فيه رضا وقربة عندكم ، ولكني أسألك أيها الملك حاجة تسعفني بها ، وتعطيني فيها سؤلي ، فإن حاجتي يسيرة، وفي قضائها فائدة كثيرة .

قال أنوشروان : قل فكل حاجة لك قِبَلنا مقضية ؛ فإنك عندنا عظيم ؛ ولو

(١) وعاء تصان فيه الثياب .

طلبت مشاركتنا في ملكنا لفعلنا ، ولم نرد طلبتك ؛ فكيف ما سوى ذلك ؟ فقل ولا تحتشم ، فإن الأمور كلها مبذولة لك .

قال برزويه : أيها الملك لا تنظر إلى عنائي في رضاك وانكماشي[1] في طاعتك ؛ فإنما أنا عبدك يلزمني بذل مهجتي في رضاك ؛ ولو لم تجزني لم يكن ذلك عندي عظيمًا ولا واجبًا على الملك ؛ ولكن لكرمه وشرف منصبه عمد إلى مجازاتي ؛وخصني وأهل بيتي بعلو المرتبة ورفع الدرجة ؛ حتى لو قدر أن يجمع لنا بين شرف الدنيا والآخرة لفعل ، فجزاه الله عنا أفضل الجزاء .

قال أنوشروان : اذكر حاجتك ، فعلي ما يسرك .

فقال برزويه : حاجتي أن يأمر الملك ، أعلاه الله تعالى ، وزيره بزرجمهر ابن البختكان ؛ ويقسم عليه أن يُعمل فكره ، ويجمع رأيه ، ويجهد طاقته ، ويفرغ قلبه في نظم تأليف كلام متقن محكم ؛ ويجعله بابًا يذكر في أمري ويصف حالي ؛ ولا يدع من المبالغة في ذلك أقصى ما يقدر عليه ، ويأمره إذا استتمه أن يجعله أول الأبواب التى تقرأ قبل باب الأسد والثور ، فإن الملك إذا فعل ذلك فقد بلغ بي وبأهلي غاية الشرف وأعلى المراتب ؛ وأبقى لنا ما لا يزال ذكره باقيًا على الأمد ، حيثما قرىء هذا الكتاب .

فلما سمع كسرى أنوشروان والعظماء مقالته وما سمت إليه نفسه من محبة إبقاء الذكر استحسنوا طلبته واختياره ، وقال كسرى : حبًا وكرامة لك يا برزويه ، إنك لأهل أن تسعف بحاجتك ؛ فما أقل ما قنعت به وأيسره عندنا ، وإن كان خطره[2] عندك عظيمًا ، ثم أقبل أنوشروان على وزيره بزرجمهر فقال له : قد عرفت مناصحة برزويه لنا ، وتجشمه[3] المخاوف والمهالك فيما يقربه منا ، وإتعابه بدنه فيما يسرنا ؛ وما أتى به إلينا من المعروف ، وما أفادنا الله على يده من

(١) الانكماش في الأمر : الجد فيه .
(٢) القدر والشرف .
(٣) تجشم الأمر : تكلفه على مشقة .

الحكمة والأدب الباقي لنا فخره ، وما عرضنا عليه من خزائننا لنجزيه بذلك على ما كان منه ، فلم تمل نفسه إلى شيء من ذلك ؛ وكان بغيته وطلبته منا أمرًا يسيرًا رآه هو الثواب منا له والكرامة الجليلة عنده ؛ فإني أحب أن تتكلم في ذلك وتسعفه بحاجته وطلبته . واعلم أن ذلك مما يسرني ، ولا تدع شيئًا من الاجتهاد والمبالغة إلا بلغته ، وإن نالتك فيه مشقة ، وهو أن تكتب بابًا مضارعًا لتلك الأبواب التي في الكتاب ، وتذكر فيه فضل برزويه ، وكيف كان ابتداء أمره وشأنه؛ وتنسبه إليه وإلى حسبه وصناعته ، وتذكر فيه بعثته إلى بلاد الهند في حاجتنا ؛ وما أفدنا على يديه من هنالك ، وشرفنا به وفضلنا على غيرنا ؛ وكيف كان حال برزويه وقدومه من بلاد الهند ؛ فقل ما تقدر عليه من التقريظ والإطناب في مدحه ، وبالغ في ذلك أفضل المبالغة، واجتهد في ذلك اجتهادًا يسر برزويه وأهل المملكة، وإن برزويه أهل لذلك مني ومن جميع أهل المملكة ومنك أيضًا لمحبتك للعلوم ، واجهد أن يكون غرض هذا الكتاب الذى ينسب إلى برزويه أفضل من أغراض تلك الأبواب عند الخاص والعام ، أشد مشاكلة لحال هذا العلم ، فإنك أسعد الناس كلهم بذلك : لانفرادك بهذا الكتاب ؛ واجعله أول الأبواب ، فإذا أنت عملته ووضعته في موضعه فأعلمني لأجمع أهل المملكة وتقرأه عليهم ، فيظهر فضلك واجتهادك في محبتنا ، فيكون لك بذلك فخر .

فلما سمع بزرجمهر مقالة الملك خر له ساجدًا ، وقال : أدام الله لك أيها الملك البقاء ، وبلغك أفضل منازل الصالحين في الآخرة والأولى ، لقد شرفتني بذلك شرفًا باقيًا إلى الأبد .

ثم خرج بزرجمهر من عند الملك ، فوصف برزويه من أول يوم دفعه أبواه إلى المعلم ، ومضيه إلى بلاد الهند في طلب العقاقير[1] والأدوية ؛ وكيف تعلم

(١) أصول الأدوية مفرده عَقَّار .

خطوطهم ولغتهم ؛ إلى أن بعثه أنوشروان إلى الهند في طلب الكتاب ، ولم يدع من فضائل برزويه وحكمته وخلائقه ومذهبه أمرًا إلا نَسَّقه ، وأتى به بأجود ما يكون من الشرح ، ثم أعلم الملك بفراغه منه .

فجمع أنوشروان أشراف قومه وأهل مملكته ، وأدخلهم إليه ؛ وأمر بزرجمهر بقراءة الكتاب ، وبرزويه قائم إلى جانب بزرجمهر ، وابتدأ بوصف برزويه حتى انتهى إلى آخره ، ففرح الملك بما أتى به بزرجمهر من الحكمة والعلم ، ثم أثنى الملك وجميع من حضره على بزرجمهر ، وشكروه ومدحوه ؛ وأمر له الملك بمال جزيل وكسوة وحليٍّ وأوانٍ ؛ فلم يقبل من ذلك شيئًا غير كسوة كانت من ثياب الملوك . ثم شكر له ذلك برزويه وقبل رأسه ويده ؛ وأقبل برزويه على الملك ، وقال : أدام الله لك الملك والسعادة فقد بلغت بي وبأهلي غاية الشرف بما أمرت به بزرجمهر من صُنعه الكتاب في أمري وإبقاء ذكري .

* * *

## باب : عرض الكتاب
## ترجمة عبد الله بن المقفع

هذا كتاب كليلة ودمنة ، وهو مما وضعه علماء الهند من الأمثال والأحاديث التى ألهموا أن يدخلوا فيها أبلغ ما وجدوا من القول في النحو الذى أرادوا ، ولم تزل العلماء من أهل كل ملة يلتمسون أن يعقل عنهم ، ويحتالون في ذلك بصنوف الحيل ؛ ويبتغون إخراج ما عندهم من العلل ، حتى كان من تلك العلل وضع هذا الكتاب على أفواه البهائم والطير ، فاجتمع لهم بذلك خلال ، أما هم فوجدوا متصرفًا في القول وشعابًا يأخذون منها، وأما الكتاب فجمع حكمة ولهوًا. فاختاره الحكماء لحكمته ، والسفهاء للهوه ، والمتعلم من الأحداث ناشط في حفظ ما صار إليه من أمر يُربط في صدره ولا يدري ما هو ، بل عرف أنه قد ظفر من ذلك بمكتوب مرقوم ، وكان كالرجل الذى لما استكمل الرجولية وجد أبويه قد كنزا له كنوزًا ، وعقدا عقودًا استغنى بها عن الكدح[1] فيما يعمله من أمر معيشته ؛ فأغناه ما أشرف عليه من الحكمة ، عن الحاجة إلى غيرها من وجوه الأدب .

وينبغي لمن قرأ هذا الكتاب أن يعرف الوجوه التى وضعت له ، وإلى أى غاية جرى مؤلفه فيه عندما نسبه إلى البهائم وأضافه إلى غير مُفصح ؛ وغير ذلك من الأوضاع التى جعلها أمثالاً ؛ فإن قارئه متى لم يفعل ذلك لم يدر ما أريد بتلك المعاني ، ولا أى ثمرة يجتني منها ، ولا أى نتيجة تحصل له من مقدمات ما تضمنه هذا الكتاب . وإنه وإن كان غايته استتمام قراءته إلى آخره دون معرفة ما يقرأ منه لم يعد عليه شيء يرجع إليه نفعه ، ومن استكثر من جمع العلوم وقراءة

---

(١) الكد والسعي .

الكتب ، من غير إعمال الروية فيما يقرؤه ، كان خليقًا ألا يصيبه إلا ما أصاب الرجل الذى زعمت العلماء أنه اجتاز ببعض المفاوز ، فظهر له موضع آثار كنز ؛ فجعل يحفر ويطلب ، فوقع على شيء من عين وورق ؛ فقال في نفسه : إن أنا أخذت في نقل هذا المال قليلاً قليلاً طال عليّ ، وقطعني الاشتغال بنقله وإحرازه عن اللذة بما أصبت منه ؛ ولكن سأستأجر أقوامًا يحملونه إلى منزلي ، وأكون أنا آخرهم ، ولا يكون بقي ورائي شيء يشغل فكري بنقله ؛ وأكون قد استظهرت[1] لنفسي في إراحة بدني عن الكد بيسير أجرة أعطيهم إياها ، ثم جاء بالحمالين ، فجعل يحمل كل واحد منهم ما يطيق فينطلق به إلى منزله فيفوز به ؛ حتى لم يبق من الكنز شيء ، فانطلق خلفهم إلى منزله فلم يجد فيه من المال شيئًا ، لا قليلاً ولا كثيرًا ، وإذا كل واحد من الحمالين قد فاز بما حمله لنفسه ، ولم يكن له من ذلك إلا العناء والتعب لأنه لم يفكر في آخر أمره .

وكذلك من قرأ هذا الكتاب ، ولم يفهم ما فيه ، ولم يعلم غرضه ظاهرًا وباطنًا ، لم ينتفع بما بدا له من خطه ونقشه ؛ كما لو أن رجلاً قدم له جوز صحيح لم ينتفع به إلا أن يكسره ؛ وكان أيضًا كالرجل الذى طلب علم الفصيح من كلام الناس ؛ فأتى صديقًا له من العلماء ، له علم بالفصاحة ، فأعلمه حاجته إلى علم الفصيح ؛ فرسم له صديقه في صحيفة صفراء فصيح الكلام وتصاريفه ووجوهه ؛ فانصرف المتعلم إلى منزله ؛ فجعل يكثر قراءتها ولا يقف على معانيها ، ثم إنه جلس ذات يوم في محفل من أهل العلم والأدب ، فأخذ في محاورتهم فجرت له كلمة أخطأ فيها ، فقال له بعض الجماعة ، إنك قد أخطأت ؛ والوجه غير ما تكلمت به ، فقال : كيف أخطىء وقد قرأت الصحيفة الصفراء ؛ وهي في منزلي ؟ فكانت مقالته لهم أوجب للحجة عليه؛ وزاده ذلك قربًا من الجهل وبعدًا من الأدب .

(١) استعنت .

ثم إن العاقل إذا فهم هذا الكتاب وبلغ نهاية علمه فيه ، ينبغي له أن يعمل بما علم منه لينتفع به ؛ ويجعله مثالاً لا يحيد عنه ، فإذا لم يفعل ذلك ، كان مثله كالرجل الذى زعموا أن سارقًا تسور عليه وهو نائم في منزله ، فعلم به فقال: والله لأسكتن حتى أنظر ماذا يصنع ، ولا أذعره ؛ ولا أعلمه أني قد علمت به ، فإذا بلغ مراده قمت إليه ، فنغصت ذلك عليه ، ثم إنه أمسك عنه وجعل السارق يتردد ، وطال تردده في جمعه ما يجده ؛ فغلب الرجل النعاس فنام وفرغ اللص مما أراد ، وأمكنه الذهاب ، واستيقظ الرجل ، فوجد اللص قد أخذ المتاع وفاز به ، فأقبل على نفسه يلومها ، وعرف أنه لم ينتفع بعلمه باللص إذ لم يستعمل في أمره ما يجب .

فالعلم لا يتم إلا بالعمل ، وهو كالشجرة والعمل به كالثمرة ، وإنما صاحب العلم يقوم بالعمل لينتفع به ؛ وإن لم يستعمل ما يعلم لا يسمى عالمًا ، ولو أن رجلاً كان عالمًا بطريق مخوف ، ثم سلكه على علم به ، سمي جاهلاً ، ولعله إن حاسب نفسه وجدها قد ركبت أهواء هجمت بها فيما هو أعرف بضررها فيه وأذاها من ذلك السالك في الطريق المخوف الذى قد جهله ، ومن ركب هواه ورفض ما ينبغي أن يعمل بما جربه هو أو أعلمه به غيره ، كان كالمريض العالم برديء الطعام والشراب وجيده وخفيفه وثقيله ، ثم يحمله الشره على أكل رديئه وترك ما هو أقرب إلى النجاة والتخلص من علته .

وأقل الناس عذرًا في اجتناب محمود الأفعال وارتكاب مذمومها من أبصر ذلك وميزه وعرف فضل بعضه على بعض ؛ كما أنه لو أن رجلين أحدهما بصير والآخر أعمى ساقهما الأجل إلى حفرة فوقعا فيها ،كانا إذا صارا في قاعها بمنزلة واحدة ، غير أن البصير أقل عذرًا عند الناس من الضرير إذ كانت له عينان يبصر بهما ، وذاك بما صار إليه جاهل غير عارف .

وعلى العالم أن يبدأ بنفسه ويؤدبها بعلمه ، ولا تكون غايتهُ اقتناؤه العلم

لمعاونة غيره ، ويكون كالعين التى يشرب الناس ماءها وليس لها في ذلك شيء من المنفعة ، وكدودة القز التى تُحكم صنعته ولا تنتفع به ، فينبغي لمن طلب العلم أن يبدأ بعظة نفسه ،ثم عليه بعد ذلك أن يقبسه[١] ؛ فإن خلالاً ينبغي لصاحب الدنيا أن يقتنيها ويقبسها منها العلم والمال . ومنها اتخاذ المعروف ، وليس للعالم أن يعيب امرءًا بشيء فيه مثله ، ويكون كالأعمى الذى يعير الأعمى بعماه .

وينبغي لمن طلب أمرًا أن يكون له فيه غاية ونهاية ، ويعمل بها ، ويقف عندها ، ولا يتمادى في الطلب ، فإنه يقال : من سار إلى غير غاية يوشك أن تنقطع به مطيته ؛ وأنه كان حقيقًا ألا يُعني نفسه[٢] في طلب ما لا حد له ، وما لم ينله أحد قبله ، ولا يتأسف عليه ؛ ولا يكون لدنياه مؤثرًا على آخرته ؛ فإن من لم يعلق قلبه بالغايات قلت حسرته عند مفارقتها . وقد يقال في أمرين إنهما يجملان بكل أحد أحدهما النسك[٣] والآخر المال الحلال . ولا يليق بالعاقل أن يؤنب نفسه على ما فاته وليس في مقدوره ؛ فربما أتاح الله له ما يهنأ به ولم يكن في حُسبانه . ومن أمثال هذا أن رجلاً كان به فاقة وجوع وعري ، فألجأه ذلك إلى أن سأل أقاربه وأصدقاءه ، فلم يكن عند أحد منهم فضل يعود به عليه ، فبينما هو ذات ليلة في منزله إذ بصر[٤] بسارق فيه ؛ فقال : والله ما في منزلي شيء أخاف عليه ، فليجهد السارق جهده .

فبينما السارق يجول إذ وقعت يده على خابية فيها حنطة ؛ فقال السارق : والله ما أحب أن يكون عنائي الليلة باطلاً . ولعلي لا أصل إلى موضع آخر ، ولكن سأحمل هذه الحنطة ، ثم بسط قميصه ليصب عليه الحنطة ، فقال الرجل : أيذهب هذا بالحنطة وليس ورائي سواها ؟ فيجتمع عليّ مع العُري ذهاب ما كنت أقتات به ، وما تجتمع والله هاتان الخلتان على أحد إلا أهلكتاه . ثم صاح

---

(١) أقبسه العلم وقبسه إياه يَقبِسُهُ: أفاده إياه . ويقال : اقتبست منه علمًا وقبست استفدت .
(٢) يتعبها . (٣) العبادة . (٤) بصر به كظرف وفرح: أبصره .

بالسـارق ، وأخذ هرَاوة[1] كانت عند رأسه ؛ فلم يكن للسـارق حيلة إلا الهرب منه، وترك قميصه ونجا بنفسه ، وغدا الرجل به كاسيًا .

وليس ينبغى أن يركن إلى مثل هذا ويدع ما يجب عليه من الحذر والعمل في مثل هذا لـصلاح معـاشه ؛ ولا ينظر إلى من تؤاتيـه المقادير وتسـاعده على غـير التمـاس منه ؛ لأن أولئك في الناس قليل ؛ والجمـهور منهم من أتعب نفـسه في الكد والسعى فيما يصلح أمره وينال به ما أراد .

وينبغي أن يكون حرصـه على ما طاب كسبه وحسن نفـعه ؛ ولا يتعرض لما يجلبُ عليه العناء والشقـاء ؛ فيكون كالحمامة التى تفرخُ الفـراخ فتؤخذ وتذبح ، ثم لا يمنعهـا ذلك أن تعود فتـفرخ موضعـها ، وتقيم بمكانهـا فتؤخذ الثـانية من فراخها فتذبح . وقد يقال : إن الله تعالى قد جعل لكل شيء حدًا يوقف عليه . ومن تجاوز في أشياء حـدها أوشك أن يلحقه التقصيـر عن بلوغها . ويقال : من كان سـعيه لآخـرته ودنياه فحـياته له وعليـه . ويقال في ثلاثة أشـياء يجب على صاحب الدنيا إصلاحها وبذل جهده فيهـا : منها أمر معيشته ؛ ومنها ما بينه وبين الناس ؛ ومنها ما يـكسبه الذكر الجمـيل بعد . وقد قيل في أمـور من كن فيه لم يستـقم له عمل ، منهـا التواني ؛ ومنهـا تضييع الفـرص ؛ ومنها التـصديق لكل مخبر، فرب مخبر بشيء عَقَلَه ولا يعرف استقامته فيصدقه .

وينبغي للعاقل أن يـكون لهواه متهمًا ؛ ولا يقـبل من كل أحد حديثًا ؛ ولا يتمادى في الخطأ إذا ظهر له خطؤه ؛ ولا يقـدم على أمر حتى يتبين له الصواب ، وتتضح له الحـقيقـة ؛ ولا يكون كالرجل الذى يحـيد عن الطريق فـيستـمر على الضلال ، فلا يزداد في السير إلا جهـدًا ، وعن القصد إلا بُعدًا ؛ وكالرجل الذى تَقْذَى عينه فـلا يزال يحكها ، وربما كان ذلك الحك سببًا لذهابها ، ويجب على

(١) الهراوة بالكسر : العصا الضخمة .

العاقل أن يصدق بالقضاء والقدر ، ويأخذ بالحزم ، ويحب للناس ما يحب لنفسه، ولا يلتمس صلاح نفسه بفساد غيره ، فإنه من فعل ذلك كان خليقًا أن يصيبه ما أصاب التاجر من رفيقه ، فإنه يقال : إنه كان رجل تاجر ، وكان له شريك ، فاستأجرا حانوتًا وجعلا متاعهما فيه ، وكان أحدهما قريب المنزل من الحانوت ، فأضمر في نفسه أن يسرق عِدْلاً من أعدال[1] رفيقه ؛ ومكر الحيلة في ذلك ، وقال : إن أتيت ليلاً لم آمن أن أحمل عدلاً من أعدالي أو رزمة[2] من رزمي ولا أعرفها ؛ فيذهب عنائي وتعبي باطلاً ، فأخذ رداءه وألقاه على العدل الذي أضمر أخذه، ثم انصرف إلى منزله ، وجاء رفيقه بعد ذلك ليصلح أعداله ، فوجد رداء شريكه على بعض أعداله ، فقال : والله هذا رداء صاحبي ، ولا أحسبه إلا قد نسيه . وما الرأى أن أدعه هاهنا ؛ ولكن أجعله على رِزَمِه ؛ فلعله يسبقني إلى الحانوت فيجده حيث يحب ، ثم أخذ الرداء فألقاه على عدل من أعدال رفيقه ، وأقفل الحانوت ، ومضى إلى منزله .

فلما جاء الليل أتى رفيقه ومعه رجل وقد واطأه[3] على ما عزم عليه ، وضمن له جُعلاً على حمله ؛ فصار إلى الحانوت ؛ فالتمس الإزار في الظلمة فوجده على العدل ؛ فاحتمل ذلك العدل ، وأخرجه هو والرجل ،وجعلا يتراوحان[4] على حمله ؛ حتى أتى منزله ، ورمى نفسه تَعَبًا .

فلما أصبح افتقده فإذا هو بعض أعداله ؛ فندم أشد الندامة . ثم انطلق نحو الحانوت ، فوجد شريكه قد سبقه إليه ففتح الحانوت ، ووجد العدل مفقودًا : فاغتم لذلك غمًا شديدًا ؛ وقال : وا سوءتاه من رفيق صالح قد ائتمنني على ماله وخلفني فيه ! ماذا يكون حالي عنده ؟ ولست أشك في تُهْمَتِه إياي ، ولكن قد

---

(١) الأعدال : الأمتعة . (٢) الرزمة بالكسر : هى التى فيها ضروب من الثياب .

(٣) وافقه . (٤) يتناوبان .

وطنت نفسي على غرامته ، ثم أتى صاحبه فوجده مغتمًا ، فسأله عن حاله ؛ فقال : إني قد افتقدت الأعدال ، وفقدت عدلاً من أعدالك، ولا أعلم[١] بسببه ، وإني لا أشك في تُهْمَتك إياي ، وإنى قد وطنت نفسى على غرامته ، فقال له : يا أخي لا تغتم ، فإن الخيانة شر ما عمله الإنسان ،والمكر والخديعة لا يؤديان إلى خير ، وصاحبهما مغرور أبدًا ، وما عاد وبال البغي إلا على صاحبه ؛ وأنا أحدُ من مكر وخدع واحتال ، فقال له صاحبه : وكيف كان ذلك ؟ فأخبره بخبره ، وقص عليه قصته ، فقال له رفيقه : ما مثلك إلا مثل اللص والتاجر . فقال له : وكيف كان ذلك ؟

قال : زعموا أن تاجرًا كان له في منزله خابيتان[٢] إحداهما مملوءة حنطة ، والأخرى مملوءة ذهبًا ، فترقبه بعض اللصوص زمانًا ؛ حتى إذا كان بعض الأيام تشاغل التاجر عن المنزل ؛ فتغفله[٣] اللص ، ودخل المنزل ، وكَمَن في بعض نواحيه ، فلما هم بأخذ الخابية التى فيها الدنانير أخذ التى فيها الحنطة ، وظنها التى فيها الذهب ؛ ولم يزل في كد وتعب ، حتى أتى بها منزله ، فلما فتحها وعلم ما فيها ندم . قال له الخائن : ما أبعدت المثل ، ولا تجاوزت القياس ؛ وقد اعترفت بذنبى وخطئى عليك ، وعزيز عليّ أن يكون هذا كهذا ، غير أن النفس الرديئة تأمر بالفحشاء ، فقبل الرجل معذرته ، وأضرب عن توبيخه وعن الثقة به؛ وندم هو عندما عاين من سوء فعله وتقديم جهله .

وقد ينبغي للناظر في كتابنا هذا ألا تكون غايته التصفح لتزاويقه ، بل يشرف[٤] على ما يتضمن من الأمثال ، حتى ينتهى منه ؛ ويقف عند كل مثل

---

(١) أشعر .
(٢) الخابية : الجُب أى الجرة الضخمة وأصلها الهمز لأنها من خبأ .
(٣) اغتنم غفلته .
(٤) أصل معناه يطلع عليه من فوق والمراد هنا يدقق ويتأمل .

وكلمة ، ويعمل فيها رويته ؛ ويكون مثل أصغر الإخوة الثلاثة الذين خلف لهم أبوهم المال الكثير ، فتنازعوه[1] بينهم ؛ فأما الكبيران فإنهما أسرعا في إتلافه وإنفاقه في غير وجهه ؛ وأما الصغير فإنه عندما نظر ما صار إليه أخواه من إسرافهما وتخليهما من المال ، أقبل على نفسه يشاورها وقال : يا نفسي إنما المال يطلبه صاحبه ، ويجمعه من كل وجهه ؛ لبقاء حاله ، وصلاح معاشه ودنياه ، وشرف منزلته في أعين الناس ، واستغنائه عما في أيديهم ، وصرفه في وجهه : من صلة الرحم ، والإنفاق على الولد ، والإفضال على الإخوان ، فمن كان له مال ولا ينفقه في حقوقه ، كان كالذى يعد فقيرًا وإن كان موسرًا . وإن هو أحسن إمساكه والقيام عليه ، لم يعدم الأمرين جميعًا من دنيا تبقى عليه ، وحمد يضاف إليه ؛ ومتى قصد إنفاقه على غير الوجوه التى علمت ، لم يلبث أن يتلفه ويبقى على حسرة وندامة ، ولكن الرأى أن أمسك هذا المال ، فإنى أرجو أن ينفعني الله به ويُغني أخَوَيَّ على يديَّ فإنما هو مال أبى ومال أبيهما ، وإن أولى الإنفاق على صلة الرحم وإن بعدت ، فكيف بأخوي ؟ فأنفذ فأحضرهما وشاطرهما ماله .

وكذلك يجب على قارىء هذا الكتاب أن يديم النظر فيه من غير ضجر ، ويلتمس جواهر معانيه ، ولا يظن أن نتيجته الإخبار عن حيلة بهيمتين أو محاورة سبع لثور فينصرف بذلك عن الغرض المقصود . ويكون مثله مثل الصياد الذى كان في بعض الخُلجان يصيد فيه السمك في زورق[2] فرأى ذات يوم في أرض الماء صدفة تتلألأ حسنًا ، فتوهمها جوهرًا له قيمة وكان قد ألقى شبكته في البحر فاشتملت على سمكة كانت قوت يومه ، فخلاها وقذف نفسه في الماء ليأخذ الصدفة ، فلما أخرجها وجدها فارغة لا شيء فيها مما ظن ، فندم على ترك ما

---

(١) تنازعوه : تناولوه .

(٢) سفينة صغيرة .

في يده للطمع ، وتأسف على ما فاته ، فلما كان اليوم الثاني تنحى عن ذلك المكان ، وألقى شبكته ، فأصاب حوتًا صغيرًا ، ورأى أيضًا صدفة سنية ، فلم يلتفت إليها ، وساء ظنه بها فتركها ، فاجتاز بها بعض الصيادين فأخذها ، فوجد فيها درة تساوى أموالاً ، وكذلك الجهال إذا أغفلوا أمر التفكر في هذا الكتاب ، وتركوا الوقوف على أسرار معانيه ، وأخذوا بظاهره ، ومن صرف همته إلى النظر في أبواب الهزل ، كان كرجل أصاب أرضًا طيبة حرة وحبًا صحيحًا ، فزرعها وسقاها ، حتى إذا قرب خيرها وأينعت ، تشاغل عنها بجمع ما فيها من الزهر وقطع الشوك فأهلك بتشاغله ما كان أحسن فائدة وأجمل عائدة .

وينبغي للناظر في هذا الكتاب أن يعلم أنه ينقسم إلى أربعة أغراض :

**أحدها** : ما قصد فيه إلى وضعه على ألسنة البهائم غير الناطقة ، ليسارع إلى قراءته أهل الهزل من الشبان ، فتستمال به قلوبهم ؛ لأنه الغرض بالنوادر من حيل الحيوان .

**والثاني** : إظهار خيالات الحيوان بصنوف الأصباغ والألوان ، ليكون أنسًا لقلوب الملوك ، ويكون حرصهم عليه أشد للنزهة في تلك الصور .

**والثالث** : أن يكون على هذه الصفة ، فيتخذه الملوك والسوقة ، فيكثر بذلك انتساخه ، ولا يبطل فيخلق على مرور الأيام ولينتفع بذلك المصور والناسخ أبدًا .

**والغرض الرابع** : وهو الأقصى ، وذلك مخصوص بالفيلسوف خاصة .

**( انقضى باب عرض الكتاب ) .**

❋ ❋ ❋

# باب برزويه

## « ترجمة بُزرجمهر بن البختكان »

قال برزويه ، رأس أطباء فارس ، وهو الذي تولي انتساخ هذا الكتاب ، وترجمه من كتب الهند ( وقد مضى ذكر ذلك من قبل ) : إن أبى كان من المقاتلة، وكانت أمي من عظماء بيوت الزمازمة[1] . وكان مَنْشئي في نعمة كاملة ، وكنت أكرم ولد أبوي عليهما ؛ وكانا بي أشد احتفاظًا من دون إخوتي ، حتى إذا بلغت سبع سنين ، أسلماني إلى المؤدب ؛ فلما حذقت في الكتابة ، شكرت أبوي، ونظرت في العلم ، فكان أول ما ابتدأت به ، وحرصت عليه ، علم الطب لأني كنت عرفت فضله ، وكلما سددت منه علمًا ازددت فيه حرصًا ، وله اتباعًا ، فلما همت نفسي بمداواة المرضى ، وعزمت على ذلك آمرتها[2] ثم خيرتها بين الأمور الأربعة التى يطلبها الناس ، وفيها يرغبون ، ولها يسعون . فقلت : أى هذه الخلال أبتغي في علمي ؟ وأيها أحرى بي فأدرك منه حاجتي ؟ المالُ ، أم الذكر ، أم اللذات ، أم الآخرة ؟ وكنت وجدت في كتب الطب أن أفضل الأطباء من واظب على طبه ، لا يبتغي إلا الآخرة ، فرأيت أن أطلب الاشتغال بالطب ابتغاء الآخرة ، لئلا أكون كالتاجر الذى باع ياقوتة ثمينة بخرزة لا تساوي شيئًا ؛ مع أني قد وجدت في كتب الأولين أن الطبيب الذى يبتغي بطبه أجر الآخرة لا ينقصُه ذلك حظه من الدنيا ، وأن مثله مثل الزارع الذى يعمر أرضه ابتغاء الزرع لا ابتغاء العشب ، ثم هي لا محالة نابت فيها ألوان العشب مع يانع الزرع .

فأقبلت على مداواة المرضى ابتغاء أجر الآخرة ، فلم أدع مريضًا أرجو له البرء ، وآخر لا أرجو له ذلك ، إلا أني أطمع أن يخفف عنه بعض المرض ، إلا

---

(١) طائفة من الفرس . (٢) شاورتها .

بالغت في مداواته ما أمكنني القيام عليه بنفسي ؛ ومن لم أقدر على القيام عليه وصفت له ما يصلح ، وأعطيته من الدواء ما يُعالج به ، ولم أرد ممن فعلت معه ذلك جزاء ولا مكافأة ، ولم أغبط أحدًا من نظرائي الذين هم دوني في العلم وفوقي في الجاه والمال وغيرهما ، مما لا يعود بصلاح ولا حسن سيرة قولاً ولا عملاً ، ولما تاقت نفسي إلى غشيانهم وتمنت منازلهم أثبت لها الخصومة[1] فقلت لها :

« **يا نفس** ... أما تعرفين نفعك من ضرك ؟ ألا تنتهين عن تمني ما لا يناله أحد إلا قل انتفاعه به ، وكثر عناؤه فيه ، واشتدت المؤونة عليه ، وعظمت المشقة لديه بعد فراقه ؟

**يا نفس** ... أما تذكرين ما بعد هذه الدار ، فينسيك ما تشرهين إليه منها ؟ ألا تستحيين من مشاركة الفجار في حب هذه العاجلة الفانية التى من كان في يده شيء منها فليس له ، وليس بباق عليه ، فلا يألفها إلا المغترون الجاهلون ؟

**يا نفس** ... انظرى في أمرك ، وانصرفي عن هذا السفه ، وأقبلي بقوتك وسعيك على تقديم الخير، وإياك والشر ، واذكري أن هذا الجسد موجود لآفات ، وأنه مملوء أخلاطًا فاسدة قذرة ، تعقدها الحياة ، والحياة إلى نفاد ؛ كالصنم المفصلة أعضاؤه إذا ركبت ووضعت يجمعها مسمار واحد ، ويضم بعضها إلى بعض ، فإذا أخذ ذلك المسمار تساقطت الأوصال .

**يا نفس** ... لا تغتري بصحبة أحبائك وأصحابك ، ولا تحرصي على ذلك كل الحرص فإن صحبتهم - على ما فيها من السرور - كثيرة المؤونة ، وعاقبة ذلك الفراق ، ومثلها مثل المغرفة التى تستعمل في جدتها لسخونة المرق ، فإذا انكسرت صارت وقودًا .

---

(١) أعلنتها بالمخاصمة .

**يا نفس** ... لا يحملنك أهلك وأقاربك على جمع ما تهلكين فيه ، إرادة صلتهم ؛ فإذا أنت كالدُّخنَةِ[١] الأرِجة[٢] التى تحترق ويذهب آخرون بريحها .

**يا نفس** ... لا يبعد عليك أمر الآخرة فتميلي إلى العاجلة في استعجال القليل وبيع الكثير باليسير ؛ كالتاجر الذى كان له ملء بيت من الصندل ، فقال : إن بعته وزنًا طال علي ، فباعه جُزافًا[٣] بأبخس الثمن » .

وقد وجدت آراء الناس مختلفة ، وأهواءهم متباينة ؛ وكلٌ على كلٍّ رادٌّ ، وله عدو ومغتاب ، ولقوله مخالف ، فلما رأيت ذلك لم أجد إلى متابعة أحد منهم سبيلاً؛ وعرفت أني إن صدقت أحدًا منهم لا علم لي بحاله ، كنت في ذلك كالمصدق المخدوع الذى زعموا في شأنه أن سارقًا علا ظهر بيت رجل من الأغنياء وكان معه جماعة من أصحابه ،فاستيقظ صاحب المنزل من حركة أقدامهم، فعرَّف امرأته ذلك ؛ فقال لها : رويدًا إني لأحسب اللصوص علوا البيت ، فأيقظيني بصوت يسمعه اللصوص وقولي : ألا تخبرني أيها الرجل عن أموالك هذه الكثيرة وكنوزك العظيمة ؟ فإذا نهيتك عن هذا السؤال فألحي علي بالسؤال ، ففعلت المرأة وسألته كما أمرها ؛ وأنصت اللصوص إلى سماع قولهما، فقال لها الرجل : أيتها المرأة ، قد ساقك القدر إلى رزق واسع كثير ، فكلي واسكتي ، ولا تسألي عن أمر إن أخبرتك به لم آمن أن يسمعه أحد ، فيكون في ذلك ما أكره وتكرهين . فقالت المرأة : أخبرني أيها الرجل ، فلعمري ما بقربنا أحد يسمع كلامنا ، فقال لها : فإنى أخبرك أني لم أجمع هذه الأموال إلا من السرقة ، قالت : وكيف كان ذلك ؟ وما كنت تصنع ؟ قال : ذلك لعلم أصبته في السرقة، وكان الأمر علي يسيرًا ؛ وأنا آمن من أن يتهمني أحد أو يرتاب

---

(١) الدخنة : بخور تبخر به الثياب أو البيت .
(٢) ذات الرائحة الطيبة .
(٣) مثلث الفاء أى بالحدس والتقدير .

في . قالت : فاذكر لي ذلك ، قال : كنت أذهب في الليلة المقمرة ، أنا وأصحابي ، حتى أعلو دار بعض الأغنياء مثلنا ؛ فأنتهى إلى الكوة التى يدخل منها الضوء فأرقي بهذه الرقية : وهى شولم شولم سبع مرات وأعتنق الضوء ؛ فلا يحس بوقوعي أحد ؛ فلا أدع مالاً ولا متاعًا إلا أخذته ، ثم أرقي بتلك الرقية سبع مرات وأعتنق الضوء فيجذبنى فأصعد إلى أصحابى فنمضى سالمين آمنين .

فلما سمع اللصوص ذلك قالوا : قد ظفرنا الليلة بما نريد من المال ثم إنهم أطالوا المكث حتى ظنوا أن صاحب الدار وزوجته قد هجعا ؛ فقام قائدهم إلى مدخل الضوء وقال شولم شولم سبع مرات ؛ ثم اعتنق الضوء لينزل إلى أرض المنزل ، فوقع على أم رأسه مُنكَّسًا ، فوثب إليه الرجل بهراوته ، وقال له : من أنت ؟ قال : أنا المصدق المخدوع المغتر بما لا يكون أبدًا ، وهذه ثمرة رُقيتك .

فلما تحرزت من تصديق ما لا يكون ، ولم آمن إن صدقته أن يوقعني في مهلكة عدت إلى طلب الأديان والتماس العدل منها ؛ فلم أجد عند أحد ممن كلمته جوابًا فيما سألته عنه فيها ، ولم أر فيما كلموني به شيئًا يحق لي في عقلي أن أصدق به ولا أن أتبعه ، فقلت لما لم أجد ثقة آخذ منه الرأى أن ألزم دين آبائي وأجدادي الذي وجدتهم عليه ، فلما ذهبت ألتمس العذر لنفسي في لزوم دين الآباء والأجداد ، لم أجد لها على الثبوت على دين الآباء طاقة ؛ بل وجدتها تريد أن تتفرغ للبحث عن الأديان والمسألة عنها ، وللنظر فيها ؛ فهجس[1] في قلبي وخطر على بالي قرب الأجل وسرعة انقطاع الدنيا واعتباط[2] أهلها وتخرم[3] الدهر حياتهم ففكرت في ذلك .

فلما خفت من التردد والتحول ، رأيت ألا أتعرض لما أتخوف منه المكروه ؛ وأن أقتصر على عمل تشهد النفس أنه يوافق كل الأديان ، فكففت يدي عن القتل

(١) وقع وخطر وبابه ضرب . (٢) هلاكهم بدون مرض .
(٣) القطع والاستئصال .

والضرب ، وطرحت نفسي عن المكروه والغضب والسرقة والخيانة والكذب والبهتان والغيبة ، وأضمرت في نفسي ألا أبغي على أحد ، ولا أكذب بالبعث ولا القيامة ولا الثواب ولا العقاب ، وزايلت الأشرار بقلبي ، وحاولت الجلوس مع الأخيار بجهدي ، ورأيت الصلاح ليس كمثله صاحب ولا قرين ، ووجدت مكسبه إذ وفق الله وأعان يسيرًا ؛ ووجدته يدل على الخير ، ويشير بالنصح ، فعل الصديق بالصديق ؛ ووجدته لا ينقص على الإنفاق منه ؛ بل يزداد جدةً[1] وحسنًا ؛ ووجدته لا خوف عليه من السلطان أن يغضبه ، ولا من الماء أن يغرقه ، ولا من النار أن تحرقه ، ولا من اللصوص أن تسرقه ، ولا من السباع وجوارح الطير أن تمزقه ؛ ووجدت الرجل الساهي اللاهي المُؤثر اليسير يناله في يومه ويعدمه في غده على الكثير الباقي نعيمه ، يصيبه ما أصاب التاجر الذى زعموا أنه كان له جوهر نفيس ، فاستأجر لثقبه رجلاً ، اليوم بمائة دينار ؛ وانطلق به إلى منزله ليعمل ؛ وإذا في ناحية البيت صنج[2] موضوع . فقال التاجر للصانع : هل تحسن أن تلعب بالصنج ؟ قال : نعم . وكان بلعبه ماهرًا . فقال التاجر : دونك والصنج فأسمعنا ضربك به ، فأخذ الرجل الصنج ، ولم يزل يسمع التاجر الضرب الصحيح، والصوت الرفيع ، والتاجر يشير بيده ورأسه طربًا ، حتى أمسى، فلما حان الغروب قال الرجل للتاجر : مر لي بالأجرة ، فقال له التاجر : وهل عملت شيئًا تستحق به الأجرة ؟ فقال له : عملت ما أمرتني به ، وأنا أجيرك، وما استعملتني عملت ؛ ولم يزل به حتى استوفى منه مائة دينار ، وبقي جوهره غير مثقوب . فلم أزدد في الدنيا وشهواتها نظرًا ، إلا ازددت فيها زهادة ومنها هربًا .

---

(١) هى ضد البلى .

(٢) الصنج نوعان : ما يتخذ من الصفر يضرب به مع الدف ( ويسمى عند عوام مصر بالكاسات ) وما له أوتار .

ووجدت النسك[1] هو الذي يمهد للمعاد كما يمهد الوالد لولده ؛ ووجدته هو الباب المفتوح إلى النعيم المقيم ؛ ووجدت الناسك قد تدبر فعلته بالسكينة فشكر ؛ وتواضع وقنع فاستغنى ، ورضى ولم يهتم ، وخلع الدنيا فنجا من الشرور ، ورفض الشهوات فصار طاهرًا ، واطَّرح الحسد فوجبت له المحبة ، وسخت نفسه بكل شيء ؛ واستعمل العقل وأبصر العاقبة فأمن الندامة ،ولم يخف الناس ولم يدب إليهم فسلم منهم ، فلم أزدد في أمر النسك نظرًا ، إلا ازددت فيه رغبة ، حتى هممت أن أكون من أهله .

ثم تخوفت ألا أصبر على عيش الناسك ، ولم آمن إن تركت الدنيا وأخذت في النسك ، أن أضعف عن ذلك ؛ ورفضت أعمالاً كنت أرجو عائدتها ؛ وقد كنت أعملها فأنتفع بها في الدنيا ، فيكون مثلي في ذلك مثل الكلب الذى مر بنهر وفي فيه ضلع ؛ فرأى ظلها في الماء ، فهوى ليأخذها ، فأتلف ما كان معه ؛ ولم يجد في الماء شيئًا ، فهبت النسك مهابة شديدة ، وخفت من الضجر وقلة الصبر ، وأردت الثبوت على حالتي التى كنت عليها .

ثم بدا لي أن أسبر ما أخاف ألا أصبر عليه من الأذى والضيق والخشونة في النسك . وما يصيب صاحب الدنيا من البلاء ؛ وكان عندي أنه ليس شيء من شهوات الدنيا ولذاتها إلا وهو متحول إلى الأذى ومولد للحزن ، فالدنيا كالماء الملح الذى لا يزداد شاربه شربًا ، إلا ازداد عطشًا ، وهى كالعظم الذى يصيبه الكلب فيجد فيه ريح اللحم ؛ فلا يزال يطلب ذلك حتى يدمي فاه ، وكالحدَأة التى تظفر بقطعة من اللحم ، فيجتمع عليها الطير ، فلا تزال تدور وتدأب حتى تُعيا وتعطب ؛ فإذا تعبت ألقت ما معها ، وكالكوز من العسل الذى في أسفله السم الذى يذاق منه حلاوة عاجلة وآخره موت ذُعاف[2] ؛ وكأحلام النائم التى يفرح بها الإنسان في نومه ، فإذا استيقظ ذهب الفرح .

(١) النسك مثلثة النون وبضمتين : العبادة . (٢) ذعاف : سريع .

فلمَّا فكَّرت في هذه الأمور ، رجعت إلى طلب النسك ، وهزني الاشتياق إليه ؛ ثمَّ خاصمت نفسي إذ هي في شرورها سارحة ، وقد لا تثبت على أمر تعزم عليه ، كقاض سمع من خصم واحد فحكم له ، فلمَّا حضر الخصم الثاني عاد إلى الأول وقضى عليه ، ثمَّ نظرت في الذى أكابده من احتمال النسك وضيقه؛ فقلت : ما أصغر هذه المشقَّة في جانب روح الأبد وراحته ، ثمَّ نظرت فيما تَشرَه إليه النفس من لذَّة الدنيا ، فقلت : ما أمر هذا وأوجعه ، وهو يدفع إلى عذاب الأبد وأهواله ! وكيف لا يستحلي الرجل مرارة قليلة تعقبها حلاوة طويلة ؟ وكيف لا تمر عليه حلاوة قليلة تعقبها مرارة دائمة ؟ وقلت : لو أنَّ رجلاً عرض عليه أن يعيش مائة سنة ، لا يأتي عليه يوم واحد إلا بُضع[1] منه بضعة[2] ثم أعيد عليه من الغد غير أنه يشرط له إذا استوفى السنين المائة ، نجا من كل ألم وأذى ، وصار إلى الأمن والسرور ، كان حقيقًا ألا يرى تلك السنين شيئًا . وكيف يأبى الصبر على أيام قلائل يعيشها في النسك ، وأذى تلك الأيام قليل يعقب خيرًا كثيرًا .

فلنعلم أن الدنيا كلها بلاء وعذاب ، أوليس الإنسان إنَّما يتقلب في عذاب الدنيا من حين يكون جنينًا إلى أن يستوفي أيَّام حياته ؟ فإذا كان طفلاً ذاق من العذاب ألوانًا إن جاع فليس به استطعام ، أو عطش فليس به استسقاء ، أو وجع فليس به استغاثة ؛ مع ما يلقى من الوضع والحمل واللف والدهن والمسح ؛ إن أنيم على ظهره لم يستطع تقلبًا ؛ ثم يلقى أصناف العذاب ما دام رضيعًا فإذا أفلت[3] من عذاب الرضاع ، أخذ في عذاب الأدب ، فأذيق منه ألوانًا من عنف المعلم ، وضجر الدرس ، وسآمة الكتابة ؛ ثمَّ له من الدواء والحمية والأسقام والأوجاع أوفَى حظ ، فإذا أدرك كانت همته في جمع المال وتربية الولد ومخاطرة

(١) قطع . (٢) قطعة . (٣) خلص .

الطلب والسعي والكد والتعب ، وهو مع ذلك يتقلب مع أعدائه الباطنية اللازمة له وهي الصفراء والسوداء والريح والبلغم والدم والسم المميت والحيَّة اللادغة ، مع الخوف من السباع والهَوَامِّ ؛ مع صرف الحر والبرد والمطر والرياح ؛ ثمَّ أنواع عذاب الهرم لمن يبلغه ، فلو لم يخف من هذه الأمور شيئًا ، وكان قد أمن ووثق بالسلامة منها فلم يفكر فيها ، لوجب عليه أن يعتبر بالساعة التي يحضره فيها الموت ، فيفارق الدنيا ؛ ويتذكر ما هو نازل به في تلك الساعة من فراق الأحبة والأهل والأقارب وكل مضنون به من الدنيا ، والإشراف على الهول العظيم بعد الموت .

فلو لم يفعل ذلك ، لكان حقيقًا أن يعد عاجزًا مفرطًا محبًا للدَّناءة مستحقًا للَّوم ؛ فمن ذا الذي يعلم ولا يحتال لغدٍ جهده في الحيلة ، ويرفض ما يشغله ويلهيه من شهوات الدنيا وغرورها ؟ ولا سيما في هذا الزمان الشبيه بالصافي وهو كدر فإنَّه وإن كان الملك حازمًا عظيم المقدرة ، رفيع الهمة ، بليغ الفحص ، عدلاً مرجوًا صدوقًا شكورًا ، رحب الذراع ، مفتقدًا مواظبًا مستمرًا عالمًا بالناس والأمور ، محبًا للعلم والخير والأخيار ، شديدًا على الظَّلمة ، غير جبان ولا خفيف القياد ، رفيقًا بالتوسع على الرعيَّة فيما يحبون ، والدفع لما يكرهون ؛ فإنا قد نرى الزمان مُدبرًا بكل مكان ، فكأنَّ أمور الصدق قد نزعت من الناس ، فأصبح ما كان عزيزًا فقده مفقودًا ، وموجودًا ما كان ضائرًا[1] وجوده ، وكأنَّ الخير أصبح ذابلاً والشر ناضرًا ، وكأنَّ الفهم أصبح قد زالت سبله ،وكأنَّ الحق ولَّى كسيرًا وأقبل الباطلُ تابعه ، وكأن اتباع الهوى وإضاعة الحكم أصبح بالحكام موكلاً ؛ وأصبح المظلوم بالحيف مقرًا ، والظالم لنفسه مستطيلاً ، وكأن الحرص أصبح فاغرًا[2] فاه من كل جهة يتلقف ما قرب منه وما بعد ، وكأنَّ الأخيار

(١) ضارًا .
(٢) فاتحًا .

يريدون بطن الأرض ، وأصبحت المروءة مقذوفًا بها من أعلى شرف إلى أسفل درك وأصبحت الدناءة مكرَّمة ممكَّنةً وأصبح السلطان[١] منتقلاً عن أهل الفضل إلى أهل النقص ، وكأنَّ الدنيا جَذِلة مسرورة تقول : قد غُيِّبَت الخيرات وأظهرت السيئات .

فلمَّا فكَّرت في الدنيا وأمورها؛ وأن الإنسان هو أشرف الخلق فيها وأفضله ، ثم هو لا يتقلب إلا في الشرور والهموم ، عرفت أنه ليس إنسان ذو عقل يعلم ذلك ثم لا يحتال لنفسه في النجاة ؛ فعجبت من ذلك كل العجب .

ثم نظرت فإذا الإنسان لا يمنعه عن الاحتيال لنفسه إلا لذة صغيرة حقيرة غير كبيرة من الشم والذوق والنظر والسمع واللمس فَعَلَّه يصيب منها الطفيف أو يقتني منها اليسير ؛ فإذا ذلك يشغله ويذهب به عن الاهتمام لنفسه وطلب النجاة لها .

فالتمست للإنسان مثلاً فإذا مثله مثل رجل نجا من خوف فيل هائج إلى بئر ، فتدلى فيها ، وتعلَّق بغصنين كانا على سمائها ، فوقعت رجلاه على شيء في طي البئر فإذا حيَّات أربع قد أخرجن رؤوسهنَّ من أحجارهنَّ ؛ ثمَّ نظر فإذا في قاع البئر تنين[٢] فاتح فاه منتظر له ليقع فيأخذه ؛ فرفع بصره إلى الغصنين فإذا في أصلهما جُرَذَان[٣] أسود وأبيض ،وهما يقرضان الغصنين دائبين لا يفتران ؛ فبينما هو في النظر لأمره والاهتمام لنفسه، إذ أبصر قريبًا منه كِوَارَة[٤] فيها عسل نحل ؛ فذاق العسل ؛ فشغلته حلاوته وألهته لذته عن الفكرة في شيء من أمره ، وأن يلتمس الخلاص لنفسه ؛ ولم يذكر أنَّ رجليه على حيَّات أربع لا يدري متى يقع عليهنَّ ؛ ولم يذكر أن الجُرذين دائبان في قطع الغصنين ؛ ومتى انقطعا وقع على التنين . فلم يزل لاهيًا غافلاً مشغولاً بتلك الحلاوة ، حتى سقط في فم التنين فهلك .

(١) المراد هنا القدرة . (٢) ضرب من الحيات .
(٣) مثنى جُرذ: ضرب من الفأر . (٤) شيء يتخذ للنحل من القضبان وهى الخلية .

فشبهت بالبئر الدنيا المملوءة آفات وشرورًا ، ومخافات وعاهات ، وشبَّهت بالحيات الأربع الأخلاط الأربعة التي في البدن : فإنها متى هاجت أو أحدها كانت كحمة[1] الأفاعي والسم المميت ؛ وشبَّهت بالغصنين الأجل الذى لا بد من انقطاعه وشبهت بالجرذين الأسود والأبيض الليل والنهار اللذين هما دائبان في إفناء الأجل وشبَّهت بالتنِّين المصير الذي لابد منه ، وشبهت بالعسل هذه الحلاوة القليلة التى ينال منها الإنسان فيطعم ويسمع ويشم ويلمس ، ويتشاغل عن نفسه، ويلهو عن شأنه ويصد عن سبيل قصده .

فحينئذ صار أمرى إلى الرضا بحالي وإصلاح ما استطعت إصلاحه من عملي لعلى أصادف باقي أيامى زمانًا أصيب فيه دليلاً على هداي ، وسلطانًا[2] على نفسي ، وقوامًا لأمري ، فأقمت على هذه الحال وانتسخت كتبًا كثيرة ؛ وانصرفت من بلاد الهند ، وقد نسخت هذا الكتاب .

**( انقضى باب برزويه المتطبب ) .**

❊ ❊ ❊

(١) إبرة النحلة ونحوها . (٢) حجة أو قدرة .

# باب : الأسد والثور
## « وهو أول الكتاب »

قال دبشليم الملك لبيدبا الفيلسوف ، وهو رأس البراهمة : اضرب لي مثلاً لمتحابين يقطع بينهما الكذوب المحتال ، حتَّى يحملهما على العداوة والبغضاء .

قال بيدبا : إذا ابتلي المتحابَّان بأن يدخل بينهما الكذوب المحتال ، لم يلبثا أن يتقاطعا ويتدابرا . ومن أمثال ذلك أنَّه كان بأرض دَستَاوَندَ رجل شيخ ، وكان له ثلاثة بنين . فلمَّا بلغوا أشدَّهم أسرفوا في مال أبيهم ، ولم يكونوا احترفوا حرفة يكسبون لأنفسهم بها خيرًا ، فلامهم أبوهم ؛ ووعظهم على سوء فعلهم ؛ وكان من قوله لهم : يا بني إنَّ صاحب الدنيا يطلب ثلاثة أمور لن يدركها إلا بأربعة أشياء .

أمَّا الثلاثة التى يطلب : فالسعة في الرزق ، والمنزلة في الناس ، والزاد للآخرة .

وأما الأربعة التى يحتاج إليها في درك هذه الثلاثة : فاكتساب المال من أحسن وجه يكون ، ثمَّ حسن القيام على ما اكتسب منه، ثم استثماره ، ثمَّ إنفاقه فيما يصلح المعيشة ويرضى الأهل والإخوان ، فيعود عليه نفعه في الآخرة .

فمن ضيع شيئًا من هذه الأحوال ، لم يدرك ما أراد من حاجته ؛ لأنه إن لم يكتسب، لم يكن له مال يعيش به ؛ وإن هو كان ذا مال واكتساب ثمَّ لم يحسن القيام عليه، أوشك المال أن يفنى ويبقى مُعدمًا ؛ وإن هو وضعه ولم يستثمره ، لم تمنعه قلَّة الإنفاق من سرعة الذهاب كالكحل الذي لا يؤخذ منه إلا غبار الميل ثمَّ هو مع ذلك سريع فناؤه ، وإن أنفقه في غير وجهه ، ووضعه في غير موضعه، وأخطأ به مواضع استحقاقه ، صار بمنزلة الفقير الذي لا مال له ؛ ثمَّ لا يمنع ذلك ماله من التلف بالحوادث والعلل التى تجري عليه ، كمحبس الماء الذى

لا تزال المياه تنصب فيه ، فإن لم يكن له مـخرج ومفيض ومُتنفس يخرج الماء منه بقدر ما ينبـغي ، خرب وسال ونزَّ من نواح كثـيرة ، وربما انبثق[١] البثق العظيم فذهب الماء ضياعًا ، ثمَّ إنَّ بني الشيخ اتعظوا بقول أبيهم وأخذوا به وعلموا أنَّ فيه الخير وعولوا عليه .

فانطلق أكبرهـم نحو أرض يقال لها ميون ؛ فأتى في طريقـه على مكان فيه وَحلٌ كثير ؛ وكـان معه عجلَة يجرها ثوران يقال لأحـدهما شَتَربَةُ والآخر بَندَبَةُ ؛ فوحل شـتربةُ في ذلك المكان ؛ فعالجـه الرجل وأصحابه حتى بلغ منهـم الجهد ، فلم يقدروا على إخراجه ،فذهب الرجل وخلف عنده رجلاً يشارفه ، لعلَّ الوحل ينشفُ فيتبـعه بالثور ، فلمَّا بات الرجل بذلك المكان ، تبرَّم[٢] به واسـتـوحش : فترك الثور والتـحق بصاحبه ، فأخبره أنَّ الثور قـد مات ؛ وقال له إن الإنسان إذا انقضت مدَّته وحانت منيته فهو وإن اجتـهد في التوقي من الأمور التى يخاف فيها على نفســه الهلاك لم يغن ذلك عنه شيئًا ، وربما عـاد اجتهاده في توقـيه وحذره وبالاً عليه[٣] .

كالذي قيـل : إنَّ رجلاً سلك مفازة فيـها خوف من السبـاع ، وكان الرجل خبيرًا بوعَث تلك الأرض وخوفها ؛ فلمَّا سـار غير بعيد اعترض له ذئب من أحد الذئاب وأضراها ؛ فلمَّا رأى الرجل أنَّ الذئب قاصـد نحوه خاف منه ، ونظر يمينًا وشمالاً ليـجد موضعًا يتـحرَّز فيه من الذئب فلم ير إلاَّ قـرية خلف واد ؛ فذهب مسرعًا نحو القرية؛ فلما أتى الوادي لم ير عليه قنطرة ، ورأى الذئب قد أدركه ، فألقى نفسه في الماء ، وهو لا يحسن السباحة ، وكاد يغرق ، لولا أن بصر به قوم من أهل القرية ، فتواقـعوا لإخراجه فأخرجوه ، وقـد أشرف على الهلاك ؛ فلمَّا حصل الرجل عندهم وأمن على نفســه من غائلة الذئب رأى على عدوة[٤] الوادي

---

(١) انشق وانفجر . (٢) ضجر .
(٣) وخيم العاقبة . (٤) العدوة بضم العين وكسرها جانب الوادي .

بيتًا مفردًا ؛ فـقال : أدخل هذا البيت فأستريح فيه ، فلمّا دخله وجـد جماعة من اللصوص قد قطعوا الطريق على رجل من التجار، وهم يقتسمون ماله ؛ ويريدون قتله ؛ فلمّا رأى الرجل ذلك خـاف على نفسه ومضى نحو القـرية ؛ فأسند ظهره إلى حائط من حيطانهـا ليستريح مما حلّ به من الهول والإعيـاء ، إذ سقط الحائط عليه فمات . قال التاجر : صدقت ؛ قد بلغني هذا الحديث .

أما الثور فإنَّه خلص من مكانه وانبعث ؛ فلم يزل في مرج مخصب كثير الماء والكلأ ، فلمَّا سمن وأمن جعل يخور ويرفع صوته بالخُوَار . وكان قريبًا منه أجمة فيها أسـد عظيم ؛ وهو ملك تلك الناحية ، ومعه سبـاع كثيرة وذئاب وبنات آوى وثعالـب وفهود ونمور ؛ وكـان هذا الأسد منفـردًا برأيه دون أخذ بـرأي أحد من أصحابه ، فلمَّا سمع خـوار الثور ، ولم يكن رأى ثورًا قط ، ولا سمع خواره ؛ لأنه كان مقيمًا مكانه لا يبرح ولا ينشط ، بل يؤتى برزقه كل يوم على يد جنده ، وكان فيمن معه من السباع ابنا آوى يقال لأحدهما كليلة والآخر دمنة ؛ وكانا ذَوَى دَهاء وعلم وأدب ، فقال دمنة لأخـيه كليلة : يا أخي ما شأن الأسد مـقيمًا مكانه لا يبرح ولا ينشط ؟ قال له كليلة : مـا شأنك أنت والمسألة عن هذا ؟ نحن على باب ملكنا آخـذين بما أحب وتاركين ما يكره ، ولسنا من أهل المرتبـة التى يتناول أهلها كـلام الملوك والنظر في أمورهم ، فأمـسك عن هذا ، واعلم أنَّه من تكلَّف من القول والفعل ما ليس من شأنه أصابه ما أصاب القرد من النجار .

قال دمنة : وكيف كان ذلك ؟

قال كليلة : زعـموا أنَّ قردًا رأى نجَّارًا يشق خشـبة بين وتدين ، وهو راكب عليها ؛ فأعجبه ذلك . ثمَّ إنَّ النجَّار ذهب لبعض شأنه ، فقام القرد ، وتكلف ما ليس من شغله ، فركب الخشبة ، وجعل ظهره قبل الوتد ، ووجهه قبل الخشبة ؛ فـتدلَّى ذنبـه في الشق ونُزع الوتد فلزم[1] الشق عليه فـخر مغشـيًّا عليه . ثمَّ إنَّ

(١) انضم .

النجَّار وافاه فرآه موضعه فأقبل عليه يضربه ، فكان ما لقي من النجار من الضرب أشد مما أصابه من الخشبة .

قال دمنة : قد سمعت ما ذكرت ، ولكن اعلم أنَّ كل من يدنو من الملوك ليس يدنو منهم لبطنه ، وإنَّما يدنو منهم ليسر الصديق ويكبت العدو ، وإن من الناس من لا مروءة له ؛ وهم الذين يفرحون بالقليل ويرضون بالدون ؛ كالكلب الذى يصيب عظمًا يابسًا فيفرح به . وأمَّا أهل الفضل والمروءة فلا يقنعهم القليل ولا يرضون به ، دون أن تسمو به نفوسهم إلى ما هم أهل له ، وهو أيضًا لهم أهل ؛ كالأسد الذى يفترس الأرنب ، فإذا رأى البعير تركها وطلب البعير ؛ ألا ترى أن الكلب يبصبص[1] بذنبه حتى ترمى له الكسرة ، وأن الفيل المعترف بفضله وقوته إذا قدم إليه علفه لا يعتلفه حتى يُمسح ويتملق له ، فمن عاش ذا مال وكان ذا فضل وإفضال على أهله وإخوانه فهو وإن قل عمره طويل العمر ، ومن كان في عيشه ضيق وقلة وإمساك على نفسه وذويه فالمقبور أحيا منه ،ومن عمل لبطنه وقنع وترك ما سوى ذلك عدَّ من البهائم .

قال كليلة : قد فهمتُ ما قلتَ ؛ فراجع عقلك ، واعلم أنَّ لكل إنسان منزلة وقدرًا ، فإن كان في منزلته التى هو فيها متماسكًا كان حقيقًا أن يقنع ، وليس لنا من المنزلة ما يحط حالنا التى نحن عليها .

قال دمنة : إنَّ المنازل متنازعة مشتركة على قدر المروءة ؛ فالمرء ترفعه مروءته من المنزلة الوضيعة إلى المنزلة الرفيعة ، ومن لا مروءة له يحط نفسه من المنزلة الرفيعة إلى المنزلة الوضيعة . وإنَّ الارتفاع إلى المنزلة الشريفة شديد ، والانحطاط منها هين ؛ كالحجر الثقيل : رفعه من الأرض إلى العاتق عسر ، ووضعه إلى الأرض هين، فنحن أحق أن نروم ما فوقنا من المنازل، وأن نلتمس ذلك بمروءتنا . ثمَّ كيف نقنع بها ونحن نستطيع التحول عنها ؟

---

(١) يحرك ذنبه .

قال كليلة : فما الذي اجتمع عليه رأيك ؟

قال دمنة : أريد أن أتعرض للأسد عند هذه الفرصة : فإنَّ الأسد ضعيف الرأى ، ولعلي على هذه الحال أدنو منه فأصيب عنده منزلة ومكانة .

قال كليلة : ما يدريك أنَّ الأسد قد التبس عليه أمره ؟

قال دمنة : بالحس والرأى أعلم ذلك منه : فإنَّ الرجل ذا الرأى يعرف حال صاحبه وباطن أمره بما يظهر له من دله وشكله .

قال كليلة : فكيف ترجو المنزلة عند الأسد ولست بصاحب السلطان ، ولا لك علم بخدمة السلاطين ؟

قال دمنة : الرجل الشديد القوي لا يعجزه الحمل الثقيل ، وإن لم تكن عادته الحمل ؛ والرجل الضعيف لا يستقل به ، وإن كان ذلك من صناعته .

قال كليلة : إن السلطان لا يتوخي بكرامته فضلاء من بحضرته ؛ ولكنه يؤثر الأدنى ومن قرب منه ، ويقال : إنَّ مثل السلطان في ذلك مثل شجر الكرم الذى لا يعلق إلا بأقرب الشجر ، وكيف ترجو المنزلة عند الأسد ولست تدنو منه ؟

قال دمنة : قد فهمت كلامك جميعه وما ذكرت ، وأنت صادق لكن اعلم أنَّ الذى هو قريب من السلطان ولا ذلك موضعه ولا تلك منزلته ، ليس كمن دنا منه بعد البعد وله حق وحرمة ؛ وأنا ملتمس بلوغ مكانتهم بجهدي . وقد قيل : لا يواظب على باب السلطان إلا من يطرح الأنفة ويحمل الأذى ويكظم الغيظ ويرفق بالناس ويكتم السر ؛ فإذا وصل إلى ذلك فقد بلغ مراده .

قال كليلة : هبك وصلت إلى الأسد ، فما توفيقك عنده الذى ترجو أن تنال به المنزلة والحُظوة لديه ؟

قال دمنة : لو دنوت منه وعرفت أخلاقه ، لرفقت في متابعته وقلَّة الخلاف له ، وإذا أراد أمرًا هو في نفسه صواب ، زيَّنته له وصبَّرته عليه ، وعرَّفته بما فيه من النفع والخير ، وشجَّعته عليه وعلى الوصول إليه ، حتى يزداد به سرورًا ،

وإذا أراد أمرًا يخاف عليه ضره وشينه ، بصَّرته بما فيه من الضر والشين ، وأوقفته على ما في تركه من النفع والزين بحسب ما أجد إليه السبيل . وأنا أرجو أن أزداد بذلك عند الأسد مكانة ويرى مني ما لا يراه من غيري فإن الرجل الأديب الرفيق لو شاء أن يبطل حقًا أو يحق باطلاً لفعل ، كالمصور الماهر الذى يصور في الحيطان صورًا كأنها خارجة وليست بخارجة ، وأخرى كأنها داخلة وليست بداخلة .

قال كليلة : أما إن قلت هذا أو قلت هذا فإنى أخاف عليك من السلطان فإنَّ صحبته خطرة . وقد قالت العلماء : إن أمورًا ثلاثة لا يجترىء عليهن إلا أهوج، ولا يسلم منهن إلا قليل ، وهى : صحبة السلطان ، وائتمان النساء على الأسرار، وشرب السم للتجربة ، وإنَّما شبه العلماء السلطان بالجبل الصعب المرتقى الذى فيه الثمار الطيبة والجواهر النفيسة والأدوية النافعة ، وهو مع ذلك معدن السباع والنمور والذئاب وكل ضار مخوف . فالارتقاء إليه شديد ، والمقام فيه أشد .

قال دمنة : صدقت فيما ذكرت ؛ غير أنه من لم يركب الأهوال ، لم ينل الرغائب ؛ ومن ترك الأمر الذى لعله يبلغ فيه حاجته هيبة ومخافة لما لعله أن يتوقاه ، فليس ببالغ جسيمًا ، وقد قيل : إن خصالاً ثلاثًا لن يستطيعها أحد إلا بمعونة من علو همة وعظيم خطر ، منها عمل السلطان وتجارة البحر ومناجزة[1] العدو . وقد قالت العلماء في الرجل الفاضل الرشيد : إنَّه لا يرى إلا في مكانين، ولا يليق به غيرهما : إما مع الملوك مكرمًا ، أو مع النساك متبتلاً ، كالفيل إنما جماله وبهاؤه في مكانين إما في البرية وحشيًا أو مركبًا للملوك .

قال كليلة : خار[2] الله لك فيما عزمت عليه .

ثم إن دمنة انطلق حتى دخل على الأسد فسلم عليه . فقال الأسد لبعض

(١) مقاتلة . (٢) جعل لك فيه الخير .

جلسائه : من هذا ؟ فقال : فلان بن فلان . قال : قد كنت أعرف أباه . ثم سأله أين تكون ؟ قال : لم أزل ملازمًا باب الملك ، رجاء أن يحضر أمر فأعين الملك فيه بنفسي ورأيي ، فإن أبواب الملوك تكثر فيها الأمور التي ربما يحتاج فيها إلى الذي لا يؤبه[1] له ؛ وليس أحد يصغر أمره إلا وقد يكون عنده بعض الغناء والمنافع على قدره ؛ حتى العود الملقى في الأرض ربما نفع ، فيأخذه الرجل فيكون عدته عند الحاجة إليه .

فلما سمع الأسد قول دمنة أعجبه ، وظن أن عنده نصيحة ورأيًا . فأقبل على من حضر فقال : إن الرجل ذا العلم والمروءة يكون خامل الذكر خافض المنزلة ، فتأبى منزلته إلا أن تشب وترتفع ؛ كالشعلة من النار يضربها صاحبها وتأبى إلا ارتفاعًا .

فلمَّا عرف دمنة أن الأسد قد عجب منه قال : إن رعية الملك تحضر باب الملك ، رجاء أن يعرف ما عندها من علم وافر . وقد يُقال : إن الفضل في أمرين : فضل المقاتل على المقاتل والعالِم على العالَم ، وإنَّ كثرة الأعوان إذا لم يكونوا مختبرين ربما تكون مضرة على العمل ، فإن العمل ليس رجاؤه بكثرة الأعوان ولكن بصالحي الأعوان ، ومثل ذلك مثل الرجل الذى يحمل الحجر الثقيل ، فيثقل به نفسه ، ولا يجد له ثمنًا . والرجل الذى يحتاج إلى الجذوع لا يجزئه القصب وإن كثر ، فأنت الآن أيها الملك حقيق ألا تحقر مروءة أنت تجدها عند رجل صغير المنزلة فإن الصغير ربما عظم ، كالعصب يؤخذ من الميتة فإذا عمل منه القوس أكرم ، فتقبض عليه الملوك وتحتاج إليه في البأس واللهو . وأحب دمنة أن يرى القوم أن ما ناله من كرامة الملك إنما هو لرأيه ومروءته وعقله لأنهم عرفوا قبل ذلك أن ذلك لمعرفته أباه ، فقال : إن السلطان لا يقرب الرجال لقرب آبائهم

(١) يفطن .

ولا يبعدهم لبعدهم ، ولكن ينبغي أن ينظر إلى كل رجل بما عنده لأنه لا شيء أقرب إلى الرجل من جسده ومن جسده ما يدوى[١] حتى يؤذيه ولا يدفع ذلك عنه إلا بالدواء الذى يأتيه من بعد .

فلما فرغ دمنة من مقالته هذه أعجب الملك به إعجابًا شديدًا ، وأحسن الرد عليه ، وزاد في كرامته ، ثمَّ قال لجلسائه ينبغي للسلطان ألا يلج في تضييع حق ذوي الحقوق . والناس في ذلك رجلان ، رجل طبعه الشراسة ، فهو كالحية إن وطئها الواطىء فلم تلدغه ، لم يكن جديرًا أن يغره ذلك منها ، فيعود إلى وطئها ثانية فتلدغه ، ورجل أصل طباعه السهولة ، فهو كالصندل البارد الذى إذا أفرط في حكه صار حارًا مؤذيًا .

ثم إن دمنة استأنس بالأسد وخلا به ، فقال له يومًا : أرى الملك قد أقام في مكان واحد لا يبرح منه ، فما سبب ذلك ؟ فبينما هما في هذا الحديث إذ خار شتربة خوارًا شديدًا ، فهيج الأسد ، وكره أن يخبر دمنة بما ناله ؛ وعلم دمنة أن ذلك الصوت قد أدخل على الأسد ريبة[٢] وهيبة . فسأله : هل راب الملك سماع هذا الصوت ؟ قال : لم يربني شيء سوى ذلك . قال دمنة : ليس الملك بحقيق أن يدع مكانه لأجل صوت . فقد قالت العلماء : إنه ليس من كل الأصوات تجب الهيبة . قال الأسد : وما مثل ذلك ؟

قال دمنة : زعموا أن ثعلبًا أتى أجمة[٣] فيها طبل معلق على شجرة ،وكلما هبَّت الريح على قضبان تلك الشجرة حرَّكتها ، فضربت الطبل فسمع له صوت عظيم ؛ فتوجه الثعلب نحوه لأجل ما سمع من عظيم صوته ؛ فلما أتاه وجده ضخمًا ، فأيقن في نفسه بكثرة الشحم واللحم ، فعالجه حتى شقه ، فلما رآه أجوف لا شيء فيه ، قال : لا أدري لعل أفشل الأشياء أجهرها صوتًا وأعظمها

(١) يمرض . (٢) ظنًا لما يخاف منه .
(٣) الشجر الكثير الملتف .

جثة ، وإنما ضربت لك هذا المثل لتعلم أن هذا الصوت الذى راعنا ، لو وصلنا إليه ، لوجدناه أيسر مما في أنفسنا ، فإن شاء الملك بعثني وأقام بمكانه حتى آتيه ببيان هذا الصوت ، فوافق الأسد قوله ، فأذن له بالذهاب نحو الصوت ، فانطلق دمنة إلى المكان الذى فيه شتربة .

فلما فصل دمنة من عند الأسد ، فكر الأسد في أمره ، وندم على إرسال دمنة حيث أرسله ، وقال في نفسه : ما أصبت في ائتماني دمنة ، وقد كان ببابي مطروحًا ، فإن الرجل إذا كان يحضر باب الملك ، وقد أبطلت حقوقه من غير جرم كان منه ، أو كان مبغيًا عليه عند سلطانه ، أو كان عنده معروفًا بالشره والحرص ، أو كان قد أصابه ضر وضيق فلم ينعشه ، أو كان قد اجترم جرمًا فهو يخاف العقوبة منه ، أو كان يرجو شيئًا يضر الملك وله منه نفع ، أو يخاف في شيء مما ينفعه ضررًا ، أو كان لعدو الملك مسالمًا ، ولمسالمه محاربًا ، فليس السلطان بحقيق أن يعجل بالاسترسال إليه ، والثقة به ، والائتمان له فإن دمنة داهية أريب ، وقد كان ببابي مطروحًا مجفوًا ، ولعله قد احتمل على بذلك ضغنًا ، ولعل ذلك يحمله على خيانتي وإعانة عدوي ونقيصتي عنده ، ولعله صادف صاحب الصوت أقوى سلطانًا مني فيرغب به عني ويميل معه عليّ .

ثم قام من مكانه فمشى غير بعيد ، فبصر بدمنة مقبلاً نحوه ، فطابت نفسه بذلك ، ورجع إلى مكانه ؛ ودخل دمنة على الأسد فقال له : ماذا صنعت ؟ وماذا رأيت ؟ قال : رأيت ثورًا هو صاحب الخوار والصوت الذى سمعته . قال : فما قوته ؟ قال : لا شوكة له ، وقد دنوت منه وحاورته محاورة الأكفاء فلم يستطع لي شيئًا . قال الأسد : لا يغرنك ذلك منه ولا يصغرن عندك أمره ؛ فإن الريح الشديدة لا تعبأ بضعيف الحشيش ، لكنها تحطم طوال النخل وعظيم الشجر. قال دمنة : لا تهابنَّ أيها الملك منه شيئًا ؛ ولا يكبرن عليك أمره ، فأنا آتيك به ليكون لك عبدًا سامعًا مطيعًا . قال الأسد : دونك وما بدا لك .

فانطلق دمنة إلى الثور ، فقال له غير هائب ولا مكترث : إن الأسد أرسلني إليك لآتيه بك ، وأمرني إن أنت عجلت إليه طائعًا ، أن أؤمنك على ما سلف من ذنبك في التأخر عنه وتركك لقاءه ؛ وإن أنت تأخرت عنه وأحجمت ، أن أعجل الرجعة إليه فأخبره . قال له شتربة : ومن هو هذا الأسد الذى أرسلك إليَّ؟ وأين هو ؟ وما حاله ؟ قال دمنة : هو ملك السباع ،وهو بمكان كذا ، ومعه جند كثير من جنسه ، فرعب شتربة من ذكر الأسد والسباع . وقال : إن أنت جعلت لي الأمان على نفسي أقبلت معك إليه ، فأعطاه دمنة من الأمان ما وثق به، ثم أقبل والثور معه ، حتى دخلا على الأسد فأحسن الأسد إلى الثور وقربه ، وقال له : متى قدمت هذه البلاد ؟ وما أقدمكها ؟ فقصَّ شَتَربةُ عليه قصته . فقال له الأسد : اصحبني والزمني ؛ فإني مكرمك ، فدعا له الثور وأثنى عليه .

ثم إن الأسد قرب شتربة وأكرمه وأنس به وائتمنه على أسراره وشاوره في أمره، ولم تزده الأيام إلا عُجبًا به ورغبة فيه وتقريبًا منه ؛ حتى صار أخص أصحابه عنده منزلة ، فلما رأى دمنة أن الثور قد اختص بالأسد دونه ودون أصحابه ، وأنه قد صار صاحب رأيه وخلواته ولهوه ، حسده حسدًا عظيمًا ، وبلغ منه غيظه كل مبلغ ؛ فشكا ذلك إلى أخيه كليلة وقال له : ألا تعجب يا أخي من عجز رأيي وصنعي بنفسي ؟ ونظرى فيما ينفع الأسد ، وأغفلت نفع نفسي حتى جلبت إلى الأسد ثورًا غلبني على منزلتي .

قال كليلة : أخبرني عن رأيك وما تريد أن تعزم عليه في ذلك . قال دمنة : أما أنا فلست اليوم أرجو أن تزداد منزلتي عند الأسد فوق ما كانت عليه ؛ ولكن ألتمس أن أعود إلى ما كنت عليه ؛ فإن أمورًا ثلاثة العاقل جدير بالنظر فيها، والاحتيال لها بجهده : منها النظر فيما مضى من الضر والنفع ، فيحترس من الضر الذى أصابه فيما سلف لئلا يعود إلى ذلك الضر ، ويلتمس النفع الذى مضى ويحتال لمعاودته ؛ ومنها النظر فيما هو مقيم فيه من المنافع والمضار ،

والاستيثـاق بما ينفع والهرب مما يضر ، ومنها النظر في مستقبـل ما يرجو من قبل النفع ، وما يخاف من قبل الضـر ، فيستتم ما يرجو ويتوقى مـا يخاف بجهده ، وإني لما نظرت في الأمر الذى به أرجو أن تعود منزلتي ، وما غلبت عليه مما كنت فيه ، لـم أجد حيلة ولا وجهًا إلا الاحـتيال لآكل العشب هذا ، حـتى أفرق بينه وبين الحيـاة فإنه إن فـارق الأسد ، عـادت لي منزلتي ، ولعل ذلك يكون خـيراً للأسد ؛ فإن إفراطه في تقريب الثور خليق أن يشينه ويضره في أمره .

قال كليلة : مـا أرى على الأسد في رأيه في الثور ومكانـه منه ومنزلته عنده شيئًا ولا شراً .

قـال دمنة : إنما يؤتى[1] السلطان ويفسد أمره من قبل سـتة أشياء : الحرمان والفتنة والهوى والفظاظة والزمان والخرق .

فأمـا الحرمان فـأن يحرم صالح الأعـوان والنصحاء والسـاسة من أهل الرأى والنجدة والأمانة وترك التفقد لمن هو كذلك ، وأما الفتنة فهو تحارب الناس ووقوع الحرب بينهم . وأمـا الهوى فالغرام بالحديث واللهـو والشراب والصيد ومـا أشبه ذلك . وأما الفظاظة فهى إفـراط الشدة حتى يجمع اللسان بـالشتم واليد بالبطش في غير موضـعهما . وأما الزمان فهـو ما يصيب الناس من السنين والموت ونقص الثمرات والـغزوات وأشباه ذلك ، وأما الخـرق فإعمال الشـدة في موضع اللين ، واللين في مـوضع الشدة ، وإن الأسـد قد أغـرم بالثـور إغرامًا شـديداً هو الذى ذكرت لك أنه خليق أن يشينه ويضره في أمره .

قال كليلة : وكيف تطيق الثور وهو أشـد منك وأكرم على الأسد منك وأكثر أعوانًا ؟

قال دمنة : لا تنظر إلى صغرى وضعـفي ؛ فإن الأمور ليست بالضعف ولا

---

(١) أتي فلان كعُني أشرف عليه العدو والمراد فتح باب الشر عليه .

القوة ولا الصغر ولا الكبر في الجثة ؛ فرب صغير ضعيف قد بلغ بحيلته ودهائه ورأيه ما يعجز عنه كثير من الأقوياء . أولم يبلغك أن غرابًا ضعيفًا احتال لأسود حتى قتله ؟ قال كليلة : وكيف كان ذلك ؟

قال دمنة : زعموا أن غرابًا كان له وكر في شجرة على جبل ؛ وكان قريبًا منه جحر ثعبان أسود ، فكان الغراب إذا فرخ عمد الأسود إلى فراخه فأكلها ، فبلغ ذلك من الغراب وأحزنه ، فشكا ذلك إلى صديق له من بنات آوى ، وقال له : أريد مُشاوَرَتَك في أمر قد عزمت عليه ؛ قال : وما هو ؟ قال الغراب : قد عزمت أن أذهب إلى الأسود إذا نام ، فأنقر عينيه ، فأفقأهما لعلي أستريح منه . قال ابن آوى : بئس الحيلة التي احتلت ؛ فالتمس أمرًا تصيب فيه بغيتك من الأسود ، من غير أن تغرر بنفسك وتخاطر بها ، وإيَّاك أن يكون مثلك مثل العلجوم[1] الذي أراد قتل السرطان[2] فقتل نفسه . قال الغراب : وكيف كان ذلك؟

قال ابن آوى : زعموا أن عُلجُومًا عشَّش في أجمة كثيرة السمك ؛ فعاش بها ما عاش ؛ ثمَّ هرم فلم يستطع صيدًا ؛ فأصابه جوع وجهد شديد ؛ فجلس حزينًا يلتمس الحيلة في أمره ؛ فمرَّ به سرطان ، فرأى حالته وما هو عليه من الكآبة والحزن ؛ فدنا منه وقال : ما لي أراك أيها الطائر هكذا حزينًا كئيبًا ؟ قال العُلجُوم: وكيف لا أحزن وقد كنت أعيش من صيد ما هاهنا من السمك ؟ وإني قد رأيت اليوم صيادين قد مرا بهذا المكان ؛ فقال أحدهما لصاحبه : إن هاهنا سمكًا كثيرًا أفلا نصيده أولاً ؟ فقال الآخر : إني قد رأيت في مكان كذا سمكًا أكثر من هذا السمك ؛ فلنبدأ بذلك ، فإذا فرغنا منه جئنا إلى هذا فأفنيناه . وقد علمت أنهما إذا فرغا مما هناك ، انتهيا إلى هذه الأجمة فاصطادا ما فيها ، فإذا كان ذلك فهو هلاكي ونفاد مدَّتي .

(١) طائر أبيض . (٢) حيوان بحري معروف .

فانطلق السرطان من ساعته إلى جماعة السمك فأخبرهن بذلك ؛ فأقبلن إلى العلجوم فاستشرنه ؛ وقلن له : إنا أتيناك لتشير علينا ؛ فإن ذا العقل لا يدع مشاورة عدوه . قال العلجوم : أما مكابرة الصيادين فلا طاقة لي بها ؛ ولا أعلم حيلة إلا المصير إلى غدير قريب من هاهنا ، فيه سمك ومياه عظيمة وقصب ؛ فإن استطعتن الانتقال إليه ،كان فيه صلاحكُن وخصبكُن . فقلن له : ما يمنَّ علينا بذلك غيرك .

فجعل العلجوم يحمل في كل يوم سمكتين حتى ينتهي بهما إلى بعض التلال فيأكلهما ؛ حتى إذا كان ذات يوم جاء لأخذ السمكتين ، فجاءه السرطان ؛ فقال له : إني أيضًا قد أشفقت من مكاني هذا واستوحشت منه فاذهب بي إلى ذلك الغدير ؛ فاحتمله وطار به ، حتى إذا دنا من التل الذى كان يأكل السمك فيه نظر السرطان فرأى عظام السمك مجموعة هناك ؛ فعلم أن العلجوم هو صاحبها؛ وأنه يريد به مثل ذلك . فقال في نفسه : إذا لقي الرجل عدوه في المواطن التي يعلم أنه فيها هالك سواء قاتل أم لم يقاتل ؛ كان حقيقًا أن يقاتل عن نفسه كرمًا وحفاظًا[1] ، ثم أهوى بكلبتيه[2] على عنق العلجوم ، فعصره فمات ؛ وتخلص السرطان إلى جماعة السمك فأخبرهنَّ بذلك .

وإنما ضربت لك هذا المثل لتعلم أنَّ بعض الحيلة مهلكة للمحتال ، ولكني أدلك على أمر ، إن أنت قدرت عليه ، كان فيه هلاك الأسود ، من غير أن تُهلك به نفسك ، وتكون فيه سلامتك . قال الغراب : وما ذاك ؟

قال ابن آوى : تنطلقُ فَتَبَصَّرُ في طيرانك لعلك أن تظفر بشيء من حلي النساء فتخطفه ، ولا تزال طائرًا واقعًا ، بحيث لا تفوت العيون ، حتى تأتي

---

(١) أنفة .

(٢) كلبتا السرطان : هما قرناه اللذان يشبهان الأداة التي يأخذ بها الحداد الحديد المحمي أو التي يخرج بها النجار المسامير من الخشب ( الكماشة ) .

جحر الأسـود فترمي بالحلي عنده . فإذا رأى الناس ذلك أخـذوا حليهم وأراحوك من الأسود ، فانطلق الغراب محلقًا[1] في السماء ، فوجد امرأة من بنات العظماء فوق سطح تغتسل ، وقد وضعت ثيابهـا وحليها ناحية ، فـانقض واختطف من حُليها عقدًا ، وطار به ، فتبعه الناس ؛ ولم يزل طائرًا واقعًا بحيث يراه كل أحد؛ حتى انتهى إلى جـحر الأسود ، فألقى العقد عليـه ، والناس ينظرون إليه ، فلما أتوه أخـذوا العقـد وقتلوا الأسـود . وإنما ضربت لـك هذا المثل لتعلم أن الحـيلة تُجزيء ما لا تُجزيء القوة .

قال كليلة : إن الثور لو لم يجتمع مع شدته رأيه لكان كما تقول ، ولكن له مع شدته وقوته حسن الرأى والعقل ، فماذا تستطيع له ؟

قال دمنة : إن الثور لكما ذكرت في قوته ورأيه ، ولكنه مقر لي بالفضل وأنا خليق أن أصرعه كما صرعت الأرنب الأسد .

قال كليلة : وكيف كان ذلك ؟

قال دمنة : زعـموا أن أسدًا كان في أرض كـثيرة الماء والعُشب ، وكان في تلك الأرض من الوحـوش في سعـة المياه والمرعى شيء كـثيـر ؛ إلا أنه لم يكن ينفعها ذلك ؛ لخوفها من الأسد ؛ فاجتمعت وأتت إلى الأسد ، فقالت له : إنَّك لتُصيب منا الدابة بعد الجهد والتعب ، وقد رأينا لك رأيًا فيه صلاح لك وأمن لنا، فإن أنت أمنتنا ولم تخفنـا ، فلك علينا في كل يوم دابة نرسل بها إليك في وقت غدائك . فرضى الأسد بذلك ، وصالح الوحوش عليه ، ووفين له به .

ثم إن أرنبًا أصابتها القرعة ، وصـارت غداء الأسد ؛ فقالت للوحوش : إن أنتن رفقتن بي فيما لا يضركن؛ رجوت أن أريحكن من الأسد. فقالت الوحوش: وما الذى تكلفيننا من الأمور ؟ قالت: تأمرن الذي ينطلق بي إلى الأسد أن يمهلني

(١) مستديرًا في طيرانه كالحلقة .

ريثما أبطىء عليه بعض الإبطاء . فقلن لها: ذلك لك ، فانطلقت الأرنب متباطئة؛ حتى جاوزت الوقت الذى كان يتغدى فيه الأسد. ثم تقدمت إليه وحدها رويدًا ، وقد جاع ؛ فغضب وقام من مكانه نحوها ؛ فقال لها : من أين أقبلت ؟ قالت : أنا رسول الوحوش إليك ، بعثتني ومعي أرنب لك ، فتبعني أسد في بعض تلك الطريق ، فأخذها مني ، وقال : أنا أولى بهذه الأرض وما فيها من الوحش . فقلت : إن هذا غداء الملك أرسلني به الوحوش إليه ، فلا تغصبنه ، فسبَّك وشتمك ، فأقبلت مسرعة لأخبرك . فقال الأسد : انطلقي معي فأريني موضع هذا الأسد .

فانطلقت الأرنب إلى جب فيه ماء غامر صاف ، فاطلعت فيه ، وقالت : هذا المكان . فاطلع الأسد ، فرأى ظله وظل الأرنب في الماء ؛ فلم يشك في قولها ، ووثب إليه ليقاتله ، فغرق في الجب ، فانقلبت الأرنب إلى الوحوش فأعلمتهن صنيعها بالأسد .

قال كليلة : إن قدرت على هلاك الثور بشيء ليس فيه مضرة للأسد فشأنك؛ فإن الثور قد أضر بي وبك وبغيرنا من الجند ؛ وإن أنت لم تقدر على ذلك إلا بهلاك الأسد ، فلا تُقدم عليه ؛ فإنه غدر مني ومنك .

ثم إن دمنة ترك الدخول على الأسد أيامًا كثيرة ؛ ثم أتاه على خلوة منه . فقال له الأسد: ما حبسك عني ؟ منذ زمان لم أرك ، ألا لخير كان انقطاعك ؟

قال دمنة : فليكن خيرًا أيها الملك . قال الأسد : وهل حدث أمر ؟ قال دمنة : حدث ما لم يكن الملك يريده ولا أحد من جنده. قال : وما ذاك ؟ قال : كلام فظيع . قال : أخبرني به .

قال دمنة : إنه كلام يكرَهُهُ سامعه ، ولا يشجع عليه قائله . وإنك أيها الملك لذو فضيلة ، ورأيك يدلك على أن يوجعني أن أقول ما تكره ؛ وأثق بك أن تعرف نصحي وإيثاري إياك على نفسي ، وإنه ليعرض لي أنك غير مصدقي فيما

أخبرك به ؛ ولكني إذا تذكرت وتفكرت أن نفوسنا ، معاشر الوحوش ، متعلقة بك لم أجد بدًا من أداء الحق الذى يلزمني وإن أنت لم تسألني وخفت ألا تقبل مني فإنه يقال : من كتم السلطان نصيحته والإخوان رأيه فقد خان نفسه . قال الأسد : فما ذاك ؟

قال دمنة : حدثني الأمين الصدوق عندي أن شتربة خلا برؤوس جندك ، وقال : قد خبرتُ الأسد وبلوتُ رأيه ومكيدته وقوته ، فاستبان لي أن ذلك يؤول منه إلى ضعف وعجز ، وسيكون لي وله شأن من الشؤون ، فلما بلغني ذلك علمتُ أن شتربة خوّان غدّار ؛ وأنك أكرمته الكرامة كلّها ، وجعلته نظير نفسك، وهو يظن أنه مثلك ، وأنك متى زلت عن مكانك صار له ملكك ؛ ولا يدع جهدًا إلا بلغه فيك .

وقد كان يقال : إذا عرف الملكُ من الرجل أنه قد ساواه في المنزلة والحال ، فليصرعه ؛ فإن لم يفعل به ذلك ، كان هو المصروع ، وشتربة أعلم بالأمور وأبلغ فيها ؛ والعاقل هو الذى يحتال للأمر قبل تمامه ووقوعه ؛ فإنك لا تأمن أن يكون ولا تستدركه .

فإنه يقال : الرجال ثلاثة : حازم وأحزم منه وعاجز ؛ فأحد الحازمين من إذا نزل به الأمر لم يدهش له ، ولم يذهب قلبُه شعاعًا[١] ، ولم تَعى به حيلتُهُ ومكيدته التى يرجو بها المخرج منه ، وأحزم من هذا المتقدم ذو العُدَّة الذى يعرف الابتلاء قبل وقوعه ؛ فيعظمه إعظامًا ، ويحتال له حتى كأنه قد لزمه ، فيحسم[٢] الداء قبل أن يبتلى به ؛ ويدفع الأمر قبل وقوعه . وأما العاجز فهو في تردد وتمن وتوان حتى يهلك ، ومن أمثال ذلك مثل السمكات الثلاث .

قال الأسد : وكيف كان ذلك ؟

---

(١) متفرقًا . (٢) يقطع .

قال دمنة : زعـموا أنَّ غديرًا كـان فيه ثلاث سمكات : كـيسة وأكـيس منها وعاجزة ، وكان ذلك الغدير بنجوة[١] من الأرض لا يكاد يقربه أحد ؛ وبقربه نهر جار ، فاتفق أنه اجتـاز بذلك النهر صيَّادان ، فأبصرا الغدير ، فتـواعدا أن يرجعا إليه بشباكهما فيصيدا ما فيه من السمك ، فسمع السمكات قولهما : فأما أكيسهن لما سمعت قـولهما ، ارتابت بهما ، وتخوفت منهـما ؛ فلم تعرج[٢] عـلى شـيء حتى خرجت من المكان الذى يـدخل فيه الماء من النهر إلى الغدير ، وأمـا الكيسة فإنهـا مكثت مكانها حتى جـاء الصيادان ؛ فلمـا رأتهما ، وعـرفت ما يريدان ، ذهبت لتخـرج من حيث يدخل الماء ؛ فـإذا بهما قـد سدّا ذلك المكان ؛ فحـينئذ قالت : فـرَّطت ، وهذه عاقبة التـفريط ، فكيف الحيلة على هذه الحـال ؟ وقلَّما تنجع حيلـة العجلة والإرهاق[٣]، غير أن الـعاقل لا يقنط من منافع الرأى ، ولا ييأس على حال ، ولا يدع الرأى والجهـد . ثمَّ إنها تماوتت فطفت على وجه الماء منقلبـة على ظهرها تارة ، وتارة على بطنهـا ؛ فأخذها الصـيَّادان فوضـعاها على الأرض بين النهر والغـدير ؛ فوثبت إلى النهر فنجت . وأمَّا العـاجزة فلم تزل في إقبال وإدبار حتى صيدت .

قال الأسد : قد فهمت ذلك ؛ ولا أظن الثور يَغُشُّني ويرجو لي الغوائل[٤] . وكيف يفعل ذلك ولم ير مني سوءًا قط ؟ ولم أدع خيرًا إلا فعلتهُ معه ؟ ولا أمنية إلا بلَّغتهُ إيَّاها ؟

قال دمنة : إنَّ اللئيم لا يزالُ نافعًا ناصحًا حتى يُرفَعَ إلى المنزلة التى ليس لها بأهل، فإذا بلغهـا التمس ما فوقها، ولا سـيما أهل الخيانة والفجـور ، فإن اللئيم الفاجر لا يخدم السلطان ولا ينصح له إلا من فرق[٥] . فإذا استغنى وذهبت الهيبة

---

(١) مرتفع من الأرض . (٢) لم تقف .
(٣) الضيق والعسر . (٤) الدواهي .
(٥) خوف .

عاد إلى جوهره ، كذنب الكلب الذى يُربط ليستقيم فلا يزال مستويًا ما دام مربوطًا ؛ فإذا حُلَّ انحنى واعوج كما كان ، واعلم أيها الملك أنه من لم يقبل من نصحائه ما يثقل عليه مما ينصحون له به ، لم يُحمد رأيه ، كالمريض الذى يدع ما يبعث له الطبيب ، ويعمد إلى ما يشتهيه . وحق على موازر السلطان أن يبالغ في التحضيض له على ما يزيد سلطانه قوة ويزينه ، والكف عما يضره ويشينه ، وخير الإخوان والأعوان أقلهم مداهنة في النصيحة ؛ وخير الأعمال أحلاها عاقبة؛ وخير النساء الموافقة لبعلها ؛ وخير الثناء ما كان على أفواه الأخيار ؛ وأشرف الملوك من لم يخالطه بطر ؛ وخير الأخلاق أعونها على الورع . وقد قيل: لو أن امرءًا توسَّد النار وافترش الحيَّات ، كان أحق ألا يهنئه النوم . والرجل إذا أحس من صاحبه بعداوة يريده بها ، لا يطمئن إليه ؛ وأعجز الملوك آخذهم بالهُوَينَا ، وأقلهم نظرًا في مستقبل الأمور ، وأشبههم بالفيل الهائج الذى لا يلتفت إلى شيء فإن حَزَبَه أمر تهاون به ؛ وإن أضاع الأمور حمل ذلك على قرنائه . قال له الأسد : لقد أغلظت في القول ؛ وقول الناصح مقبول محمول . وإن كان شتربة معاديًا لي ، كما تقول ، فإنَّه لا يستطيعُ لي ضرًا ؛ وكيف يقدر على ذلك وهو آكل عُشُب وأنا آكل لحم ؟ وإنما هو لي طعام ، وليس عليَّ منه مخافة . ثم ليس إلى الغدر به سبيل بعد الأمان الذى جعلته له ، وبعد إكرامي له، وثنائي عليه .وإن غيَّرتُ ما كان مني وبدَّلْتُه ، سفهتُ رأيي وجهلتُ نفسي وغدرت بذمَّتي .

قال دمنة : لا يغُرَّنكَ قولُك : هو لي طعام وليس عليَّ منه مخافة : فإنَّ شتربة إن لم يستطعك بنفسه احتال لك من قبل غيره . ويقال : إن استضافك ضيف ساعة من نهار ، وأنت لا تعرف أخلاقه فلا تأمنه على نفسك ؛ ولا تأمن أن يصلك منه أو بسببه ما أصاب القملة من البرغوث . قال الأسد : وكيف كان ذلك ؟

قال دمنة : زعموا أن قملة لزمت فراش رجل من الأغنياء دهراً ؛ فكانت تصيب من دمه وهو نائم لا يشعر ، وتدب دبيبًا رفيقًا ؛ فمكثت كذلك حينًا حتى استضافها ليلة من الليالي برغوث ؛ فقالت له : بت الليلة عندنا في دم طيب وفراش لين ؛ فأقام البرغوث عندها حتى إذا أوى الرجل إلى فراشه وثب عليه البرغوث فلدغه لدغة أيقظته ؛ وأطارت النوم عنه ؛ فقام الرجل وأمر أن يفتش فراشه ، فنظر فلم ير إلا القملة ؛ فأخذت فقصعت[1] وفرَّ البرغوث .

وإنَّما ضربت لك هذا المثل لتعلم أنَّ صاحب الشر لا يسلمُ من شره أحد ؛ وإن هو ضعف عن ذلك جاء الشرُّ بسببه . وإن كنت لا تخاف من شتربة ،فخف غيره من جندك الذين قد حملهم[2] عليك وعلى عداوتك . فوقع في نفس الأسد كلامُ دمنة . فقال : فما الذى ترى إذًا ؟ وبماذا تشير ؟ قال دمنة : إنَّ الضرس لا يزال متآكِّلاً ، ولا يزال صاحبه منه في ألم وأذى حتى يفارقه .والطعام الذى قد عَفِنَ في البطن ، الراحة في قذفه .والعدو المخوف ، دواؤه قتلُه . قال الأسد : لقد تركتني أكره مجاورة شتربة إياى ؛ وأنا مرسل إليه ، وذاكر له ما وقع في نفسي منه ؛ ثم آمره باللحاق حيث أحب . فكره دمنة ذلك ، وعلم أن الأسد متى كلم شتربة في ذلك وسمع منه جوابًا عرف باطل ما أتى به ، واطلع على غدره وكذبه، ولم يخف عليه أمره . فقال للأسد : أما إرسالك إلى شتربة فلا أراه لك رأيًا ولا حزمًا ؛ فلينظر الملك في ذلك ؛ فإنَّ شتربة متى شعر بهذا الأمر، خفتُ أن يعاجل الملك بالمكابرة ، وهو إن قاتلك ، قاتلك مستعدًا ؛ وإن فارقك، فارقك فراقًا يليك منه النقص ، ويلزمُك منه العار ، مع أنَّ ذوي الرأى من الملوك لا يعلنون عقوبة من لم يعلن ذنبه ؛ ولكن لكل ذنب عندهم عقوبة . فلذنب العلانية عقوبة العلانية ، ولذنب السر عقوبة السر . قال الأسد : إن الملك إذا

---

(١) قتلت بالظفر . (٢) أغراهم .

عاقب أحـدًا عن ظنة[1] ظنها من غير تيقن بجـرمه ، فنفسه عاقب وإياها ظلم .
قال دمنة : أما إذا كان هذا رأى الملك ، فلا يدخُلنَّ عليك شتربة إلا وأنت مستعد له ؛ وإياك أن تصيبك منه غرة أو غفلة فإني لا أحسب الملك حين يدخل عليه إلا سيعـرف أنه قد همَّ بعظيمة . ومن عـلامات ذلك أنك ترى لونه متـغيرًا ؛ وترى أوصاله ترعد ؛ وتراه ملتفتًا يمينًا وشمـالاً ؛ وتراه يهز قرنيه فعل الذى هم بالنطاح والقتـال . قال الأسد : سـأكون منه على حذر ، وإن رأيت منه مـا يدل على ما ذكرت علمت أن ما في أمره شك .

فلما فرغ دمنة من حمل الأسد على الثـور ، وعَرَفَ أنَّه قد وقع في نفسه ما كان يلتمس ، وأن الأسد سـيتحذر الثور ، ويتهيـأ له ، أراد أن يأتى الثور ليغريه بالأسد ؛ وأحب أن يكون إتيانه من قبل الأسد مخـافة أن يبلغه ذلك فيتأذى به . فقال : أيهـا الملك ألا آتى شتربة فأنظر إلى حاله وأمره ؛ وأسـمع كلامه ؛ لعلي أطلع على سـره ، فأطلـع الملك على ذلك ، وعلى ما يـظهر لي منه ؟ فـأذن له الأسد في ذلك فانطلق فدخل على شتربة كالكئيب الحزين . فلما رآه الثور رحبَ به . وقال : مـا كان سـبب انقطاعُكَ عني ؟ فـإني لم أرك منذ أيام ؛ ولعلك في سلامة ! قـال دمنة : ومتى كان من أهل السـلامة من لا يملك نفسه ، وأمـره بيد غيره ممن لا يوثق به ، ولا ينفك على خطر وخوف ، حتى ما من ساعة تمر ويأمن فيها على نفسه . قال شتـربة : وما الذى حدث ؟ قال دمنة : حدث ما قدر وهو كائن ، ومن ذا الذى غالب القدر ؟ ومن ذا الذى بلغ من الدنيا جسيمًا من الأمور فلم يبطر ؟ ومن ذا الذى بلغ مناه فلم يغتـر ؟ ومن ذا الذى تبع هواه فلم يخسر ؟ ومن ذا الذى طلب من اللئـام فلم يحرم ؟ ومن ذا الذى خـالط الأشرار فـسلم ؟ ومن ذا الذى صـحب السلطان فدام له منه الأمن والإحـسان ؟ قـال شتـربة : إنى أسمع منك كلامًا يدل على أنه قد رابـك من الأسد ريب ، وهالك منه أمر . قال

(١) تهمة .

دمنة : أجل ، لقد رابنى منه ذلك ، وليس هو في أمر نفسي . قال شتربة : ففى نفس من رابك؟ قال دمنة : قد تعلم ما بيني وبينك ، وتعلم حقك عليَّ ، وما كنتُ جعلتُ لك من العهد والميثاق أيام أرسلني الأسد إليك ، فلم أجد بدًا من حفظك وإطلاعك على ما اطلعتُ عليه مما أخاف عليك منه . قال شتربة : وما الذى بلغك ؟ قال دمنة : حدثنى الخبير الصدوق الذى لا مرية في قوله أن الأسد قال لبعض أصحابه وجلسائه : قد أعجبني سمن الثور ؛ وليس لي إلى حياته حاجة ؛ فأنا آكله ومطعم أصحابي من لحمه . فلما بلغني هذا القول ، وعرفت غدره ونقض عهده ؛ أقبلت إليك لأقضي حقك ؛ وتحتال أنت لأمرك ، فلما سمع شتربة كلام دمنة ، وتذكر ما كان دمنة جعل له من العهد والميثاق ، وفكر في أمر الأسد ، ظنَّ أنَّ دمنة قد صدقه ونصح له ؛ ورأى أن الأمر شبيه بما قال دمنة فأهمه ذلك وقال ، ما كان للأسد أن يغدر بي ولم آت إليه ذنبًا ولا إلى أحد من جنده ، منذ صحبته ؛ ولا أظنُّ الأسد إلا قد حُملَ عليَّ بالكذب وشُبِّهَ[1] عليه أمري ، فإن الأسد قد صحبه قوم سوء ؛ وجرب منهم الكذب وأمورًا هى تصدق عنده ما بلغه من غيرهم فإن صحبة الأشرار ربما أورثت صاحبها سوء ظن بالأخيار؛ وحملته تجربته على الخطإ كخطإ البَّطة التى زعموا أنها رأت في الماء ضوء كوكب ، فظنته سمكة ،فحاولت أن تصيدها ؛ فلما جربت ذلك مرارًا ، علمت أنه ليس بشيء يصاد فتركته . ثم رأت من غد ذلك اليوم سمكة ، فظنت أنها مثل الذى رأته بالأمس ، فتركتها ولم تطلب صيدها . فإن كان الأسد بلغه عني كذب فصدقه عليَّ وسمعه فيَّ ، فما جرى على غيري يجرى عليَّ ، وإن كان لم يبلغه شيء ، وأراد السوء بي من غير علة ، فإن ذلك لمن أعجب الأمور. وقد كان يقال : إن من العجب أن يطلب الرجل رضا صاحبه ولا يرضى ، وأعجب من ذلك أن يلتمس رضاه فيسخط ، فإذا كانت الموجِدَة[2] عن عله ، كان

(١) لُبِسَ . (٢) الغضب .

الرضا موجودًا والعفو مأمولاً ، وإذا كانت عن غير علة انقطع الرجاء ؛ لأن العلة إذا كانت الموجدة في ورودها ، كان الرضا مأمولاً في صدورها .

قد نظرت : فلا أعلم بيني وبين الأسد جُرمًا ، ولا صغيرَ ذنب ، ولا كبيره، ولعمري ما يستطيعُ أحد أطال صُحبةَ صاحب أن يحترس في كل شيء من أمره ، ولا أن يتحفظ من أن يكون منه صغيرة أو كبيرة يكرهها صاحبه ؛ ولكن الرجل ذا العقل وذا الوفاء إذا سقط عنده صاحبه سقطة نظر فيها ، وعرف قدر مبلغ خطئه عمدًا كان أو خطأ ، ثم ينظر هل في الصفح عنه أمر يخاف ضرره وشينه ؟ فلا يؤاخذ صاحبه بشيء يجد فيه إلى الصفح عنه سبيلاً ، فإن كان الأسد قد اعتقد عليَّ ذنبًا ، فلست أعلمه ؛ إلا أني خالفته في بعض رأيه نصيحة له ؛ فعساه أن يكون قد أنزل أمرى على الجراءة عليه والمخالفة له ؛ ولا أجد لي في هذا المحضر إثمًا ما لأني لم أخالفه في شيء إلا ما قد ندر من مخالفة الرشد والمنفعة والدين ؛ ولم أجاهر بشيء من ذلك على رؤوس جنده وعند أصحابه ؛ ولكني كنت أخلو به وأكلمه سرًا كلام الهائب الموقر ؛ وعلمت أنه من التمس الرخص[1] من الإخوان عند المشاورة ، ومن الأطباء عند المرض ، ومن الفقهاء عند الشبهة ، أخطأ منافع الرأى ؛ وازداد فيما وقع فيه من ذلك تورطًا[2] وحمل الوزر . وإن لم يكن هذا فعسى أن يكون ذلك من بعض سكرات السلطان فإن مصاحبة السلطان خطرة ، وإن صوحب بالسلامة والثقة والمودة وحسن الصُحبة ، وإن لم يكن هذا ، فبعض ما أوتيتُ من الفضل قد جُعِلَ لي فيه الهلاك . وإن لم يكن هذا ولا هذا ، فهو إذًا من مواقع القضاء والقدر الذى لا يدفع ؛ والقدر هو الذى يسلُبُ الأسد قوته وشدته ، ويدخله القبر ؛ وهو الذى يحمل الرجل الضعيف على ظهر الفيل الهائج وهو الذى يسلط على الحية ذات الحمة من ينزع

---

(١) جمع رخصة وهى التسهيل . (٢) ارتباكًا .

حمتها ويلعب بها ؛ وهو الذي يجعل العاجز حازمًا ، ويثبط[١] الشهم ، ويوسع على المقتر[٢] ، ويشجع الجبان ويجبن الشجاع عندما تعتريه المقادير من العلل التى وضعت عليها الأقدار .

قال دمنة : إن إرادة الأسد بك ليست من تحميل الأشرار ولا سكرة السلطان ولا غير ذلك ، ولكنها الغدر والفجور منه ، فإنه فاجر خوان غدار ، لطعامه حلاوة وآخره سُم مميت .

قال شتربة : فأراني قد استلذذت الحلاوة إذ ذُقتُها وقد انتهيت إلى آخرها الذى هو الموت ؛ ولولا الحينُ[٣] ما كان مقامي عند الأسد ، وهو آكل لحم وأنا آكل عُشب ، فأنا في هذه الورطة كالنحلة التى تجلسُ على النَّيلَوفَر[٤] إذ تستلذ ريحه وطعمه ، فتحبُسها تلك اللذة ؛ فإذا جاء الليل ينضم عليها ، فترتبك فيه وتموت . ومن لم يرض من الدنيا بالكفاف الذى يُغنيه ، وطَمحت[٥] عينه إلى ما سوى ذلك ، ولم يتخوف عاقبتها ، كان كالذباب الذى لا يرضى بالشجرة والرياحين ، ولا يُقنعه ذلك ، حتى يطلب الماء الذى يسيلُ من أذن الفيل ، فيضربه الفيل بآذانه فيهلكه . ومن يبذل وده ونصيحته لمن لا يشكره ، فهو كمن يبذر في السباخ ، ومن يشر على المعجب فهو كمن يشاور الميت أو يسار الأصم .

قال دمنة : دع عنك هذا الكلام واحتل لنفسك .

قال شتربة : بأى شيء أحتال لنفسي ، إذا أراد الأسد أكلي ، مع ما عرفتني من رأى الأسد وسوء أخلاقه ؟ واعلم أنه لو لم يرد بي إلا خيرًا ، ثم أراد أصحابه بمكرهم وفجورهم هلاكي لقدروا على ذلك فإنه إذا اجتمع المكرة الظلمة على البريء الصحيح ، كانوا خُلقاءَ أن يُهلكوه وإن كانوا ضعفاء وهو قوي ؛ كما

---

(١) يعوقه . (٢) الفقير .
(٣) الهلاك والمحنة . (٤) ضرب من الرياحين .
(٣) ارتفعت .

أهلك الذئب والغراب وابن آوى الجمل ، حين اجتمعوا عليه بالمكر والخديعة والخيانة .

قال دمنة : وكيف كان ذلك ؟

قال شتربة : زعموا أن أسدًا كان في أجمة مجاورة لطريق من طرق الناس ؛ وكان له أصحاب ثلاثة : ذئب وغراب وابن آوى ؛ وأن رعاة مروا بذلك الطريق ومعهم جمال فتخلف منها جمل ، فدخل تلك الأجمة حتى انتهى إلى الأسد ، فقال له الأسد : من أين أقبلت ؟ قال : من موضع كذا . قال فما حاجتك ؟ قال: ما يأمرني به الملك . قال : تقيم عندنا في السعة والأمن والخصب ، فأقام الأسد والجمل معه زمنًا طويلاً .

ثم إن الأسد مضى في بعض الأيام لطلب الصيد ، فلقي فيلاً عظيمًا ، فقاتله قتالاً شديدًا ؛ وأفلت منه مثقلاً مثخنًا بالجراح ، يسيل منه الدم ، وقد خدشه الفيل بأنيابه ، فلما وصل إلى مكانه ، وقع لا يستطيع حراكًا ، ولا يقدرُ على طلب الصيد ؛ فلبث الذئب والغراب وابن آوى أيامًا لا يجدون طعامًا ؛ لأنهم كانوا يأكلون من فضلات الأسد وطعامه ؛ فأصابهم جوع شديد وهُزال ، وعرف الأسد ذلك منهم ؛ فقال : لقد جهدتم[1] واحتجتم إلى ما تأكلون . فقالوا: لا تهُمُّنا أنفُسُنا لكنا نرى الملك على ما نراه ، فليتنا نجد ما يأكله ويصلحه. قال الأسد : ما أشك في نصيحتكم، ولكن انتشروا لعلكم تصيبون صيدًا تأتونني به ؛ فيصيبني ويصيبكم منه رزق . فخرج الذئب والغرابُ وابن آوى من عند الأسد ؛ فتنحوا ناحية ، وتشاوروا فيما بينهم . وقالوا : ما لنا ولهذا الآكل العشب الذى ليس شأنه من شأننا ، ولا رأيه من رأينا ؟ ألا نزين للأسد فيأكله ويطعمنا من لحمه ؟ قال ابن آوى : هذا مما لا نستطيع ذكره للأسد ؛ لأنه قد أمَّن الجمل ، وجعل له من ذمته عهدًا . قال الغراب : أنا أكفيكم أمر الأسد.

---

(١) جهد : حصل له مشقة .

ثم انطلق فدخل على الأسد ، فقال له الأسد : هل أصبت شيئًا ؟ قال الغراب : إنما يُصيب من يسعى ويبصر . وأما نحن فلا سعى لنا ولا بصر لما بنا من الجوع ، ولكن قد وفقنا لرأى واجتمعنا عليه ؛ إن وافقنا الملك فنحن له مجيبون . قال الأسد : وما ذاك ؟ قال الغراب : هذا الجمل آكل العشب المتمرغ بيننا من غير منفعة لنا منه ، ولا رد عائدة ، ولا عمل يعقب مصلحة .

فلما سمع الأسد ذلك غضب وقال ما أخطأ رأيك ، وما أعجز مقالك ، وأبعدك من الوفاء والرحمة ! وما كنت حقيقًا أن تجترىء عليّ بهذه المقالة وتستقبلني بهذا الخطاب ؛ مع ما علمت من أني قد أمنتُ الجمل ، وجعلت له من ذمتي ، أولم يبلغك أنه لم يتصدق متصدق بصدقة هى أعظم أجرًا ممن أمن نفسًا خائفة ، وحقن دمًا مهدرًا ، وقد أمنته ولست بغادر به . قال الغراب : إني لأعرف ما يقول الملك ؛ولكن النفس الواحدة يفتدى بها أهل البيت ؛ وأهل البيت تفتدى بهم القبيلة ؛ والقبيلة تفتدى بها أهل المصر ، وأهل المصر فداء الملك . وقد نزلت بالملك الحاجة ؛ وأنا أجعل له من ذمته مخرجًا ، على ألا يتكلف الملك ذلك ، ولا يليه بنفسه ، ولا يأمر به أحدًا ؛ ولكنا نحتال بحيلة لنا وله فيها إصلاح وظفر فسكت الأسد عن جواب الغراب عن هذا الخطاب .

فلما عرف الغراب إقرار الأسد أتى أصحابه ، فقال لهم : قد كلمتُ الأسدَ في أكله الجمل ؛ على أن نجتمع نحن والجمل عند الأسد ، فنذكر ما أصابه ، ونتوجع له اهتمامًا منا بأمره ، وحرصًا على صلاحه ؛ ويَعرض كل واحد منا نفسه عليه تجملاً ليأكله ، فيرد الآخران عليه ، ويسفهان رأيه ، ويبينان الضرر في أكله ، فإذا فعلنا ذلك، سلمنا كلنا ورضى الأسد عنا ، ففعلوا ذلك ، وتقدموا إلى الأسد ؛ فقال الغراب : قد احتجت أيها الملك إلى ما يقويك ، ونحن أحق أن نهب أنفسنا لك ، فإنا بك نعيش ؛ فإذا هلكت فليس لأحد منا بقاء بعدك ، ولا لنا في الحياة من خيرة ؛ فليأكلني الملك ، فقد طبت بذلك نفسًا ، فأجابه

الذئب وابن آوى أن اسكت ؛ فلا خير للملك في أكلك ؛ وليس فيك شبع . قال ابن آوى لكن أنا أشبع الملك ، فليأكني ، فقد رضيت بذلك ، وطبت عنه نفسًا ، فرد عليه الذئب والغراب بقولهما : إنك لمنتن قذر . قال الذئب : إني لست كذلك ، فليأكلني الملك ، فقد سمحت بذلك ، وطبت عنه نفسًا ؛ فاعترضه الغراب وابن آوى وقالا : قد قالت الأطباء : من أراد قتل نفسه فليأكل لحم ذئب، فظن الجمل أنه إذا عرض نفسه على الأكل ، التمسوا له عذرًا ، كما التمس بعضهم لبعض الأعذار ، فيسلم ويرضى الأسد عنه بذلك ، وينجو من المهالك فقال : لكن أنا فيَّ للملك شبع وري ، ولحمي طيب هني ، وبطني نظيف ، فليأكلني الملك ، ويُطعم أصحابه وخدمه فقد رضيت بذلك ، وطابت نفسي عنه، وسمحت به . فقال الذئب والغراب وابن آوى : لقد صدق الجمل وكرم ؛ وقال ما عرف ، ثم إنهم وثبوا عليه فمزقوه .

وإنما ضربت لك هذا المثل لتعلم أنه إن كان أصحاب الأسد قد اجتمعوا على هلاكي ، فإني لست أقدر أن أمتنع منهم ، ولا أحترس ؛ وإن كان رأى الأسد لي على غير ما هم عليه من الرأى في ، فلا ينفعني ذلك ، ولا يغني عنى شيئًا . وقد يقال : خير السلاطين من عدل في الناس ، ولو أن الأسد لم يكن في نفسه لي إلا الخير والرحمة ، لغيرته كثرة الأقاويل فإنها إذا كثرت لم تلبث دون أن تُذهب الرقة والرأفة ، ألا ترى أن الماء ليس كالقول ؛ وأن الحجر أشد من الإنسان، فالماء إذا دام انحداره على الحجر لم يلبث حتى يثقبه ويؤثر فيه ، وكذلك القول في الإنسان ، قال دمنة : فماذا تريد أن تصنع الآن ؟ قال شتربة : ما أرى إلا الاجتهاد والمجاهدة بالقتال : فإنه ليس للمصلي في صلاته ، ولا للمتصدق في صدقته ولا للورع في ورعه من الأجر ما للمجاهد عن نفسه ، إذا كانت مجاهدته على الحق .

قال دمنة : لا ينبغي لأحد أن يخاطر بنفسه ، وهو يستطيع غير ذلك ؛

ولكن ذا الرأى جاعل القتال آخر الحيل ؛ وبادىء قبل ذلك بما استطاع من رفق وتمحل وقد قيل : لا تحقرن العدو الضعيف المهين ولا سيما إذا كان ذا حيلة ويقدر على الأعوان ؛ فكيف بالأسد على جراءته وشدته ؟ فإن من حقر عدوه لضعفه أصابه ما أصاب وكيل البحر من الطِّيطَوَى . قال شتربة : وكيف كان ذلك؟

قال دمنة : زعموا أن طائراً من طيور البحر يقال له الطِيطَوي[1] كان وطنه على ساحل البحر ، ومعه زوجة له فلما جاء أوان تفريخهما قالت الأنثى للذكر : لو التمسنا مكانًا حريزًا نفرخ فيه ؛ فإني أخشى من وكيل البحر إذا مد الماء أن يذهب بفراخنا فقال لها : أفرخي مكانك ؛ فإنه موافق لنا ؛ والماء والزهر منا قريب ، قالت له : يا غافل ليحسُن نظرك ، فإني أخاف وكيل البحر أن يذهب بفراخنا . فقال لها : أفرخي مكانك ، فإنه لا يفعل ذلك . فقالت له : ما أشدَّ تعنتك[2] أما تذكر وعيده وتهدده إياك؟ ألا تعرف نفسك وقدرك؟ فأبى أن يطيعها، فلما أكثرت عليه ولم يسمع قولها قالت له : إن من لم يسمع قول الناصح يصيبه ما أصاب السلحفاة حين لم تسمع قول البطتين . قال الذكر : وكيف كان ذلك ؟

قالت الأنثى : زعموا أن غديراً كان عنده عُشب ، وكان فيه بطتان ؛ وكان في الغدير سُلحفاة ، بينها وبين البطتين مودة وصداقة . فاتفق أن غيض ذلك الماء فجاءت البطتان لوداع السلحفاة ، وقالتا : السلام عليك ، فإننا ذاهبتان عن هذا المكان لأجل نقصان الماء عنه . فقالت : إنما يبين نقصان الماء على مثلي ، فإني كأني السفينة لا أقدر على العيش إلا بالماء ، فأما أنتما فتقدران على العيش حيث كنتما ، فاذهبا بي معكما . قالتا لها : نعم . قالت :كيف السبيل إلى حملي ؟ قالتا : نأخذ بطرفي عود ، وتتعلقين بوسطه ؛ ونطير بك في الجو ، وإياك إذا سمعت الناس يتكلمون أن تنطقي . ثم أخذتاها فطارتا بها في الجو. فقال الناس: عجب سلحفاة بين بطتين ، قد حملتاها ، فلما سمعت ذلك قالت : فقأ الله

---

(١) الطيطوي : ضربٌ من القطا . (٢) التعنت : إدخال المشقة .

أعينكم أيها الناس ، فلما فتحت فاها بالنطق وقعت على الأرض فماتت .

قال الذكر : قد سمعتُ مقالتك ! فلا تخافي وكيل البحر ، فلما مد الماء ذهب بفراخهما . فقالت الأنثى : قد عرفت في بدء الأمر أن هذا كائن . قال الذكر : سوف أنتقم منه ، ثم مضى إلى جماعة الطير فقال لهن : إنكن أخواتي وثقاتي فأعنني ، قلن : ماذا تريد أن نفعل ؟ قال : تجتمعن وتذهبن معي إلى سائر الطير ، فنشكو إليهن ما لقيت من وكيل البحر ؛ ونقول لهن : إنكن طير مثلنا فأعننا ، فقالت له جماعة الطير : إن العنقاء هي سيدتنا وملكتنا فاذهب بنا إليها حتى نصيح بها ، فتظهر لنا ، فنشكو إليها ما نالك من وكيل البحر ؛ ونسألها أن تنتقم لنا منه بقوة مُلكها . ثم إنهن ذهبن إليها مع الطيطَوَى ، فاستغثنها ؛ وصحن بها ، فتراءت لهن فأخبرنها بقصتهن ؛ وسألنها أن تسير معهن إلى محاربة وكيل البحر ، فأجابتهن إلى ذلك ، فلما علم وكيل البحر أن العنقاء قد قصدته في جماعة الطير خاف من محاربة ملك لا طاقة له به ، فرد فراخ الطيطَوَى ؛ وصالحه فرجعت العنقاء عنه .

وإنما حدثتك بهذا الحديث لتعلم أن القتال مع الأسد لا أراه لك رأيًا . قال شتربة : فما أنا بمقاتل الأسد ، ولا ناصب له العداوة سرًا ولا علانية ، ولا متغير له عمّا كنت عليه ، حتى يبدو لي منه ما أتخوف فأغالبه ، فكره دمنة قوله ، وعلم أن الأسد إن لم ير من الثور العلامات التي كان ذكرها له اتهمه وأساء به الظن . فقال دمنة لشتربة : اذهب إلى الأسد فستعرف حين ينظر إليك ما يريد منك . قال شتربة : وكيف أعرف ذلك ؟ قال دمنة : سترى الأسد حين تدخل عليه مُقعيًا على ذنبه ، رافعًا صدره إليك ، مادًا بصره نحوك ، قد صر[1] أذنيه ، وفغر فاه ، واستوى للوثبة . قال شتربة : إن رأيت هذه العلامات من الأسد عرفت صدقك في قولك .

(١) نصبهما للاستماع .

ثم إن دمنة لما فرغ من حمل الأسد على الثور ، والثور على الأسد توجه إلى كليلة فلما التقيا ، قال كليلة : إلامَ انتهى عملك الذى كنت فيه ؟ قال دمنة : قريب من الفراغ على ما أحب وتحب ، ثم إن كليلة ودمنة انطلقا جميعًا ليحضرا قتال الأسد والثور ، وينظرا ما يجرى بينهما ، ويعاينا ما يؤول إليه أمرهما ، وجاء شتربة ، فدخل على الأسد ، فرآه مُقْعِيًا كما وصفه له دمنة ، فقال : ما صاحبُ السلطان إلا كصاحب الحية التى في مبيته ومقيله ، فلا يدرى متى تهيج به، ثم إن الأسد نظر إلى الثور فرأى الدلالات التى ذكرها له دمنة ، فلم يشك أنه جاء لقتاله فواثبه ، ونشأ بينهما الحرب ، واشتد قتال الثور والأسد ، وطال وسالت بينهما الدماء ، فلما رأى كليلة أن الأسد قد بلغ منه ما قد بلغ . قال لدمنة : أيها الفسل[1] ما أنكر جهلتك وأسوأ عاقبتك في تدبيرك ! قال دمنة : وما ذاك ؟ قال كليلة : جُرح الأسدُ وهلك الثور ، وإن أخرق الخرق من حمل صاحبه على سوء الخلق والمبارزة والقتال ، وهو يجد إلى غير ذلك سبيلاً ، وإن العاقل يدبر الأشياء ويقيسها قبل مباشرتها فما رجا أن يتم له منها أقدم عليه ، وما خاف أن يتعذر عليه منها انحرف عنه ، ولم يلتفت إليه ، وإنى لأخاف عليك عاقبة بغيك هذا فإنك قد أحسنت القول ولم تحسن العمل ، أين معاهدتك إياى أنك لا تضر بالأسد في تدبيرك ؟ وقد قيل : لا خير في القول إلا مع العمل ، ولا في الفقه إلا مع الورع ، ولا في الصدقة إلا مع النية ، ولا في المال إلا مع الجود ، ولا في الصدق إلا مع الوفاء ، ولا في الحياة إلا مع الصحة ، ولا في الأمن إلا مع السرور .

واعلم أن الأدب يذهب عن العاقل الطيش ، ويزيدُ الأحمق طيشًا ؛ كما أن النهار يزيد كل ذى بصر نظرًا ، ويزيد الخُفَّاش سوء النظر .

---

(١) الفسلُ : الرذل الذى لا مروءة له .

وقد أذكرني أمرك شيئًا سمعته ، فإنه يقال : إن السلطان إذا كان صالحًا ، ووزراؤه وزراء سوء ، منعوا خيره ، فلا يقدر أحد أن يدنو منه ، ومثله في ذلك مثلُ الماء الطيب الذى فيه التماسيح ، لا يقدرُ أحد أن يتناوله ، وإن كان إلى الماء محتاجًا ، وأنت يا دمنة أردت ألا يدنو من الأسد أحد سواك ، وهذا أمر لا يصح ولا يتم أبدًا وذلك للمثل المضروب ، إن البحر بأمواجه ، والسلطان بأصحابه ، ومن الحمق الحرص على التماس الإخوان بغير الوفاء لهم، وطلب الآخرة بالرياء، ونفع النفس بضر الغير ، وما عظتي وتأديبي إياك إلا كما قال الرجل للطائر : لا تلتمس تقويم ما لا يستقيم ، ولا تعالج تأديب من لا يتأدب . قال دمنة : وكيف كان ذلك ؟

قال كليلة : زعموا أن جماعة من القردة كانوا سكانًا في جبل ، فالتمسوا في ليلة باردة ذات رياح وأمطار نارًا ، فلم يجدوا ، فرأوا يراعة[1] تطير كأنها شرارة نار ، فظنوها نارًا ، وجمعوا حطبًا كثيرًا فألقوه عليها ، وجعلوا ينفخون طمعًا أن يوقدوا نارًا يصطلون[2] بها من البرد ، وكان قريبًا منهم طائر على شجرة ، ينظرون إليه وينظر إليهم ، وقد رأى ما صنعوا ، فجعل يناديهم ويقول : لا تتعبوا فإن الذى رأيتموه ليس بنار ، فلما طال ذلك عليه عزم على القرب منهم لينهاهم عما هم فيه ، فمر به رجل فعرف ما عزم عليه ، فقال له : لا تلتمس تقويم ما لا يستقيم ، فإن الحجر المانع[3] الذى لا ينقطع لا تجرب عليه السيوف ، والعود الذى لا ينحني لا يعمل منه القوس فلا تتعب ، فأبى الطائر أن يطيعه ، وتقدم إلى القردة ليعرفهم أن اليراعة ليست بنار ، فتناوله بعض القردة فضرب به الأرض فمات ، فهذا مثلي معك في ذلك ، ثم قد غلب عليك الخب[4] والفجور ؛ وهما

---

(١) اليراع : ذباب يطير بالليل كأنه نار .
(٢) يستدفئون .
(٣) الصلد .
(٤) الخداع .

خلتا سوء ، والخب شرهما عاقبة ،ولهذا مثل ، قال دمنة : وما ذلك المثل ؟

قال كليلة : زعـموا أن خبًا[1] ومغفلاً اشتركا في تجـارة وسافرا ، فبينما هما في الطريق ، إذ تخلف المغفل لبعض حـاجته ، فوجد كيسًا فـيه ألف دينار فأخذه فأحس به الخب ، فرجـعا إلى بلدهما ؛ حتى إذا دنوا من المدينة ، قعـدا لاقتسام المال ، فقال المغفل : خذ نصفه وأعطني نصـفه ؛ وكان الخب قد قرر في نفسه أن يذهب بالألف جمـيعه . فقـال له : لا نقتسم فـإن الشركة والمفاوضـة أقرب إلى الصفاء والمخالطة ؛ ولكن آخذُ نفقـة ، وتأخذ مثلها ؛ وندفن الباقي في أصل هذه الشجرة فـهو مكان حريز ، فإذا احـتجنا جئنا أنا وأنت فنأخذ حـاجتنا منه ؛ ولا يعلم بموضعنا أحد ، فأخذا منه يسيرًا ، ودفنا الباقي في أصل دوحة[2] ، ودخـلا البلد ، ثم إن الخب خالف[3] المغفل إلى الدنانير فأخذها وسوى الأرض كما كانت وجاء المغفل بعـد ذلك بأشهر فقال للخب قـد احتجت إلى نفقـة فانطلق بنا نأخذ حاجتنا ؛ فـقام الخب معه وذهبا إلى المكان فـحفرا فلم يجدا شيـئًا . فأقبل الخب على وجهه يلطمه يقول : لا تغتر بصحبة صاحب خالفتني إلى الدنانير فأخذتها ، فجعل المغفل يحلف ويلعن آخذها ولا يزداد الخب إلا شدة في اللطم . وقال : ما أخذها غيـرك ، وهل شعر بها أحد سـواك ؟ ثم طال ذلك بينهما ، فتـرافعا إلى القاضي ، فـاقتص القاضي قصـتهمـا ، فادعى الخب أن المغفل أخذها ، وجـحد المغـفل فقـال للخب : ألك على دعواك بـينة ؟ قال : نعم الشـجرة التى كـانت الدنانيـر عندها تشهـد لي أن المغفل أخـذها ، وكان الخب قد أمـر أباه أن يذهب فيـتوارى في الشجـرة بحيث إذا سئلـت أجاب ، فذهب أبو الخب فـدخل جوف الشجـرة ، ثم إن القاضي لما سمع ذلك مـن الخب أكبره ، وانطلق هو وأصـحابه والخب والمغفل معه ؛ حـتى وافى الشجرة ، فسألها عن الخبـر . فقال الشيخ من

(١) الخب : المفسد الخداع اللئيم .
(٢) شجرة عظيمة .
(٣) قصد الدنانير مخالفًا له .

جوفها : نعم المغفل أخذها فلما سمع القاضي ذلك اشتد تعجبه ، فدعا بحطب وأمر أن تحرق الشجرة فأضرمت حولها النيران ، فاستغاث أبو الخب عند ذلك فأخرج وقد أشرف على الهلاك ، فسأله القاضي عن القصة فأخبره بالخبر ، فأوقع بالخب ضربًا ، وبأبيه صفعًا ، وأركبه مشهورًا[1] ، وغرم الخب الدنانير ، فأخذها وأعطاها المغفل .

وإنما ضربت لك هذا المثل لتعلم أن الخب والخديعة ربما كان صاحبهما هو المغبون ، وإنك يا دمنة جامع للخب والخديعة والفجور ، وإنى أخشى عليك ثمرة عملك ، مع أنك لست بناج من العقوبة ؛ لأنك ذو لونين ولسانين ، وإنما عذوبة ماء الأنهار ما لم تبلغ إلى البحار ، وصلاح أهل البيت ما لم يكن فيهم المفسد ، وإنه لا شيء أشبه بك من الحية ذات اللسانين التى فيها السم ، فإنه قد يجري من لسانك كسمها وإنى لم أزل لذلك السم من لسانك خائفًا ، ولما يحل بك متوقعًا؛ والمفسد بين الإخوان والأصحاب كالحية يربيها الرجل ويطعمها ويمسحها ويكرمها، ثم لا يكون له منها غير اللدغ . وقد يقال : الزم ذا العقل وذا الكرم ، واسترسل إليهما ، وإياك ومفارقتهما ؛ واصحب الصاحب إذا كان عاقلاً كريمًا أو عاقلاً غير كريم ، فالعاقل الكريم كامل ، والعاقل غير الكريم اصحبه ، وإن كان غير محمود الخليقة ، واحذر من سوء أخلاقه وانتفع بعقله ، والكريم غير العاقل الزمه ولا تدع مواصلته ، وإن كنت لا تحمد عقله ، وانتفع بكرمه ، وانفعه بعقلك ؛ والفرار كل الفرار من اللئيم الأحمق ، وإني بالفرار منك لجدير ، وكيف يرجو إخوانك عندك كرمًا وودًا وقد صنعت بملكك الذى أكرمك وشرفك ما صنعت ؟ وإن مثلك مثل التاجر الذى قال : إن أرضًا تأكل جرذانُها[2] مائة منٍّ[3] حديدًا ، ليس بمستنكر على بُزاتها أن تختطف الأفيال ، قال دمنة : وكيف كان ذلك .

---

(١) شهره كشهره أظهره في شنعة .

(٢) من نوع الفيران مفرده جُرَذ .

(٣) المنُّ : رطلان .

قال كليلة : زعموا أنه كان بأرض كذا تاجر ، فأراد الخروج إلى بعض الوجوه لابتغاء الرزق ؛ وكان عنده مائة منٍّ حديدًا ؛ فأودعها رجلاً من إخوانه ، وذهب في وجهه ، ثم قدم بعد ذلك بمدة ؛ فجاء والتمس الحديد ، فقال له : إنه قد أكلته الجرذان ، فقال قد سمعت أنه لا شيء أقطع من أنيابها للحديد ، ففرح الرجل بتصديقه على ما قاله وادعى .

ثم إن التاجر خرج فلقي ابنًا للرجل ، فأخذه وذهب به إلى منزله ، ثم رجع إليه الرجل من الغد فقال له : هل عندك علم بابني ؟ فقال له التاجر : إني لما خرجت من عندك بالأمس ، رأيت بازيًا قد اختطف صبيًا ، ولعله ابنك ، فلطم الرجل على رأسه وقال : يا قوم هل سمعتم أو رأيتم أن البزاة تخطف الصبيان ؟ فقال : نعم . وإن أرضًا تأكل جرذانها مائة منٍّ حديدًا ليس بعجب أن تختطف بزاتها الفيلة ، قال له الرجل : أنا أكلت حديدك وهذا ثمنه ، فاردد علي ابني .

وإنما ضربت لك هذا المثل لتعلم أنك إذا غدرت بصاحبك فلا شك أنك بمن سواه أغدر ، وأنه إذا صاحب أحد صاحبًا وغدر بمن سواه فقد علم صاحبه أنه ليس عنده للمودة موضع فلا شيء أضيع من مودة تمنح من لا وفاء له ، وحباءٍ يصطنع عند من لا شكر له ، وأدب يحمل إلى من لا يتأدب به ولا يسمعه ، وسر يستودع من لا يحفظه فإن صحبة الأخيار تورث الخير ، وصحبة الأشرار تورث الشر كالريح إذا مرت بالطيب حملت طيبًا ، وإذا مرت بالنتن حملت نتنًا ، وقد طال وثقل كلامي عليك ، فانتهى كليلة من كلامه إلى هذا المكان وقد فرغ الأسد من الثور .

ثم فكر في قتله بعد أن قتله وذهب عنه الغضب . وقال : لقد فجعني شتربة بنفسه ؛ وقد كان ذا عقل ورأى وخلق كريم ، ولا أدري لعله كان بريئًا أو مكذوبًا عليه ، فحزن وندم على ما كان منه ، وتبين ذلك في وجهه وبصر به دمنة ، فترك محاورة كليلة ، وتقدم إلى الأسد فقال له : ليهنئك الظفر إذ أهلك الله أعداءك،

فماذا يحزنك أيها الملك ؟ قال : أنا حـزين على عقل شتربة ورأيه وأدبه ! قال له دمنة : لا ترحمه أيـها الملك فإن العاقل لا يرحم من يخـافه ، وإن الرجل الحازم ربما أبغض الرجل وكـرهه ، ثم قربه وأدناه ، لما يعلم عنده من الغنى والـكفاية ، فعل الرجل المتكاره على الدواء الـشنيع رجاء منفعتـه ، وربما أحب الرجل ، وعز عليه ، فأقصاه وأهلكه ، مـخافة ضرره كالذى تلدغه الحية في إصبعـه فيقطعها ، ويتبرأ منها مخافة أن يسـري سمها إلى بدنه ، فرضى الأسد بقول دمنة ، ثم علم بعد ذلك بكذبه وغدره وفجوره فقتله شر قتلة .

**( انقضى باب الأسد والثور ) .**

❊ ❊ ❊

## باب : الفحص عن أمر دمنة

قال دبشليم الملك لبيدبا الفيلسوف : قد حدثتني عن الواشي الماهر المحتال ، كيف يفسد بالنميمة المودة الثابتة بين المتحابين . فحدثني حينئذ بما كان من حال دمنة وما آل أمره إليه بعد قتل شتربة ، وما كان من معاذيره عند الأسد وأصحابه حين راجع الأسد رأيه في الثور ، وتحقق النميمة من دمنة ، وما كانت حجته التي احتج بها .

قال الفيلسوف : أنا وجدت في حديث دمنة أن الأسد حين قتل شتربة ندم على قتله ، وذكر قديم صحبته وجسيم خدمته ، وأنه كان أكرم أصحابه عليه ، وأخصهم منزلة لديه ، وأقربهم وأدناهم إليه ، وكان يواصل له المشورة دون خواصه ، وكان من أخص أصحابه عنده بعد الثور النَّمِرُ . فاتفق أنه أمسى النمر ذات ليلة عند الأسد ؛ فخرج من عنده جوف الليل يريد منزله ، فاجتاز على منزل كليلة ودمنة ، فلما انتهى إلى الباب ، سمع كليلة يعاتب دمنة على ما كان منه ، ويلومه على النميمة واستعمالها ؛ خصوصًا مع الكذب والبهتان في حق الخاصة ، وعرف النمرُ عصيان دمنة وترك القبول له . فوقف يستمع ما يجرى بينهما ؛ فكان فيما قال كليلة لدمنة : لقد ارتكبت مركبًا صعبًا ، ودخلت مدخلاً ضيقًا ، وجنيت على نفسك جناية موبقة ، وعاقبتها وخيمة ، وسوف يكون مصرعك شديدًا ، إذا انكشف للأسد أمرك ، واطلع عليه ، وعرف غدرك ومِحَالك[1] ، وبقيت لا ناصر لك ؛ فيجتمع عليك الهوان والقتل ، مخافة شرك وحذرًا من غوائلك ؛ فلست بمتخذك بعد اليوم خليلاً ، ولا مفشي إليك سرًا ؛ لأن العلماء قد قالوا : تباعد عمن لا رغبة فيه . وأنا جدير بمباعدتك ، والتماس

---

(١) كيدك واحتيالك .

الخلاص لي مما وقع في نفس الأسد من هذا الأمر .

فلما سمع النمر هذا من كلامهما قفل راجعًا ، فدخل على أم الأسد ؛ فأخذ عليها العهود والمواثيق أنها لا تفشي ما يسر إليها ، فعاهدته على ذلك ، فأخبرها بما سمع من كلام كليلة ودمنة ، فلما أصبحت دخلت على الأسد ، فوجدته كئيبًا حزينًا مهمومًا لما ورد عليه من قتل شتربة .

فقالت له : ما هذا الهم الذى قد أخذ منك ، وغلب عليك ؟

قال : يحزنني قتل شتربة ، إذا تذكرت صحبته ومواظبته على خدمتي ، وما كنت أسمع من نصيحته ، وأسكن إليه من مشاورته ، وأقبل من مناصحته .

قالت أم الأسد : إن أشد ما شهد امرؤ على نفسه ، وهذا خطأ عظيم ؛ كيف أقدمت على قتل الثور بلا علم ولا يقين ؟ ولولا ما قالت العلماء في إذاعة الأسرار ، وما فيها من الإثم والشَّنَار[1] ، لذكرت لك وأخبرتك بما علمت .

قال الأسد : إن أقوال العلماء لها وجوه كثيرة ، ومعان مختلفة . وإني لأعلم صواب ما تقولين ، وإن كان عندك رأى فلا تطويه عني ؛ وإن كان قد أسر إليك أحد سرًا فأخبريني به ، وأطلعيني عليه ، وعلى جملة الأمر .

فأخبرته بجميع ما ألقاه إليها النمر من غير أن تخبره باسمه . وقالت : إني لم أجهل قول العلماء في تعظيم العقوبة وتشديدها ، وما يدخل على الرجل من العار في إذاعة الأسرار ؛ ولكني أحببت أن أخبرك بما فيه المصلحة لك ؛ وإن وصل خطؤه وضرره إلى العامة ، فإصرارهم على خيانة الملك مما لا يدفع الشر عنهم ، وبه يحتج السفهاء ، ويستحسنون ما يكون من أعمالهم القبيحة ، وأشد مَعَارِّهم[2] إقدامهم على ذى الحزم .

فلما قضت أم الأسد هذا الكلام ، استدعى أصحابه وجنده فأدخلوا عليه ،

---

(١) الشنار : أقبح العيب والعار .

(٢) المعار : جمع معرة وهى الإثم والخيانة والأذى .

ثم أمر أن يؤتى بدمنة ، فلما وقف بين يدي الأسد ، ورأى ما هو عليه من الحزن والكآبة ، التفت إلى بعض الحاضرين فقال : ما الذى حدث ؟ وما الذى أحزن الملك ؟ فالتفتت أم الأسد إليه وقالت : قد أحزن الملك بقاؤك ولو طرفة عين ؛ ولن يدعك بعد اليوم حيًا .

قال دمنة : ما ترك الأول للآخر شيئًا ؛ لأنه يقال : أشد الناس في توقي الشر، يصيبه الشر قبل المستسلم له ، فلا يكونن الملك وخاصته وجنوده المثل السوء ؛ وقد علمت أنه قد قيل : من صحب الأشرار ، وهو يعلم حالهم ، كان أذاه من نفسه ، ولذلك انقطعت النُسَّاك بأنفسها عن الخلق ، واختارت الوحدة على المخالطة ، وحب العمل لله على حب الدنيا وأهلها ، ومن يجزي بالخير خيرًا وبالإحسان إحسانًا إلا الله ؟ ومن طلب الجزاء على الخير من الناس ، كان حقيقًا أن يحظى بالحرمان ؛ إذ يخطىء الصواب في خلوص العمل لغير الله تعالى وطلب الجزاء من الناس ، وإن أحق ما رغبت فيه رعية الملك هو محاسن الأخلاق ومواقع الصواب وجميل السير ، وقد قالت العلماء : من صدق ما ينبغي أن يكذب ، وكذب ما ينبغي أن يصدق خرج من مصاف العقلاء ، وكان جديرًا بالازدراء ، فينبغي ألا يعجل الملك في أمري بشبهة ، ولست أقول هذا كراهة للموت فإنه وإن كان كريهًا ، لا منجى منه ، وكل حي هالك ، ولو كانت لي مائة نفس وأعلم أن هوى الملك في إتلافهن لَطِبت له بذلك نفسًا .

فقال بعض الجند : لم ينطق بهذا لحبه الملك ، ولكن لخلاص نفسه ، والتماس العذر لها .

فقال له دمنة : ويلك ! وهل عليّ في التماس العذر لنفسي عيب ؟ وهل أحد أقرب إلى الإنسان من نفسه ؟ وإذا لم يلتمس لها العذر ، فلمن يلتمسه ؟ لقد ظهر منك ما لم تكن تملك كتمانه من الحسد والبغضاء ؛ ولقد عرف من سمع منك ذلك أنك لا تحب لأحد خيرًا ؛ وأنك عدو نفسك ، فمن سواها بالأولى ،

فمثلك لا يصلح أن يكون مع البهائم ، فضلاً عن أن يكون مع الملك ، وأن يكون ببابه ، فلما أجابه دمنة بذلك خرج مكتئبًا حزينًا مستحيًا .

فقالت أم الأسد لدمنة : لقد عجبت منك أيها المحتال ، في قلة حيائك ، وكثرة وقاحتك ، وسرعة جوابك لمن كلمك .

قال دمنة : لأنك تنظرين إليّ بعين واحدة ، وتسمعين مني بأذن واحدة ، مع أن شقاوة جدّي قد زوت[1] عني كل شيء ؛ حتى لقد سعوا إلى الملك بالنميمة عليّ ، ولقد صار من بباب الملك لاستخفافهم به ، وطول كرامته إياهم ، وما هم فيه من العيش والنعمة ، لا يدرون في أى وقت ينبغي لهم الكلام ؟ ولا متى يجب عليهم السكوت ؟ قالت : ألا تنظرون إلى هذا الشقى ، مع عظم ذنبه ، كيف يجعل نفسه بريئًا كمن لا ذنب له ؟

قال دمنة : إن الذين يعملون غير أعمالهم ليسوا على شيء ؛ كالذى يضع الرماد موضعًا ينبغي أن يضع فيه الرمل ويستعمل فيه السرجين[2] ؛ والرجل الذى يلبس لباس المرأة ، والمرأة التى تلبس لباس الرجل ، والضيف الذى يقول : أنا رب البيت ، والذى ينطق بين الجماعة بما لا يُسأل عنه ، وإنما الشقي من لا يعرف الأمور ولا أحوال الناس ولا يقدر على دفع الشر عن نفسه ، ولا يستطيع ذلك .

قالت أم الأسد : أتظن أيها الغادر المحتال بقولك هذا أنك تخدع الملك ، ولا يسجنك ؟

قال دمنة : الغادر الذى لا يأمن عدوه مكره ، وإذا استمكن من عدوه قتله على غير ذنب .

قالت أم الأسد : أيها الغادر الكذوب ، أتظن أنك ناج من عاقبة كذبك ؟ وأن محالك هذا ينفعك مع عظم جرمك ؟

---

(١) نحت وأبعدت .

(٢) السرجين بكسر أوله : الزبل .

قال دمنة : الكذوب الذى يقول مـا لم يكن ، ويأتي بما لم يقل ولم يفعل ، وكلامي واضح مبين .

قالت أم الأسد : الـعلماء منكم هم الذين يوضحون أمـره بفصل الخطاب .

ثم نهضت فـخرجت ، فدفع الأسد دمنة إلى القـاضي ، فأمر القاضى بحـبسه ، فألقى في عنقه حبل ، وانطلق به إلى السجن .

فلما انتصف الليل أخبر كليلة أن دمنة في الحبس . فأتاه مستخفيًا ؛ فلما رآه وما هو عليه من ضيق القيود ، وحرج المكان ، بكى ، وقال له : ما وصلت إلى ما وصلت إليه إلا لاستعـمالك الخديعة والمكر ، وإضرابك عن العظة ، ولكن لم يكن لي بُدٌّ فيما مضى من إنذارك والنصيحة لك والمسارعة إليك في خلوص الرغبة فيك ، فإنه لكل مقام مقال ؛ ولكل موضع مجال ، ولو كنت قصرت في عظتك حين كنت في عافية ، لكنت اليوم شـريك في ذنبك ؛ غير أن العجب دخل منك مدخـلاً قهـر رأيك ، وغلب على عقلك ؛ وكنت أضـرب لك الأمثـال كثـيرًا ، وأذكرك قول العلماء . وقد قالت العلماء : إن المحتال يموت قبل أجله .

قال دمنة : قـد عرفت صـدق مقالتك ، وقـد قالت العلمـاء : لا تجزع من العذاب ، إذا وقفت منك على خطيئة ؛ ولأن تعذب في الدنيا بجرمك ، خير من أن تعذب في الآخرة بجهنم مع الإثم .

قال كليلة : قد فهمت كـلامك ؛ ولكن ذنبك عظيم ، وعقاب الأسد شديد أليم ، وكان بقربهمـا في السجن فهد[1] مُعـتَقَل[2] يسمع كلامهما ، ولا يريانه ؛ فعـرف معاتبة كـليلة لدمنة على سوء فعله ، ومـا كان منه ؛ وأن دمنة مقـر بسوء عمله ، وعظيم ذنبه ؛ فحفظ المحاورة بينهما ، وكتمها ليشهد بها إن سئل عنها .

ثم إن كليلة انصرف إلى منزله ودخلت أم الأسد حين أصبحت على الأسد؛

---

(١) نوع من السباع .
(٢) محبوس .

وقالت له : يا سيد الوحوش ، حوشيت[1] أن تنسى ما قلت بالأمس ؛ وأنك أمرت به لوقته ؛ وأرضيت به رب العباد . وقد قالت العلماء : لا ينبغي للإنسان أن يتوانى في الجد للتقوى ؛ بل لا ينبغي أن يدافع عن ذنب الأثيم ، فلما سمع الأسد كلام أمه ، أمر أن يحضر النمر ، وهو صاحب القضاء ، فلما حضر قال له وللجواس العادل : اجلسا في موضع الحكم ، ونـاديا في الجند صغيرهم وكبيرهم أن يحضروا وينظروا في حال دمنة ، ويبحثوا عن شأنه ، ويفحصوا عن ذنبه ، ويثبتوا قوله وعذره في كتب القضاء ؛ وارفعا إليّ ذلك يومًا فيومًا .

فلما سمع ذلك النمر والجواس[2] العادلُ وكان هذا الجواس عم الأسد قالا : سمعًا وطاعة لما أمر الملك ، وخرجا من عنده ؛ فعملا بمقتضى ما أمرهما به ؛ حتى إذا مضى من اليوم الذى جلسوا فيه ثلاث ساعات ، أمر القاضى أن يؤتى بدمنة ؛ فأتي به ، فأوقف بين يديه ، والجماعة حضور ، فلما استقر به المكان نادى سيد الجمع بأعلى صوت : أيها الجمع إنكم قد علمتم أن سيد السباع لم يزل منذ قتل شتربة خائر[3] النفس ، كثير الهم والحزن ، يرى أنه قد قتل شتربة بغير ذنب ؛ وأنه أخذه بكذب دمنة ونميمته ، وهذا القاضي قد أمر أن يجلس مجلس القضاء ، ويبحث عن شأن دمنة ، فمن علم منكم شيئًا في أمر دمنة من خير أو شر ، فليقل ذلك ، وليتكلم به على رؤوس الجمع والأشهاد ، ليكون القضاء في أمره بحسب ذلك ؛ فإذا استوجب القتل فالتثبت في أمره أولى ، والعجلة من الهوى ، ومتابعة الأصحاب على الباطل ذل .

عندها قال القاضي : أيها الجمع اسمعوا قول سيدكم ، ولا تكتموا ما عرفتم من أمره ؛ واحذروا في الستر عليه ثلاث خصال: إحداهن وهى أفضلهن : ألا تزدروا فعله ، ولا تعدوه يسيرًا ، فمن أعظم الخطايا قتل البريء الذى لا ذنب له

(١) نزهت .
(٢) ضعيف .
(٢) الأسد .

بالكذب والنميمة ؛ ومن علم من أمر هذا الكذاب الذى اتهم البريء بكذبه ونميمته شيئًا فستر عليه ، فهو شريكه في الإثم والعقوبة . والثانية : إذا اعترف المذنب بذنبه ، كان أسلم له ، وأحرى بالملك وجنده أن يعفوا عنه ويصفحوا . والثالثة ترك مراعاة أهل الذم والفجور ، وقطع أسباب مواصلاتهم ومودتهم عن الخاصة والعامة ، فمن علم من أمر هذا المحتال شيئًا ، فليتكلم به على رؤوس الأشهاد ممن حضر ، ليكون ذلك حجة عليه ؛ وقد قيل : إنه من كتم شهادة ميت ، ألجم بلجام من نار يوم القيامة ؛ فليقل كل واحد منكم ما علم .

فلما سمع ذلك الجمع كلامه ، أمسكوا عن القول . فقال دمنة : ما يسكتكم؟ تكلموا بما علمتم ؛ واعلموا أن لكل كلمة جوابًا . وقد قالت العلماء : من يشهد بما لم ير ، ويقول ما لا يعلم ، أصابه ما أصاب الطبيب الذى قال لما لا يعلمه : إني أعلمه . قالت الجماعة: وكيف كان ذلك ؟

قال دمنة : زعموا أنه كان في بعض المدن طبيب له رفق وعلم ؛ وكان ذا فطنة فيما يجري على يديه من المعالجات ، فَكَبِرَ ذلك الطبيب وضعف بصره . وكان لملك تلك المدينة ابنة قد زوجها لابن أخ له ؛ فعرض لها ما يعرض للحوامل من الأوجاع ، فجيء بهذا الطبيب ؛ فلما حضر ، سأل الجارية عن وجعها وما تجد ، فأخبرته ، فعرف داءها ودواءها ؛ وقال : لو كنت أبصر ، لجمعت الأخلاط على معرفتي بأجناسها ؛ ولا أثق في ذلك بأحد غيرى ، وكان في المدينة رجل سفيه ، فبلغه الخبر ، فأتاهم وادعى علم الطب ، وأعلمهم أنه خبير بمعرفة أخلاط الأدوية والعقاقير[1] ، عارف بطبائع الأدوية المركبة والمفردة ؛ فأمره الملك أن يدخل خزانة الأدوية ، فيأخذ من أخلاط الدواء حاجته ؛ فلما دخل السفيه الخزانة ، وعرضت عليه الأدوية ، ولا يدرى ما هي ، ولا له بها معرفة ، أخذ في جملة ما أخذ منها صرة فيها سم قاتل لوقته ، وخلطه في الأدوية ، ولا علم

(١) مفرده عقّار .

له به ، ولا معرفة عنده بجنسه ، فلما عرف الملك ذلك ، دعا بالسفيه، فسقاه من ذلك الدواء ، فمات من ساعته ، وإنما ضربت لكم هذا المثل لتعلموا ما يدخل على القائل والعامل من الزلة بالشبهة في الخروج عن الحد ؛ فمن خرج منكم عن حده أصابه ما أصاب ذلك الجاهل ، ونفسه الملومة . وقد قالت العلماء : ربما جزى المتكلم بقوله ، والكلام بين أيديكم فانظروا لأنفسكم .

فتكلم سيد الخنازير ، لإدلاله وتيهه بمنزلته عند الأسد ؛ فقال : يا أهل الشرف من العلماء ، اسمعوا مقالتي ، وعوا بأحلامكم كلامي ، فالعلماء قالوا في شأن الصالحين : إنهم يعرفون بسيماهم وأنتم معاشر ذوي الاقتدار ، بحسن صنع الله لكم ، وتمام نعمته لديكم ، تعرفون الصالحين بسيماهم وصورهم ، وتخبرون الشيء الكبير بالشيء الصغير . وهاهنا أشياء كثيرة تدل على هذا الشقي دمنة ، وتخبر عن شره ، فاطلبوها على ظاهر جسمه ، لتستيقنوا وتسكنوا إلى ذلك .

قال القاضي لسيد الخنازير : قد علمت ، وعلم الجماعة الحاضرون ، أنك عارف بما في الصور من علامات السوء ؛ ففسر لنا ما تقول ، وأطلعنا على ما ترى في صورة هذا الشقي .

فأخذ سيد الخنازير يذم دمنة ، وقال : إن العلماء قد كتبوا وأخبروا : أنه من كانت عينه اليسرى أصغر من عينه اليمنى وهي لا تزال تختلج ، وكان أنفه مائلاً إلى جنبه الأيمن ، فهو شقي خبيث .

قال له دمنة : شأنك عجب ، أيها القذر ، دو العلمات الفاضحة القبيحة ، ثم العجب من جراءتك على طعام الملك ، وقيامك بين يديه ، مع ما بجسمك من القذر والقبح ، ومع ما تعرفه أنت ويعرفه غيرك من عيوب نفسك ؛ أفتتكلم في النقي الجسم الذى لا عيب فيه؟ ولست أنا وحدى أطلع على عيبك ؛ لكن جميع من حضر قد عرف ذلك . وقد كان يحجزني عن إظهاره ما بيني وبينك من

الصداقة ، فأما إذ قد كذبت عليَّ وبَهَتّني[1] في وجهي ، وقمت بعداوتي ، فقلت ما قلت في بغير علم على رؤوس الحاضرين ، فإني أقتصر على إظهار ما أعرف من عيوبك ، وتعرف الجماعة ؛ وحق على من عرفك حق معرفتك أن يمنع الملك من استعماله إياك على طعامه فلو كلفت أن تعمل الزراعة لكنت جديرًا بالخذلان فيها ، فالأحرى بك ألا تدنو إلى عمل من الأعمال ، وألا تكون دباغًا ولا حجامًا لعامى فضلاً عن خاص خدمة الملك . قال سيد الخنازير : أتقول لي هذه المقالة ، وتلقاني بهذا الملقى ؟ قال دمنة : نعم ، وحقًا قلت فيك ، وإياك أعني، أيها الأعرج المكسور الأفدع[2] الرجل ، المنفوخ البطن ، الأفلح[3] الشفتين ، السيء المنظر والمخبر .

فلما قال ذلك دمنة ، تغير وجه سيد الخنازير واستعبر[4] واستحى ، وتلجلج لسانه ، واستكان[5] وفتر نشاطه .

فقال دمنة حين رأى انكساره وبكاءه : إنما ينبغي أن يطول بكاؤك إذا اطلع الملك على قذرك وعيوبك فعزلك عن طعامه ، وحال بينك وبين خدمته ، وأبعدك عن حضرته ، ثم إن شغبرًا كان الأسد قد جربه فوجد فيه أمانة وصدقًا ، فرتبه في خدمته ، وأمره أن يحفظ ما يجري بينهم، ويطلعه على ذلك .

فقام الشغبر فدخل على الأسد فحدثه بالحديث كله على جليته ، فأمر الأسد بعزل سيد الخنازير عن عمله ؛ وأمر ألا يدخل عليه ، ولا يرى وجهه ، وأمر بدمنة أن يسجن ، وقد مضى من النهار أكثره ؛ وجميع ما جرى وقالوا وقال قد كتب وختم عليه بخاتم النمر ؛ ورجع كل واحد منهم إلى منزله .

ثم إن شغبرًا يقال له روزبة ، كان بينه وبين كليلة إخاء ومودة ؛ وكان عند

---

(١) قلت عليَّ ما لم أفعل . (٢) الأعوج .
(٣) المشقوق . (٤) جرت عبرته وحزن .
(٥) ذل .

الأسد وجيهًا ، وعليه كريمًا ؛ واتفق أن كليلة أخذه الوجد ؛ إشفاقًا وحذرًا على نفسه وأخيه ، فمرض ومات ؛ فانطلق هذا الشغبر إلى دمنة ، فأخبره بموت كليلة؛ فبكى وحزن ؛ وقال : ما أصنع بالدنيا بعد مفارقة الأخ الصفي ! ولكن أحمد الله تعالى حيث لم يمت كليلة حتى أبقى لي من ذوي قرابتي أخًا مثلك ، فإني قد وثقت بنعمة الله تعالى وإحسانه إليّ فيما رأيت من اهتمامك بي ومراعاتك لي ، وقد علمت أنك رجائي وركني فيما أنا فيه ؛ فأريد من إنعامك أن تنطلق إلى مكان كذا ، فتنظر إلى ما جمعته أنا وأخي بحيلتنا وسعينا ومشيئة الله تعالى ، فتأتيني به ؛ ففعل الشغبر ما أمره به دمنة .

فلما وضع المال بين يديه أعطاه شطره ؛ وقال له : إنك على الدخول والخروج على الأسد أقدر من غيرك ؛ فتفرغ لشأني ، واصرف اهتمامك إليّ ؛ واسمع ما أذكر به عند الأسد ، إذا رفع إليه ما يجرى بيني وبين الخصوم ؛ وما يبدو من أم الأسد في حقي ، وما ترى من متابعة الأسد لها ، ومخالفته إياها في أمري ؛ واحفظ ذلك كله ، فأخذ الشغبر ما أعطاه دمنة وانصرف عنه على هذا العهد ، فانطلق إلى منزله فوضع المال فيه .

ثم إن الأسد بكر من الغد فجلس ، حتى إذا مضى من النهار ساعتان ، استأذن عليه أصحابه ، فأذن لهم ، فدخلوا عليه ، ووضعوا الكتاب بين يديه ، فلما عرف قولهم وقول دمنة دعا أمه فقرأ عليها ذلك .

فلما سمعت ما في الكتاب نادت بأعلى صوتها : إن أنا أغلظت في القول فلا تلمني ، فإنك لست تعرف ضرك من نفعك ، أليس هذا مما كنت أنهاك عن سماعه ؛ لأنه كلام هذا المجرم المسيء إلينا ، الغادر بذمتنا ؟ ثم إنها خرجت مغضبة ، وذلك بعين الشغبر الذى آخاه دمنة وبسمعه ، فخرج في أثرها مسرعًا ، حتى أتى دمنة فحدثه بالحديث ، فبينما هو عنده إذ جاء رسول ، فانطلق بدمنة إلى الجمع عند القاضي .

فلما مثل بين يدى القاضي استفتح سيد المجلس فقال : يا دمنة ، قد أنبأني بخبرك الأمين الصادق ؛ وليس ينبغي لنا أن نفحص عن شأنك أكثر من هذا ؛ لأن العلماء قالوا : إن الله تعالى جعل الدنيا سببًا ومصداقًا للآخرة ؛ لأنها دار الرسل والأنبياء الدالين على الخير الهادين إلى الجنة ، الداعين إلى معرفة الله تعالى . وقد ثبت شأنك عندنا ، وأخبرنا عنك من وثقنا بقوله ؛ إلا أن سيدنا أمرنا بالعود في أمرك ، والفحص عن شأنك ، وإن كان عندنا ظاهرًا بينًا .

قال دمنة : أراك أيها القاضي لم تتعود العدل في القضاء ؛ وليس في عدل الملوك دفع المظلومين ومن لا ذنب له إلى قاض غير عادل ؛ بل المخاصمة عنهم والذود ، فكيف ترى أن أقتل ولم أخاصم ؟ وتعجل ذلك موافقة لهواك ، ولم تمض بعد ذلك ثلاثة أيام ، ولكن صدق الذى قال : إن الذى تعود عمل البر هين عليه عمله ، وإن أضر به .

قال القاضي : إنا نجد في كتب الأولين : إن القاضى ينبغي له أن يعرف عمل المحسن والمسيء ، ليجازي المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته ؛ فإذا ذهب إلى هذا ازداد المحسنون حرصًا على الإحسان والمسيئون اجتنابًا للذنوب ، والرأى لك يا دمنة ، أن تنظر الذى وقعت فيه ، وتعترف بذنبك ، وتقر به ، وتتوب .

فأجابه دمنة : إن صالحي القضاة لا يقطعون بالظن ، ولا يعملون به ، لا في الخاصة ولا في العامة ، لعلمهم أن الظن لا يغني من الحق شيئًا ، وأنتم إن ظننتم أني مجرم فيما فعلت ، فإني أعلم بنفسي منكم ؛ وعلمي بنفسي يقين لا شك فيه ، وعلمكم بي غاية الشك ؛ وإنما قبح أمري عندكم أني سعيت بغيري ، فما عذري عندكم إذا سعيت بنفسي كاذبًا عليها ، فأسلمتها للقتل والعطب ، على معرفة مني ببراءتي وسلامتي مما قُرِفت[1] به ونفسي أعظم الأنفس عليّ حرمة وأوجبها حقًا ، فلو فعلت هذا بأقصاكم وأدناكم ، لما وسعني في ديني ، ولا

(١) اتهمت .

حسن بي في مروءتي ، ولا حق لي أن أفعله ؛ فكيف أفعله بنفسي ؟ فاكفف أيها القاضي عن هذه المقالة ؛ فإنها إن كانت منك نصيحة ،فقد أخطأت موضعها ؛ وإن كانت خديعة ، فإن أقبح الخداع ما نظرته وعرفت أنه من غير أهله ؛ مع أن الخداع والمكر ليسا من أعمال صالحي القضاة ، ولا تُقاة الولاة .

واعلم أن قولك مما يتخذه الجهال والأشرار سنة يقتدون بها ؛ لأن أمور القضاء يأخذ بصوابها أهل الصواب ، وبخطئها أهل الخطأ والباطل والقليلو الورع؛ وأنا خائف عليك أيها القاضي من مقالتك هذه أعظم الرزايا والبلايا ؛ وليس من البلاء والمصيبة أنك لم تزل في نفس الملك والجند والخاصة والعامة فاضلاً في رأيك ، مقنعًا في عدلك ، مرضيًا في حكمك وعفافك وفضلك ؛ وإنما البلاء كيف أنسيت ذلك في أمري .

فلما سمع القاضي ذلك من لفظ دمنة ، نهض فرفعه إلى الأسد على وجهه، فنظر فيه الأسد ، ثم دعا أمه فعرضه عليها ، فقالت حين تدبرت كلام دمنة للأسد : لقد صار اهتمامي بما أتخوف من احتيال دمنة ، بمكره ودهائه ، حتى يقتلك أو يفسد عليك أمرك ، أعظم من اهتمامي بما سلف من ذنبه إليك في الغش والسعاية ، حتى قتلت صديقك بغير ذنب ، فوقع قولها في نفسه ، فقال لها : أخبريني عن الذى أخبرك عن دمنة بما أخبرك ، فيكون حجة لي في قتلي دمنة ، فقالت : إني لأكره أن أفشي سر من استكتمنيه ؛ فلا يَهنِئُني سروري بقتل دمنة إذا تذكرت أني استظهرت عليه بركوب ما نهت عنه العلماء من كشف السر ؛ ولكني أطالب الذى استودعنيه أن يجعلني في حل من ذكره لك ؛ ويقوم هو بعلمه وما سمع منه .

ثم انصرفت وأرسلت إلى النمر ، وذكرت له ما يحق عليه من حسن معاونته الأسد على الحق ، وإخراج نفسه من الشهادة التي لا يكتمها مثله ، مع ما يحق عليه من نصر المظلومين ، وتثبيت حجة الحق في الحياة والممات ؛ فإنه قد قالت

العلماء : من كتم حجة ميت أخطأ حجته يوم القيامة . فلم تزل به حتى قام فدخل على الأسد ، فشهد عنده بما سمع من إقرار دمنة .

فلما شهد النمر بذلك ، أرسل الفهدُ المحبوس الذى سمع إقرار دمنة وحفظه إلى الأسد فقال : إن عندى شهادة ، فأخرجوه ، فشهد على دمنة بما سمع من إقراره .

فقال لهما الأسد : ما منعكما أن تقوما بشهادتكما ، وقد علمتما أمرنا واهتمامنا بالفحص عن أمر دمنة .

فقال كل واحد منهما : قد علمنا أن شهادة الواحد لا توجب حكمًا فكرهنا التعرض لغير ما يمضي به الحكم ؛ حتى إذا شهد أحدنا قام الآخر بشهادته ، فقبل الأسد قولهما ، وأمر بدمنة أن يقتل في حبسه ، فقتل أشنع قتلة .

فمن نظر في هذا فليعلم أن من أراد منفعة نفسه بضر غيره بالخلابة[1] والمكر ، فإنه سيجزى على خِلابَتِه ومكره .

**( انقضى باب الفحص عن أمر دمنة )**

❊ ❊ ❊

(١) الخديعة بلطف القول .

# باب : الحمامة المطوقة

قال دبشليم الملك لبيدبا الفيلسوف : قد سمعت مثل المتحابين كيف قطع بينهما الكذوب ، وإلى ماذا صار عاقبة أمره من بعد ذلك ، فحدثني - إن رأيت - عن إخوان الصفاء كيف يبتدأ تواصلهم ويستمتع بعضهم ببعض ؟

قال الفيلسوف : إن العاقل لا يعدل بالإخوان شيئًا ، فالإخوان هم الأعوان على الخير كله ، والمؤاسون عند ما ينوب من المكروه ، ومن أمثال ذلك مثل الحمامة المطوقة والجرذ والظبي والغراب .

قال الملك : وكيف كان ذلك ؟

قال بيدبا : زعموا أنه كان بأرض سكَاوَندجِينَ ، عند مدينة داهرَ ، مكان كثير الصيد ، ينتابه الصيادون ؛ وكان في ذلك المكان شجرة كثيرة الأغصان ملتفة الورق ، فيها وكر غراب ، فبينما هو ذات يوم ساقط في وكره إذ بصر بصياد قبيحُ المنظر ، سيء الخلق ، على عاتقه شبكة ، وفي يده عصا ، مقبلاً نحو الشجرة ؛ فذعِر[1] منه الغراب ؛ وقال : لقد ساق هذا الرجل إلى هذا المكان ، إما حيني وإما حَين غيري ، فلأثبتن مكاني حتى أنظر ماذا يصنع .

ثم إن الصياد نصب شبكته ، ونثر عليها الحب ، وكَمَنَ[2] قريبًا منها ؛ فلم يلبث إلا قليلاً ، حتى مرت به حمامة يقال لها المطوقة ، وكانت سيدة الحمام ، ومعها حمام كثير ؛ فعميت هي وأصحابها عن الشرك ، فوقعن على الحب يلتقطنه ، فَعَلَقن في الشبكة كلهن ؛ وأقبل الصياد فرحًا مسرورًا ؛ فجعلت كل حمامة تضطرب في حبائلها ، وتلتمس الخلاص لنفسها . قالت المطوقة : لا تخاذلن[3] في المعالجة ، ولا تكن نفس إحداكن أهم إليها من نفس صاحبتها ؛

---

(١) خاف . (٢) توارى .

(٣) لا تتركن مساعدة بعضكن بعضًا .

ولكن نتعاون جميعًا ، فنقلع الشبكة ، فينجو بعضنا ببعض ؛ فقلعن الشبكة جميعهن بتعاونهن ، وعلون في الجو ؛ ولم يقطع الصياد رجاءه منهن وظن أنهن لا يجاوزن إلا قريبًا ويقعن . فقال الغراب : لأتبعهن وأنظر ما يكون منهن . فالتفتت المطوقة فرأت الصياد يتبعهن فقالت للحمام : هذا الصياد مجد في طلبكن؛ فإن نحن أخذنا في الفضاء لم يخف عليه أمرنا ، ولم يزل يتبعنا ؛ وإن نحن توجهنا إلى العمران خفي عليه أمرنا ، وانصرف . وبمكان كذا جرذ هو لي أخ ؛ فلو انتهينا إليه قطع عنا هذا الشرك ، ففعلن ذلك ، وأيس الصياد منهن وانصرف ، وتبعهن الغراب .

فلما انتهت الحمامة المطوقة إلى الجرذ ، أمرت الحمام أن يسقطن ، فوقعن ؛ وكان للجرذ مائة جحر للمخاوف ؛ فنادته المطوقة باسمه ، وكان اسمه زيرك ، فأجابها الجرذ من جحره من أنت ؟ قالت : أنا خليلتك المطوقة ، فأقبل إليها الجرذ يسعى ، فقال لها : ما أوقعك في هذه الورطة ؟ قالت له : ألم تعلم أنه ليس من الخير والشر شيء إلا وهو مقدر على من تصيبه المقادير ، وهي التى أوقعتنى في هذه الورطة[1] فقد لا يمتنع من القدر من هو أقوى مني وأعظم أمرًا ، وقد تنكسف الشمس والقمر إذا قضي ذلك عليهما .

ثم إن الجرذ أخذ في قرض العقد الذى فيه المطوقة . فقالت له المطوقة : ابدأ بقطع عقد سائر الحمام ، وبعد ذلك أقبل على عقدي ، وأعادت ذلك عليه مرارًا، وهو لا يلتفت إلى قولها .

فلما أكثرت عليه القول وكررت ، قال لها : لقد كررت القول عليّ كأنك ليس لك في نفسك حاجة ، ولا لك عليها شفقة ، ولا ترعين لها حقًا . قالت : إني أخاف ، إن أنت بدأت بقطع عقدي ، أن تَمَلَّ وتكسل عن قطع ما بقى ، وعرفت أنك إن بدأت بهن قبلي ، وكنت أنا الأخيرة ، لم ترض ، وإن أدركك

(١) كل أمر تعسر النجاة منه .

الفتور ، أن أبقى في الشرك . قال الجرذ هذا مما يزيد الرغبة والمودة فيك ، ثم إن الجرذ أخذ في قرض الشبكة حتى فرغ منها ، فانطلقت المطوقة وحمامها معها .

فلما رأى الغراب صنع الجرذ ، رغب في مصادقته ؛ فجاء وناداه باسمه ، فأخرج الجرذ رأسه فقال له : ما حاجتك؟ قال: إني أريد مصادقتك. قال الجرذ : ليس بيني وبينك تواصل ؛ وإنما العاقل ينبغي له أن يلتمس ما يجد إليه سبيلاً ، ويترك التماس ما ليس إليه سبيل ؛ فإنما أنت الآكل ، وأنا طعام لك . قال الغراب : إن أكلي إياك ، وإن كنت لي طعامًا ، مما لا يغني عني شيئًا ؛ وإن مودتك آنس لي مما ذكرت ؛ ولست بحقيق ، إذا جئت أطلب مودتك ، أن تردني خائبًا ، فإنه قد ظهر لي منك من حسن الخلق ما رغبني فيك ، وإن لم تكن تلتمس إظهار ذلك ، فإن العاقل لا يخفى فضله ، وإن هو أخفاه كالمسك الذى يكتم ثم لا يمنعه ذلك من النشر الطيب والأرج الفائح .

قال الجرذ : إن أشد العداوة عداوة الجوهر وهى عداوتان : منها ما هو متكافيء كعداوة الفيل والأسد ، فإنه ربما قتل الأسد الفيل أو الفيل الأسد ؛ ومنها ما قوته من أحد الجانبين على الآخر كعداوة ما بيني وبين السِّنَّور وبيني وبينك فإن العداوة التى بيننا ليست تضرك ؛ وإنما ضررها عائد عليّ فإن الماء لو أطيل إسخانه لم يمنعه ذلك من إطفائه النار إذا صب عليها ؛ وإنما مصاحب العدو ومصالحه كصاحب الحية يحملها في كمه ، والعاقل لا يستأنس إلى العدو الأريب .

قال الغراب : قد فهمت ما تقول ، وأنت خليق أن تأخذ بفضل خليقتك ، وتعرف صدق مقالتي ، ولا تصعب عليّ الأمر بقولك ، ليس إلى التواصل بيننا سبيل ، فإن العقلاء الكرام لا يبتغون على معروف جزاء ، والمودة بين الصالحين سريع اتصالها ، بطيء انقطاعها ، ومثل ذلك مثل الكوز من الذهب ، بطيء الانكسار سريع الإعادة ، هين الإصلاح إن أصابه ثلم أو كسر ، والمودة بين الأشرار سريع انقطاعها ، بطيء اتصالها ، ومثل ذلك مثل الكوز من الفخار ،

سريع الانكسار ينكسر من أدنى عيب ، ولا وصل له أبدًا ، والكريم يود الكريم واللئيم لا يود أحدًا إلا عن رغبة أو رهبة ، وأنا إلى ودك ومعروفك محتاج ؛ لأنك كريم ، وأنا ملازم لبابك ، غير ذائق طعامًا حتى تؤاخيني .

قال الجرذ : قد قبلت إخاءك فإني لم أردد أحدًا عن حاجة قط ؛ وإنما بدأتك بما بدأتك به إرادة التوثق لنفسي ؛ فإن أنت غدرت بي لم تقل : إني وجدت الجرذ سريع الانخداع ، ثم خرج من جحره ، فوقف عند الباب .

فقال له الغراب : ما يمنعك من الخروج إلي ، والاستئناس بي ؟ فهل في نفسك بعد ذلك مني ريبة ؟

قال الجرذ : إن أهل الدنيا يتعاطون فيما بينهم أمرين ، ويتواصلون عليهما ، وهما ذات النفس ، وذات اليد ، فالمتباذلون ذات النفس هم الأصفياء ؛ وأما المتباذلون ذات اليد فهم المتعاونون الذين يلتمس بعضهم الانتفاع ببعض ، ومن كان يصنع المعروف لبعض منافع الدنيا ، فإنما مثله فيما يبذل ويعطى كمثل الصياد وإلقائه الحب للطير ، لا يريد بذلك نفع الطير ، وإنما يريد نفع نفسه ، فتعاطى ذات النفس أفضل من تعاطى ذات اليد ، وإني وثقت منك بذات نفسك ، ومنحتك من نفسي مثل ذلك ، وليس يمنعني من الخروج إليك سوء ظن بك ، ولكن قد عرفت أن لك أصحابًا جوهرهم كجوهرك ، وليس رأيهم في كرأيك .

قال الغراب : إن من علامة الصديق أن يكون لصديق صديقه صديقًا ، ولعدو صديقه عدوًا ، وليس لي بصاحب ولا صديق من لا يكون لك محبًا ؛ وإنه يهون عليّ قطيعة من كان كذلك من جوهري ، ثم إن الجرذ خرج إلى الغراب ، فتصافحا وتصافيا ، وأنس كل واحد منهما بصاحبه ؛ حتى إذا مضت لهم أيام قال الغراب للجرذ : إن جحرك قريب من طريق الناس ، وأخاف أن يرميك بعض الصبيان بحجر؛ ولي مكان في عزلة، ولي فيه صديق من السلاحف وهو مخصب من السمك ؛ ونحن واجدون هناك ما نأكل فأريد أن أنطلق بك إلى

هناك لنعيش آمنين ، قال الجرذ : إن لي أخبارًا وقصصًا سأقصها عليك إذا انتهينا حيث تريد ، فافعل ما تشاء فأخذ الغراب بذنب الجرذ ، وطار به حتى بلغ به حيث أراد . فلما دنا من العين التى فيها السُّلحفاة ، بصرت السلحفاة بغراب ومعه جرذ ، فذعرت منه ، ولم تعلم أنه صاحبها فناداها فخرجت إليه ، وسألته من أين أقبلت ؟ فأخبرها بقصته حين تبع الحمام ، وما كان من أمره وأمر الجرذ حتى انتهى إليها ، فلما سمعت السلحفاة شأن الجرذ ، عجبت من عقله ووفائه ، ورحبت به ، وقالت له : ما ساقك إلى هذه الأرض ؟ قال الغراب للجرذ : اقصص عليّ الأخبار التى زعمت أنك تحدثني بها ، فأخبرني بها مع جواب ما سألت السلحفاة فإنها عندك بمنزلتي .

فبدأ الجرذ وقال : كان منزلي أول أمرى بمدينة ماروت في بيت رجل ناسك، وكان خاليًا من الأهل والعيال ؛ وكان يؤتى في كل يوم بسلَّة من الطعام فيأكل منها حاجته ويعلق الباقي ؛ وكنت أرصد الناسك ، حتى يخرج وأثب إلى السلة، فلا أدع فيها طعامًا إلا أكلته ، وأرمي به إلى الجرذان ، فجهد الناسك مرارًا أن يعلق السلة مكانًا لا أناله فلم يقدر على ذلك؛ حتى نزل به ذات ليلة ضيف ، فأكلا جميعًا ؛ ثم أخذا في الحديث .

فقال الناسك للضيف : من أى أرض أقبلت ؟ وأين تريد الآن ؟ وكان الرجل قد جاب الآفاق ، ورأى عجائب فأنشأ يحدث الناسك عما وطىء من البلاد ، ورأى من العجائب وجعل الناسك خلال ذلك يصفق بيديه ، ليُنَفّرني عن السلة ؛ فغضب الضيف وقال : أنا أحدثك وأنت تهزأ بحديثي ! فما حملك على أن سألتني ؟ فاعتذر إليه الناسك ، وقال : إنما أصفق بيدي لأنفر جرذًا قد تحيرت في أمره ، ولست أضع في البيت شيئًا إلا أكله ، فقال الضيف : جرذ واحد يفعل ذلك أم جرذان كثيرة ؟ فقال الناسك : جرذان البيت كثيرة ، ولكن فيها جرذ واحد هو الذى غلبني ، فما أستطيع له حيلة . قال الضيف : لقد ذكرتني

قول الذى قـال : لأمر ما باعت هذه المرأة سمـسمًا مقشـوراً بغير مقـشور ! قال الناسك : وكيف كان ذلك ؟

قال الضـيف : نزلت مرة على رجل بمكـان كذا ، فتـعشينـا ثم فرش لي ، وانقلب الرجل على فراشه ، فـسمعته يقـول في آخر الليل لامرأته : إني أريد أن أدعو غداً رهطًا ليأكلوا عندنا ، فاصنعي لهم طعـامًا . فقالت المرأة : كيف تدعو الناس إلى طعامك ، وليس في بيتك فضل عن عيالك ؟ وأنت رجل لا تبقي شيئًا ولا تدخره . قـال الرجل : لا تندمي على شيء أطعـمناه وأنفقناه ، فـإن الجمع والادخار ربما كانت عاقبته كعاقبة الذئب ، قالت المرأة : وكيف كان ذلك ؟

قال الرجل : زعموا أنه خرج ذات يوم رجل قانص ، ومعه قوسه ونُشَّابه[1] فلم يجاوز غير بعيد ، حتى رمى ظبيًا ، فحمله ورجع طالبًا منزله فاعترضه خنزير بري فرماه بنشابة نفذت فيـه ، فأدركه الخنزير وضربه بأنيابه ضربة أطارت من يده القوس ، ووقـعا ميتين ؛ فـأتى عليهم ذئب فقـال : هذا الرجل والظبي والخنزير يكفـيني أكلهم مدة ؛ ولكن أبدًا بهـذا الوتر فآكله ، يكـون قوت يومي ، فـعالج الوتر حتى قطعه ؛ فلما انقطع طارت سِيَةُ[2] القوس ، فضربت حلقه فمات .

وإنما ضربت لكِ هذا المثل لتعلمي أن الجمع والادخار وخيم العاقبة ، فقالت المرأة : نعم ما قلت ! وعندنا من الأرز والسمسم ما يكفي ستة نفر أو سبعة ، فأنا غادية على اصطناع الطعام فادع من أحببت ، وأخذت المرأة حين أصبحت سمسمًا فقشرته وبسطته في الشمس ليجف؛ وقالت لغلام لهم: اطرد عنه الطير والكلاب؛ وتفرغت المرأة لصنعها ؛ وتغافل الغلام عن السمسم ؛ فجاء كلب ، فعاث[3] فيه؛ فاستـقـذرته المرأة ، وكرهت أن تصنع منه طعـامًا ما ؛ فذهبت بـه إلى السوق ، فأخذت به مـقايضة سمسمًا غـير مقشور : مـثلاً بمثل ، وأنا واقف في السوق .

---

(١) جمع نُشَّابة وهى السهم .
(٢) طرفها .  (٣) أفسده .

فقال رجل : لأمر ما باعت هذه المرأة سمسمًا مقشورًا بغير مقشور ، وكذلك قولي في هذا الجرذ الذى ذكرت أنه على غير علة ما يقدر على ما شكوت منه ، فالتمس لي فأسًا لعلي أحتفر جحره فاطلع على بعض شأنه ! فاستعار الناسك من بعض جيرانه فأسًا ، فأتى بها الضيف ؛ وأنا حينئذ في جحر غير جحري ، أسمع كلامهما ، وفي جحري كيس فيها مائة دينار ، لا أدري من وضعها فاحتفر الضيف حتى انتهى إلى الدنانير فأخذها وقال للناسك : ما كان هذا الجرذ يقوى على الوثوب حيث كان يثب إلا بهذه الدنانير : فإن المال جعل له قوة وزيادة في الرأى والتمكن ، وسترى بعد هذا أنه لا يقدر على الوثوب حيث كان يثب .

فلما كان من الغد اجتمع الجرذان التى كانت معي فقالت : قد أصابنا الجوع، وأنت رجاؤنا ، فانطلقت ومعي الجرذان إلى المكان الذى كنت أثب منه إلى السلة، فحاولت ذلك مرارًا فلم أقدر عليه ، فاستبان للجرذان نقص حالي ، فسمعتهن يقلن : انصرفن عنه ، ولا تطمعن فيما عنده فإنا نرى له حالاً لا نحسبه إلا قد احتاج معها إلى من يعوله فتركنني ولحقن بأعدائي وجفونني ، وأخذن في غيبتي عند من يعاديني ويحسدني فقلت في نفسي : ما الإخوان ولا الأعوان ولا الأصدقاء إلا بالمال .

ووجدت من لا مال له ، إذا أراد أمرًا ، قعد به العدم عما يريده كالماء الذى يبقى في الأودية من مطر الشتاء لا يمر إلى نهر ، ولا يجرى إلى مكان ، فتشربه أرضه .

ووجدت من لا إخوان له لا أهل له ، ومن لا ولد له لا ذكر له ، ومن لا مال له لا عقل له ، ولا دنيا ولا آخرة له ؛ لأن الرجل إذا افتقر قطعه أقاربه وإخوانه فإن الشجرة النابتة في السباخ ، المأكولة من كل جانب ، كحال الفقير المحتاج إلى ما في أيدى الناس .

ووجدت الفقر رأس كل بلاء، وجالبًا إلى صاحبه كل مقت ومعدن النميمة .

ووجدت الرجل إذا افتقر اتهمه من كان له مؤتمنًا ، وأساء به الظن من كان يظن فيه حسنًا ، فإن أذنب غيره كان هو للتهمة موضعًا .

وليس من خلَّة هى للغنى مدح إلا وهى للفقير ذم ، فإن كان شجاعًا قيل : أهوج ؛ وإن كان جوادًا سمى مبذرًا ؛ وإن كان حليمًا سمى ضعيفًا ؛ وإن كان وقورًا سمى بليدًا . فالموت أهون من الحاجة التى تحوج صاحبها إلى المسألة ، ولا سيما مسألة الأشحاء واللئام فإن الكريم لو كلف أن يدخل يده في فم الأفعى ، فيخرج منه سمًا فيبتلعه ، كان ذلك أهون عليه ، وأحب إليه من مسألة البخيل اللئيم ، وقد كنت رأيت الضيف حين أخذ الدنانير فقاسمها الناسك ، فجعل الناسك نصيبه في خريطة عند رأسه لما جن الليل ، فطمعت أن أصيب منها شيئًا فأرده إلى جحرى ، ورجوت أن يزيد ذلك في قوتي ، ويراجعنى بسببه بعض أصدقائي ، فانطلقت إلى الناسك وهو نائم ، حتى انتهيت عند رأسه ، ووجدت الضيف يقظان ، وبيده قضيب فضربني على رأسي ضربة موجعة فسعيت إلى جحرى ، فلما سكن عني الألم ، هيجنى الحرص والشره فخرجت طمعًا كطمعى الأول ، وإذا الضيف يرصدني ، فضربني ضربة أسالت مني الدم ، فتقلبت ظهرًا لبطن إلى جحرى فخررت مغشيًا عليّ ، فأصابني من الوجع ما بغض إليّ المال ، حتى لا أسمع بذكره إلا تداخلني من ذكر المال رعدة وهيبة ، ثم تذكرت فوجدت البلاء في الدنيا إنما يسوقه الحرص والشره ، ولا يزال صاحب الدنيا في بلية وتعب ونصب ؛ ووجدت تَجَشُّم[1] الأسفار البعيدة في طلب الدنيا أهون علي من بسط اليد إلى السخي بالمال ؛ ولم أر كالرضا شيئًا ، فصار أمري إلى أن رضيت وقنعت وانتقلت من بيت الناسك إلى البرية وكان لي صديق من الحمام ، فسيقت إلي بصداقته صداقة . ثم ذكر لي الغراب ما بينك وبينه من المودة وأخبرني أنه يريد

---

(١) تكلف الأمر على مشقة .

إتيانك ، فأحببت أن آتيك معه ، فكرهت الوحدة ، فإنه لا شيء من سرور الدنيا يعدل صحبة الإخوان ، ولا غم فيها يعدل البعد عنهم ، وجربت فعلمت أنه لا ينبغي للعاقل أن يلتمس من الدنيا غير الكفاف الذى يدفع به الأذى عن نفسه ، وهو اليسير من المطعم والمشرب ، إذا اشتمل على صحة البدن ورفاهة البال ، ولو أن رجلاً وهبت له الدنيا بما فيها ، لم يك ينتفع من ذلك إلا بالقليل الذى يدفع به عن نفسه الحاجة ، فأقبلت مع الغراب إليك على هذا الرأى ، وأنا لك أخ ، فلتكن منزلتي عندك كذلك .

فلما فرغ الجرذ من كلامه أجابته السلحفاة بكلام رقيق عذب ، وقالت : قد سمعت كلامك ، وما أحسن ما تحدثت به ! إلا أني رأيتك تذكر بقايا أمور هي في نفسك ، واعلم أن حسن الكلام لا يتم إلا بحسن العمل ، وأن المريض الذى قد علم دواء مرضه إن لم يتداو به ، لم يغن علمه به شيئًا ، ولم يجد لدائه راحة ولا خفة ، فاستعمل رأيك ، ولا تحزن لقلة المال ؛ فإن الرجل ذا المروءة قد يكرم على غير مال ، كالأسد الذى يهاب ، وإن كان رابضًا ؛ والغنى الذى لا مروءة له يهان، وإن كان كثير المال ، كالكلب لا يحفل به، وإن طوق وخُلْخل[1] بالذهب ، فلا تكبرن عليك غربتك فإن العاقل لا غربة له كالأسد الذى لا ينقلب إلا معه قوته ، فلتحسن تعاهدك لنفسك ، فإنك إذا فعلت ذلك جاءك الخير يطلبك كما يطلب الماء انحداره ، وإنما جعل الفضل للحازم البصير بالأمور ؛ وأما الكسلان المتردد فإن الفضل لا يصحبه ، وقد قيل في أشياء ليس لها ثبات ولا بقاء ، ظل الغمامة في الصيف ، وخُلّة الأشرار ، والبناء على غير أساس ، والمال الكثير ، فالعاقل لا يحزن لقلته ، وإنما مال العاقل عقله ، وما قدم من صالح عمله ، فهو

---

(١) يمكن أن يكون مأخوذًا من المُخلخل وهو موضع الخلخال وإلا فإن كلمة خلخل لم ترد صريحًا إلا في معنى خلخل العظم أخذ ما عليه من اللحم . والمخلخل مشتق فهو يشعر بأن له فعلاً وإن لم تذكره المعاجم لأنها لا تعرض للقياس أو هو مما أميت من الكلم .

واثق بأنه لا يسلب ما عمل ، ولا يؤاخذ بشيء لم يعمله ؛ وهو خليق ألا يغفل عن أمر آخرته ، فإن الموت لا يأتي إلا بغتة ، ليس له وقت معين وأنت عن موعظتي غني بما عندك من العلم ، ولكن رأيت أن أقضي ما لك من حق قبلنا ، لأنك أخونا ، وما عندنا من النصح مبذول لك .

فلما سمع الغراب كلام السلحفاة للجرذ ، وردها عليه ، وملاطفتها إياه فرح بذلك . وقال : لقد سررتني ، وأنعمت علي ، وأنت جديرة أن تسري نفسك بمثل ما سررتني به ، وإن أولى أهل الدنيا بشدة السرور من لا يزال ربعه من إخوانه وأصدقائه من الصالحين معمورًا ، ولا يزال عنده منهم جماعة يسرهم ويسرونه ، ويكون من وراء أمورهم وحاجاتهم بالمرصاد فإن الكريم إذا عثر لا يأخذ بيده إلا الكرام ، كالفيل إذا وحل لا تخرجه إلا الفيلة .

فبينما الغراب في كلامه، إذ أقبل نحوهم ظبي يسعى فذُعِرَت منه السلحفاة، فغاصت في الماء ، وخرج الجرذ إلى جحره ، وطار الغراب ، فوقع على شجرة ، ثم إن الغراب حَلَّق في السماء لينظر هل للظبي طالب ؟ فنظر فلم ير شيئًا فنادى الجرذ والسلحفاة ، وخرجا ؛ فقالت السلحفاة للظبي ، حين رأته ينظر إلى الماء : اشرب إن كان بك عطش ، ولا تخف فإنه لا خوف عليك ، فدنا الظبي ، فرحبت به السلحفاة وحيته ، وقالت له : من أين أقبلت ؟ قال : كنت أسنح[1] بهذه الصحارى فلم تزل الأساورة[2] تطردني من مكان إلى مكان حتى رأيت اليوم شبحًا ، فخفت أن يكون قانصًا. قالت : لا تخف، فإنا لم نر هاهنا قانصًا قط ، ونحن نبذل لك ودنا ومكاننا ، والماء والمرعى كثيران عندنا فارغب في صحبتنا فأقام الظبي معهم وكان لهم عريش[3] يجتمعون فيه ، ويتذاكرون الأحاديث

---

(١) السانح من الصيد: ما مر من المياسر إلى الميامن والبارح ضده. والمراد هنا مطلق الرتوع .
(٢) جمع أسوار وهو الرامي بالسهام .
(٣) مكان يستظل به .

والأخبار، فبينما الغـراب والجرذ والسلحفاة ذات يوم في العريش ، غاب الظبي ، فتوقعوه ساعة فلم يأت فلما أبطأ أشفقوا[١] أن يكون قد أصابه عَنَت[٢] فقال الجرذ والسلحفـاة للغراب : انظر هل ترى مما يلينا شيـئًا ؟ فحلق الغراب في السـماء ، فنظر فإذا الظبي في الحـبائل مقتنصًا ، فانقض مـسرعًا فأخبرهمـا بذلك ، فقالت السلحفـاة والغراب للجرذ : هذا أمـر لا يرجى فيه غـيرك ، فأغث أخاك فـسعى الجرذ مـسرعًا فـأتى الظبي ، فقـال له : كيف وقـعت في هذه الورطة وأنت من الأكـيـاس[٣] ؟! قال الظبي : هل يغنى الكيس مع المقـادير شيئًا ؟ فبـينما هما في الحديث إذ وافـتهمـا السلحفاة ، فـقال لها الظبي : مـا أصبت بمجيئك إلينا فإن القانص لو انتهى إلينا وقد قطع الجـرذ الحبائل استبقته عدوًا وللجرذ أجـحار كثيرة والغراب يـطير وأنت ثقيـلة لا سعى لك ولا حـركة ، وأخاف عليك الـقانص . قالت : لا عـيش مع فراق الأحبة ، وإذا فـارق الأليف أليفه فقـد سلب فؤاده ، وحرم سروره ، وغـشى بصره فلم ينته كلامهـا حتى وافى القانص ، ووافق ذلك فراغ الجـرذ من قطع الشرك فنجـا الظبي بنفـسه ، وطار الغراب مـحلقًا ، ودخل الجرذ بعض الأجحار ، ولم يبق غير السلحفاة ، ودنا الصـياد فوجد حُبالته مقطعة فنظر يمينًا وشـمالاً فلم يجـد غير السـلحفاة تَدِبُّ فـأخذها وربطهـا ، فلم يلبث الغراب والجـرذ والظبي أن اجتمـعوا فنظروا القانص قد ربـط السلحفاة ، فاشـتد حزنهم ، وقـال الجرذ : ما أرانا نجاوز عقـبة من البلاء إلا صرنا في أشـد منها ، ولقد صدق الـذى قال : لا يزال الإنسان مسـتمرًا في إقبالـه ما لم يعثر فـإذا عثر لـج[٤] به العثـار ، وإن مشى في جَدَد[٥] الأرض ، وحذري على السلحفـاة خير الأصدقاء التـى خُلَّتها[٦] ليست للمجازاة ولا لالتـماس مكافأة ولكنها خلة الكرم

---

(١) خافوا . (٢) وقوع في أمر شاق .
(٣) جمع كيس وهو الفطن الظريف . (٤) تمادى .
(٥) الأرض الغليظة المستوية . (٦) الخلة : الصداقة .

والشرف ، خلة هى أفضل من خلة الوالد لولده ، خلة لا يزيلها إلا الموت ، ويح لهذا الجسد الموكل به البلاء الذى لا يزال في تصرف وتقلب ، ولا يدوم له شيء، ولا يلبث معه أمر كما لا يدوم للطالع من النجوم طلوع ، ولا للآفل منها أفول ، لكن لا يزال الطالع منها آفلاً ، والآفل طالعًا ، وكما تكون آلام الكلوم[١] وانتقاض الجراحات كذلك من قرحت كلومه بفقد إخوانه بعد اجتماعه بهم . فقال الظبي والغراب للجرذ : إن حذرنا وحذرك وكلامك وإن كان بليغًا ، كل منها لا يغني عن السلحفاة شيئًا ، وإنه كما يقال : إنما يختبر الناس عند البلاء ، وذو الأمانة عند الأخذ والعطاء ، والأهل والولد عند الفاقة كذلك تختبر الإخوان عند النوائب . قال الجرذ : أرى من الحيلة أن تذهب أيها الظبي ، فتقع بمنظر من القانص ، كأنك جريح ، ويقع الغراب عليك كأنه يأكل منك ، وأسعى أنا فأكون قريبًا من القانص مراقبًا له ، لعله أن يرمى ما معه من الآلة ، ويضع السلحفاة ويقصدك طامعًا فيك ، راجيًا تحصيلك فإذا دنا منك ففر عنه رويدًا بحيث لا ينقطع طمعه منك ، ومكنه من أخذك مرة بعد مرة حتى يبعد عنا وانح منه هذا النحو ما استطعت فإنى أرجو ألا ينصرف إلا وقد قطعت الحبائل عن السلحفاة ، وأنجو بها ففعل الغراب والظبي ما أمرهما به الجرذ وتبعهما القانص ، فاستجره الظبي ، حتى أبعده عن الجرذ والسلحفاة والجرذ مقبل على قطع الحبائل ، حتى قطعها ونجا بالسلحفاة وعاد القانص مجهودًا لاغبًا[٢] فوجد حبالته مقطعة ففكر في أمره مع الظبي المتظلع[٣] ، فظن أنه خولط في عقله ، وفكر في أمر الظبي والغراب الذى كأنه يأكل منه ، وقرض حبالته ، فاستوحش من الأرض وقال : هذه أرض جن أو سحرة ، فرجع موليًا لا يلتمس شيئًا ، ولا يلتفت إليه واجتمع

(١) جمع كلم وهو الجرح .
(٢) تعبًا .
(٣) المتظاهر بالظَّلَع وهو مشي شبيه بالعرج .

الغراب والظبي والجرذ والسلحفاة إلى عريشهم سالمين آمنين كأحسن ما كانوا عليه .
فإذا كان هذا الخلق مع صغره وضعفه قد قدر على التخلص من مرابط الهلكة مرة بعد أخرى بمودته وخلوصها ، وثبات قلبه عليها ، واستمتاعه مع أصحابه بعضهم ببعض ، فالإنسان الذى قد أعطى العقل والفهم ، وألهم الخير والشر ، ومنح التمييز والمعرفة ، أولى وأحرى بالتواصل والتعاضد ، فهذا مثل إخوان الصفاء وائتلافهم في الصحبة .

**( انقضى باب الحمامة المطوقة )**

❋ ❋ ❋

## باب : البوم والغربان

قال دبشليم الملك لبيدبا الفيلسوف: قد سمعت مثل إخوان الصفاء وتعاونهم، فاضرب لي مثل العدو الذى لا ينبغي أن يغتر به ، وإن أظهر تضرعًا وملقًا .

قال الفيلسوف : من اغتر بالعدو الذى لم يزل عدوًا ، أصابه ما أصاب البوم من الغربان .

قال الملك : وكيف كان ذلك ؟

قال بيدبا : زعموا أنه كان في جبل من الجبال شجرة من شجر الدوح[1] ، فيها وكر ألف غراب ، وعليهن والٍ من أنفسهن ؛ وكان عند هذه الشجرة كهف فيه ألف بومة، وعليهن والٍ منهن ، فخرج ملك البوم لبعض غُدُواته[2] وروحاته. وفي نفسه العداوة لملك الغربان ؛ وفي نفس الغربان وملكها مثل ذلك للبوم .

فأغار ملك البوم في أصحابه على الغربان في أوكارها ، فقتل وسبى منها خلقًا كثيرًا ، وكانت الغارة ليلاً ؛ فلما أصبحت الغربان اجتمعت إلى ملكها فقلن له : قد علمت ما لقينا الليلة من ملك البوم ، وما منا إلا من أصبح قتيلاً ، أو جريحًا، أو مكسور الجناح ، أو منتوف الريش ، أو مقطوف الذنب ، وأشد مما أصابنا ضرًا علينا جراءتهن علينا ، وعلمهن بمكاننا ، وهن عائدات إلينا ، غير منقطعات عنا ، لعلمهن بمكاننا ، فإنما نحن لك ، ولك الرأى أيها الملك ، فانظر لنا ولنفسك .

وكان في الغربان خمسة معترف لهن بحسن الرأى ، يسند إليهن في الأمور،

---

(١) جمع دوحة وهى الشجرة العظيمة .
(٢) جمع غُدوة وهى الذهاب في البُكرة .

ويلقى عليهن أزمة الأحوال ، وكان الملك كثيرًا ما يشاورهن في الأمور ، ويأخذ آراءهن في الحوادث والنوازل .

فقال الملك للأول من الخمسة : ما رأيك في هذا الأمر ؟

قال : رأيي قد سبقتنا إليه العلماء ، وذلك أنهم قالوا : ليس للعدو الحَنِق[١] إلا الهرب منه .

قال الملك للثاني : ما رأيك أنت في هذا الأمر ؟

قال : رأيي ما رأى هذا من الهرب .

قال الملك : لا أرى لكما ذلك رأيًا ، أن نرحل عن أوطاننا ونخليها لعدونا من أول نكبة أصابتنا منه، ولا ينبغي لنا ذلك ؛ ولكن نجمع أمرنا ، ونستعد لعدونا ، ونذكي[٢] نار الحرب فيما بيننا وبين عدونا ، ونحترس من الغرة[٣] إذا أقبل إلينا ، فنلقاه مستعدين ، ونقاتله قتالاً غير مراجعين فيه ، ولا مقصرين عنه؛ وتلقي أطرافنا أطراف العدو ، ونتحرز بحصوننا ، وندافع عدونا بالأناة مرة ، وبالجلاد[٤] أخرى ، حيث نصيب فرصتنا وبغيتنا ، وقد ثنينا عدونا عنا .

ثم قال الملك للثالث : ما رأيك أنت ؟

قال : ما أرى ما قالا رأيًا ، ولكن نبث العيون ، ونبعث الجواسيس ، ونرسل الطلائع بيننا وبين عدونا ؛ فنعلم أيريد صلحنا أم يريد حربنا أم يريد الفدية؟ فإن رأينا أمره أمر طامع في مال ، لم نكره الصلح على خراج نؤديه إليه في كل سنة ، ندفع به عن أنفسنا ، ونطمئن في أوطاننا فإن من آراء الملوك إذا اشتدت شوكة عدوهم ، فخافوه على أنفسهم وبلادهم ، أن يجعلوا الأموال جُنَّة البلاد والملك والرعية .

قال الملك للرابع : فما رأيك في هذا الصلح ؟

---

(١) المغتاظ . (٢) نوقد .

(٣) الغفلة . (٤) المضاربة بالسيوف .

قال : لا أراه رأيًا ؛ بل أن نفارق أوطاننا ونصبر على الغربة وشدة المعيشة خير من أن نضيع أحسابنا ، ونخضع للعدو الذى نحن أشرف منه ؛ مع أن البوم لو عرضنا ذلك عليهن لما رضين منا إلا بالشطط[1] . ويقال في الأمثال : قارب عدوك بعض المقاربة لتنال حاجتك ، ولا تقاربه كل المقاربة ، فيجترىء عليك ، ويضعف جندك ، وتذل نفسك ، ومثل ذلك مثل الخشبة المنصوبة في الشمس إذا أملتها قليلاً زاد ظلها ، وإذا جاوزت بها الحد في إمالتها نقص الظل وليس عدونا راضيًا منا بالدون في المقاربة ، فالرأى لنا ولك المحاربة .

قال الملك للخامس : ما تقول أنت ؟ وماذا ترى : القتال أم الصلح أم الجلاء عن الوطن ؟

قال : أما القتال ، فلا سبيل للمرء إلى قتال من لا يقوى عليه ، وقد يقال : إنه من لا يعرف نفسه وعدوه ، وقاتل من لا يقوى عليه ، حمل نفسه على حتفها، مع أن العاقل لا يستصغر عدوًا ، فإن من استصغر عدوه اغتر به ، ومن اغتر بعدوه لم يسلم منه ، وأنا للبُوم شديد الهيبة ، وإن أضربن عن قتالنا . وقد كنت أهابها قبل ذلك ، فإن الحازم لا يأمن عدوه على كل حال ، فإن كان بعيدًا لم يأمن سطوته ، وإن كان مُكْثِبًا[2] لم يأمن وثبته ، وإن كان وحيدًا لم يأمن مكره، وأحزم الأقوام وأكيسهم من كره القتال لأجل النفقة فيه ، فإن ما دون القتال النفقة فيه من الأموال والقول والعمل ، والقتال النفقة فيه من الأنفس والأبدان ، فلا يكونن القتال للبوم من رأيك أيها الملك فإن من قاتل من لا يقوى عليه فقد غرر[3] بنفسه . فإذا كان الملك محصنًا للأسرار ، متخيرًا للوزراء ، مهيبًا في أعين الناس ، بعيدًا من أن يقدر عليه ، كان خليقًا أن لا يسلب صحيح ما أوتى من الخير ، وأنت أيها الملك كذلك ، وقد استشرتني في أمر ، جوابك منى

---

(١) مجاوزة الحد . (٢) قريبًا .
(٣) عرضها للهلكة .

عنه ، في بعضه علانية ، وفي بعضه سر . وللأسرار منازل . منها ما يدخل فيه الرهط[1] ، ومنها ما يستعان فيه بالقوم ، ومنها ما يدخل فيه الرجلان ، ولست أرى لهذا السر على قدر منزلته أن يشارك فيه إلا أربع آذان ولسانان ، فنهض الملك من ساعته ، وخلا به فاستشاره ، فكان أول ما سأله عنه الملك أنه قال : هل تعلم ابتداء عداوة ما بيننا وبين البوم ؟ قال : نعم ، كلمة تكلم بها غراب ، قال الملك: وكيف كان ذلك ؟

قال الغراب : زعموا أن جماعة من الكراكي لم يكن لها ملك ، فأجمعت أمرها على أن يملكن عليهن ملك البوم فبينما هي في مجمعها إذ وقع لها غراب، فقالت : لو جاءنا هذا الغراب لاستشرناه في أمرنا ؛ فلم يلبث دون أن جاءهن الغراب . فاستشرنه ، فقال : لو أن الطير بادت من الأقاليم ، وفقد الطاووس والبط والنعام والحمام من العالم لما اضطررتن إلى أن تملكن عليكن البوم التى هى أقبح الطير منظرًا ، وأسوؤها خلقًا ، وأقلها عقلاً ، وأشدها غضبًا ، وأبعدها من كل رحمة ؛ مع عماها وما بها من العشا[2] بالنهار ؛ وأشد من ذلك وأقبح أمورها سفهها وسوء أخلاقها ، إلا أن ترين أن تملكنها وتكن أنتن تدبرن الأمور دونها برأيكن وعقولكن ؛ كما فعلت الأرنب التى زعمت أن القمر ملكها ، ثم عملت برأيها .

قال الطير : وكيف كان ذلك ؟

قال الغراب : زعموا أن أرضًا من أراضي الفيلة تتابعت عليها السنون ، وأجدبت ، وقل ماؤها ، وغارت عيونها ، وذوى نبتها ، ويبس شجرها ؛ فأصاب الفيلة عطش شديد ، فشكون ذلك إلى ملكهن ؛ فأرسل الملك رسله ورواده في طلب الماء ، في كل ناحية فرجع إليه بعض الرسل ، فأخبره أني قد

---

(١) قوم الرجل وقبيلته .
(٢) سوء البصر .

وجدت بمكان كذا عينًا يقال لها عين القمر ، كثيرة الماء ، فتوجه ملك الفيلة بأصحابه إلى تلك العين ليشرب منها هو وفيلته، وكانت العين في أرض للأرانب، فوطئن الأرانب في أجحارهن ، فأهلكن منهن كثيرًا ، فاجتمعت الأرانب إلى ملكها فقلن له : قد علمت ما أصابنا من الفيلة ، فقال : ليحضر منكن كل ذى رأى رأيه ، فتقدمت أرنب من الأرانب يقال لها : فيروز . وكان الملك يعرفها بحسن الرأى والأدب ، فقالت : إن رأى الملك أن يبعثنى إلى الفيلة ، ويرسل معى أمينًا ، ليرى ويسمع ما أقول ، ويرفعه إلى الملك ، فقال لها الملك : أنت أمينة ، ونرضى قولك ؛ فانطلقى إلى الفيلة ، وبلغي عني ما تريدين . واعلمى أن الرسول برأيه وعقله ، ولينه وفضله ، يخبر عن عقل المرسل ، فعليك باللين والرفق ، والحلم والتأني ، فإن الرسول هو الذى يلين الصدور إذا رفق ، ويخشن الصدور إذا خَرُق[1] .

ثم إن الأرنب انطلقت في ليلة قمراء ، حتى انتهت إلى الفيلة ، وكرهت أن تدنو منهن ، مخافة أن يطأنها بأرجلهن ، فيقتلنها ، وإن كن غير متعمدات ،ثم أشرفت على الجبل ، ونادت ملك الفيلة ، وقالت له : إن القمر أرسلني إليك والرسول غير ملوم فيما يبلغ ، وإن أغلظ في القول . قال ملك الفيلة : فما الرسالة ؟ قالت : يقول لك : إن من عرف فضل قوته على الضعفاء ، فاغتر بذلك في شأن الأقوياء ، قياسًا لهم على الضعفاء ، كانت قوته وبالاً عليه ، وأنت قد عرفت فضل قوتك على الدواب ، فغرك ذلك ؛ فعمدت إلى العين التى تسمى باسمي ، فشربت منها ، وكدرتها ، فأرسلني إليك فأنذرك ألا تعود إلى مثل ذلك ، وإنك إن فعلت أغشى بصرك ، وأتلف نفسك ، وإن كنت في شك من رسالتي ، فهلم إلى العين من ساعتك ، فإني موافيك بها ، فعجب ملك

(١) حمق .

الفيلة من قـول الأرنب ، فانطلق إلى العين مع فيـروز الرسول ، فلما نظر إليـها رأى ضوء القمر فيها ، فقالت له فيروز الرسول خذ بخرطومك من الماء فاغسل به وجهك ، واسجد للقمر فأدخل الفيل خـرطومه في الماء ، فتحرك فخيل للفيل أن القمر ارتعد ، فقال : ما شأن القمر ارتعد ؟ أتراه غضب من إدخالي الخرطوم في الماء ؟ قالت فيروز الأرنب : نعم ، فسجد الفيل للقمر مرة أخرى ، وتاب إليه مما صنع ، وشرط ألا يعود إلى مثل ذلك هو ولا أحد من فيلته .

قال الغراب : ومع مـا ذكرت من أمر البوم إن فيهـا الخب والمكر والخديعة ، وشر الملوك المخـادع ؛ ومن ابتلى بسلطان مـخادع ، وخدمـه ، أصابه مـا أصاب الأرنب والصِّفْرِد[1] حين احتكما إلى السِّنور .

قالت الكراكي : وكيف كان ذلك ؟

قال الغراب : كان لي جار من الصفاردة ، في أصل شجرة قريبة من وكري، وكان يكثـر مواصلتي ؛ ثم فقدته ، فلـم أعلم أين غاب ؛ وطالت غيبـته عني . فجاءت أرنب إلى مكان الصفرد ، فسكنته ، فكرهت أن أخاصم الأرنب ، فلبثت فيه زمانًا ، ثم إن الصفرد عاد بعد زمـان ، فأتى منزله ، فوجد فيه الأرنب فقال لها : هذا المكان لـي فانتقلي عنه ، قـالت الأرنب : المسكن لي ، وتحت يدي ، وأنت مدع له ، فإن كان لك حق فاستعد بإثباته عليّ . قال الصفرد : القاضى منا قريب : فهلمى بنا إليه قالت الأرنب : ومن القـاضى ؟ قال الصفرد : إن بساحل البحر سنوراً متعبـداً يصوم النهار ، ويقوم الليل كله ، ولا يؤذى دابة ، ولا يهرق دمًا ، عيشه من الحشيش ومما يقذفه إليه البحر ، فإن أحببت تحاكمنا إليه ، ورضينا به . قالت الأرنب : ما أرضاني به إذا كان كـما وصفت فانطلقا إليه ، فتبـعتهما لأنظر إلى حكومة الصوام القوام .

---

(١) طائر جبان كنيته أبو المليح .

ثم إنهما ذهبا إليه ، فلما بصر السنور بالأرنب والصفرد مقبلين نحوه ، انتصب قائمًا يصلي ، وأظهر الخشوع والتنسك فعجبا لما رأيا من حاله ، ودنوا منه هائبين له ، وسلما عليه ، وسألاه أن يقضي بينهما ، فأمرهما أن يقصا عليه القصة ، ففعلا ، فقال لهما : قد بلغني الكِبَر ، وثقلت أذناي : فادنوا مني ، فأسمعاني ما تقولان ، فدنوا منه ، وأعادا عليه القصة ، وسألاه الحكم . فقال قد فهمت ما قلتما ، وأنا مبتدئكما بالنصيحة قبل الحكومة بينكما : فأنا آمركما بتقوى الله ، وألا تطلبا إلا الحق ؛ فإن طالب الحق هو الذى يفلح ، وإن قضى عليه ، وطالب الباطل مخصوم ، وإن قضى له ، وليس لصاحب الدنيا من دنياه شيء ، لا مال ولا صديق سوى العمل الصالح يقدمه ؛ فذو العقل حقيق أن يكون سعيه في طلب ما يبقى ويعود نفعه عليه غدًا ؛ وأن يُمقت بسعيه فيما سوى ذلك من أمور الدنيا ، فإن منزلة المال عند العاقل بمنزلة المدر[١] ، ومنزلة الناس عنده فيما يحب لهم من الخير ويكره من الشر بمنزلة نفسه ، ثم إن السنور لم يزل يقص عليهما من جنس هذا وأشباهه ، حتى أنسا إليه ، وأقبلا عليه ، ودنوا منه ، ثم وثب عليهما فقتلهما . قال الغراب : ثم إن البوم تجمع – مع ما وصفت لكنَّ من الشؤم – سائر العيوب ، فلا يكونن تمليك البوم من رأيكن .

فلما سمع الكراكي ذلك من كلام الغراب أضربن عن تمليك البوم .

وكان هناك بوم حاضر قد سمع ما قالوا ، فقال للغراب : لقد وترتني[٢] أعظم الترة ، ولا أعلم أنه سلف مني إليك سوء أوجب هذا ، وبعد فاعلم أن الفأس يقطع به الشجر ، فيعود ينبت ؛ والسيف يقطع اللحم ، ثم يعود فيندمل ، واللسان لا يندمل جرحه ولا تؤسى[٣] مقاطعه ، والنصل من السهم يغيب في

(١) واحدته مدرة وهو قطع الطين اليابس والحجارة .
(٢) أصبتني بأذى عظيم جعل لك في قلبي عداوة لا تمحي وحقدًا لا يزول .
(٣) تداوى .

اللحم ، ثم ينزع فيخرج ، وأشباه النصل من الكلام إذا وصلت إلى القلب لم تنزع ولم تستخرج ، ولكل حريق مطفىء ، فللنار الماء ، وللسم الدواء ، وللحزن الصبر ، ونار الحقد لا تخبو أبدًا ، وقد غرستم معاشر الغربان بيننا وبينكم شجر الحقد والعداوة والبغضاء .

فلما قضى البوم مقالته ، ولى مُغضبًا ، فأخبر ملك البوم بما جرى وبكل ما كان من قول الغراب ؛ ثم إن الغراب ندم على ما فرط منه ، وقال : والله لقد خرقت في قولي الذى جلبت به العداوة والبغضاء على نفسي وقومي ! وليتنى لم أخبر الكراكي بهذه الحال ! ولا أعلمتها بهذا الأمر ! ولعل أكثر الطير قد رأى أكثر مما رأيت ، وعلم أضعاف ما علمت ، فمنعها من الكلام بمثل ما تكلمت اتقاء ما لم أتق ، والنظر فيما لم أنظر فيه من حِذَار العواقب ، لا سيما إذا كان الكلام أفظع كلام ، يلقى منه سامعه وقائله المكروه مما يورث الحقد والضغينة . فلا ينبغي لأشباه هذا الكلام أن تسمى كلامًا ، ولكن سهامًا ، والعاقل - وإن كان واثقًا بقوته وفضله - لا ينبغى أن يحمله ذلك على أن يجلب العداوة على نفسه اتكالاً على ما عنده من الرأى والقوة ؛ كما أنه وإن كان عنده الترياق[1] لا ينبغي له أن يشرب السم اتكالاً على ما عنده ، وصاحب حسن العمل ، وإن قصر به القول في مستقبل الأمر ، كان فضله بينًا واضحًا في العاقبة والاختبار ؛ وصاحب حسن القول ، وإن أعجب الناس منه حسن صفته للأمور ، لم تحمد عاقبة أمره ، وأنا صاحب القول الذى لا عاقبة له محمودة ، أليس من سفهي اجترائى على التكلم في الأمر الجسيم لا أستشير فيه أحدًا ، ولم أعمل فيه رأيًا ؟ ومن لم يستشر النصحاء الأولياء ، وعمل برأيه من غير تكرار النظر والروية لم يغتبط بمواقع رأيه، فما كان أغناني عما كسبت يومي هذا ، وما وقعت فيه من الهم ! وعاتب الغراب

---

(١) دواء السموم .

نفسه بهذا الكلام وأشباهه وذهب ، فهذا ما سألتني عنه من ابتداء العداوة بيننا وبين البوم .

وأما القتال فقد علمت رأيي فيه ، وكراهتي له ؛ ولكن عندي من الرأي والحيلة غير القتال ما يكون فيه الفرج إن شاء الله تعالى ؛ فإنه رب قوم قد احتالوا بآرائهم حتى ظفروا بما أرادوا . ومن ذلك حديث الجماعة الذين ظفروا بالناسك ، وأخذوا عريضة[1] .

قال الملك : وكيف كان ذلك ؟

قال الغراب : زعموا أن ناسكًا اشترى عريضًا ضخمًا ليجعله قربانًا ؛ فانطلق به يقوده . فبصر به قوم من المَكَرَة ، فأتمروا بينهم أن يأخذوه من الناسك ، فعرض له أحدهم فقال له : أيها الناسك ، ما هذا الكلب الذى معك ثم عرض له الآخر فقال لصاحبه : ما هذا ناسك ؛ لأن الناسك لا يقود كلبًا ، فلم يزالوا مع الناسك على هذا ومثله حتى لم يشك أن الذى يقوده كلب ؛ وأن الذى باعه إياه سحر عينه ، فأطلقه من يده ؛ فأخذه الجماعة المحتالون ومضوا به .

وإنما ضربت لك هذا المثل لما أرجو أن نصيب من حاجتنا بالرفق والحيلة ، وإنى أريد من الملك أن ينقرني على رؤوس الأشهاد ، وينتف ريشى وذنبى ؛ ثم يطرحنى في أصل هذه الشجرة ، ويرتحل الملك هو وجنوده إلى مكان كذا ، فأرجو أني أصبر وأطلع على أحوالهم ، ومواضع تحصينهم وأبوابهم ، فأخادعهم وآتى إليكم لنهجم عليهم ، وننال منهم غرضنا إن شاء الله تعالى .

قال الملك : أتطيب نفسك لذلك ؟ قال : نعم ، وكيف لا تطيب نفسي لذلك وفيه أعظم الراحات للملك وجنوده ؟ ففعل الملك بالغراب ما ذكر ؛ ثم ارتحل عنه فجعل الغراب يئن ويَهمِسُ[2] حتى رأته البوم وسمعته يئن ؛ فأخبرن

---

(١) العريض من المعز ما أتى عليه سنة .

(٢) الهمس : الصوت الخفي .

ملكهن بذلك ، فقصد نحوه ليسأله عن الغربان ، فلما دنا منه أمر بومًا أن يسأله فقال له : من أنت ؟ وأين الغربان ؟ فقال : أما اسمى ففلان ، وأما ما سألتني عنه فإني أحسبك ترى أن حالي حال من لا يعلم الأسرار .

فقيل لملك البوم : هذا وزير ملك الغربان وصاحب رأيه ؛ فنسأله بأى ذنب صنع به ما صنع ؟ فسئل الغراب عن أمره فقال : إن ملكنا استشار جماعتنا فيكن، وكنت يومئذ بمحضر من الأمر ؛ فقال : أيها الغربان ، ما ترون في ذلك؟ فقلت : أيها الملك ، لا طاقة لنا بقتال البوم؛ لأنهن أشد بطشًا، وأحد قلبًا منا ، ولكن أرى أن نلتمس الصلح؛ ثم نبذل الفدية في ذلك فإن قبلت البوم ذلك منا ، وإلا هربنا في البلاد، وإذا كان القتال بيننا وبين البوم كان خيرًا لهن وشرًا لنا ، فالصلح أفضل من الخصومة ، وأمرتهن بالرجوع عن الحرب وضربت لهن الأمثال في ذلك وقلت لهن : إن العدو الشديد لا يرد بأسه وغضبه مثل الخضوع له ، ألا ترين إلى الحشيش كيف يسلم من عاصف الريح للينه وميله معها حيث مالت فعصينني في ذلك ، وزعمن أنهن يردن القتال ، واتهمنني فيما قلت ، وقلن : إنك قد مالأت[1] البوم علينا ؛ ورددن قولي ونصيحتي ، وعذبنني بهذا العذاب، وتركني الملك وجنوده وارتحل . ولا علم لي بهن بعد ذلك .

فلما سمع ملك البوم مقالة الغراب قال لبعض وزرائه : ما تقول في الغراب؟ وما ترى فيه ؟ قال : ما أرى إلا المعاجلة له بالقتل ؛ فإن هذا أفضل عُدَد الغربان، وفي قتله لنا راحة من مكره ، وفقده على الغربان شديد ، ويقال : من ظفر بالساعة التى فيها ينجح العمل ، ثم لا يعاجله بالذى ينبغي له ، فليس بحكيم . ومن طلب الأمر الجسيم ، فأمكنه ذلك فأغفله ، فاته الأمر ؛ وهو خليق ألا تعود الفرصة ثانية ، ومن وجد عدوه ضعيفًا ، ولم ينجز قتله ، ندم إذا استقوى ولم يقدر عليه .

---

(١) ساعدت .

قال الملك لوزير آخر : ما ترى أنت في هذا الغراب ؟ قال : أرى ألا تقتله فإن العدوَّ الذليل الذى لا ناصر له أهل لأن يستبقى ويرحم ويصفح عنه ، لا سيما المستجير الخائف فإنه أهل لأن يُؤمَّن .

قال ملك البوم لوزير آخر من وزرائه : ما تقول في الغراب ؟ قال : أرى أن تستبقيه وتحسن إليه ، فإنه خليق أن ينصحك ، والعاقل يرى معاداة بعض أعدائه بعضًا ظفرًا حسنًا ؛ ويرى اشتغال بعض الأعداء ببعض خلاصًا لنفسه منهم ، ونجاة كنجاة الناسك من اللص والشيطان حين اختلفا عليه .

قال الملك له : وكيف كان ذلك ؟

قال الوزير : زعموا أن ناسكًا أصاب من رجل بقرة حلوبًا ، فانطلق بها يقودها إلى منزله ، فعرض له لص أراد سرقتها ، واتبعه شيطان يريد اختطافه ، فقال الشيطان للص : من أنت ؟ قال : أنا اللص ، أريد أن أسرق هذه البقرة من الناسك إذا نام ، فمن أنت ؟ قال : أنا الشيطان أريد اختطافه إذا نام وأذهب به فانتهيا على هذا إلى المنزل ، فدخل الناسك منزله ، ودخلا خلفه ، وأدخل البقرة فربطها في زاوية المنزل، وتعشى ونام، فأقبل اللص والشيطان يأتمران فيه ، واختلفا على من يبدأ بشغله أولاً ، فقال الشيطان للص : إن أنت بدأت بأخذ البقرة فربما استيقظ وصاح ، واجتمع الناس فلا أقدر على أخذه ، فأنظرني ريثما آخذه ، وشأنك وما تريد ، فأشفق اللص إن بدأ الشيطان باختطافه فربما استيقظ ، فلا يقدر على أخذ البقرة . فقال : لا ، بل أنظرني أنت حتى آخذ البقرة ، وشأنك وما تريد . فلم يزالا في المجادلة هكذا ، حتى نادى اللص : أيها الناسك انتبه ، فهذا الشيطان يريد اختطافك ، ونادى الشيطان : أيها الناسك انتبه ؛ فهذا اللص يريد أن يسرق بقرتك ، فانتبه الناسك وجيرانه بأصواتهما ، وهرب الخبيثان.

قال الوزير الأول الذي أشار بقتل الغراب : أظن أن الغراب قد خدعكن ،

ووقع كلامه في نفس الغبي منكن موقعه ؛ فتردن أن تضعن الرأى في غير موضعه، فمهلاً مهلاً أيها الملك عن هذا الرأى . فلم يلتفت الملك إلى قوله وأمر بالغراب أن يحمل إلى منازل البوم ، ويكرم ويستوصى به خيراً .

ثم إن الغراب قال للملك يومًا ، وعنده جماعة من البوم ، وفيهن الوزير الذى أشار بقتله : أيها الملك ، قد علمت ما جرى عليّ من الغربان ؛ وأنه لا يستريح قلبي دون أخذي بثاري منهن ؛ وإنى قد نظرت في ذلك ، فإذا بي لا أقدر على ما رمت لأني غراب ، وقد روي عن العلماء أنهم قالوا : من طابت نفسه بأن يحرقها ، فقد قرب لله أعظم القربان ، لا يدعو عند ذلك بدعوة إلا استجيب له[1] ، فإن رأى الملك أن يأمرني فأحرق نفسي ، وأدعو ربي أن يحولني بومًا ، فأكون أشد عداوة وأقوى بأسًا على الغربان ، لعلي أنتقم منهن !

قال الوزير الذى أشار بقتله : ما أشبهك في خير ما تظهر وشر ما تخفي إلا بالخمرة الطيبة الطعم والريح المنقع فيها السم ، أرأيت لو أحرقنا جسمك بالنار كان جوهرك وطباعك متغيرة ! أليست أخلاقك تدور معك حيثما درت ، وتصير بعد ذلك إلى أصلك وطويتك ؟ كالفأرة التى خيرت في الأزواج بين الشمس والريح والسحاب والجبل فلم يقع اختيارها إلا على الجرذ .

قيل له : وكيف كان ذلك ؟

قال : زعموا أنه كان ناسك مستجاب الدعوة ، فبينما هو ذات يوم جالس على ساحل البحر ، إذ مرت به حِدأة في رجلها درص[2] فأرة ، فوقعت منها عند الناسك ، وأدركته لها رحمة ، فأخذها ولفها في ورقة ، وذهب بها إلى منزله ؛ ثم خاف أن تشق على أهله تربيتها ، فدعا ربه أن يحولها جارية ، فتحولت جارية حسناء ، فانطلق بها إلى امرأته ، فقال لها هذه ابنتي ، فاصنعي معها صنيعك

(١) هذا في اعتقاد الهنود الذين لم يستضيئوا بنور الإسلام .
(٢) ولد الفأرة .

بولدي ، فلما كَبِرَت قال لها الناسك : يا بنية ، اختاري من أحببت حتى أزوجك به .

فقالت : أما إذا خيرتني فإنى أختار زوجًا يكون أقوى الأشياء .

فقال الناسك : لعلك تريدين الشمس ! ثم انطلق إلى الشمس فقال : أيها الخلق العظيم ، لي جارية ، وقد طلبت زوجًا يكون أقوى الأشياء ، فهل أنت متزوجها ؟ فقالت الشمس : أنا أدُلُّك على من هو أقوى مني : السحاب الذى يغطيني ، ويرد حر شعاعي ، ويكسف أشعة أنواري ، فذهب الناسك إلى السحاب فقال له ما قال للشمس ، فقال السحاب : وأنا أدلك على من هو أقوى مني ، فاذهب إلى الريح التى تقبل بي وتدبر ، وتذهب بي شرقًا وغربًا . فجاء الناسك إلى الريح فقال لها كقوله للسحاب . فقالت : وأنا أدلك على من هو أقوى مني ، وهو الجبل الذى لا أقدر على تحريكه ، فمضى إلى الجبل فقال له القول المذكور ، فأجابه الجبل وقال له : أنا أدلك على من هو أقوى مني الجرذ الذى لا أستطيع الامتناع منه إذا ثقبني ، واتخذني مسكنًا فانطلق الناسك إلى الجرذ فقال له : هل أنت متزوج هذه الجارية ؟ فقال : وكيف أتزوجها وجحرى ضيق ؟ وإنما يتزوج الجرذ الفأرة . فدعا الناسك ربه أن يحولها فأرة كما كانت ، وذلك برضا الجارية ، فأعادها الله إلى عنصرها الأول فانطلقت مع الجرذ ، فهذا مثلك أيها المخادع .

فلم يلتفت ملك البوم إلى ذلك القول ، ورفق بالغراب ، ولم يزدد له إلا إكرامًا ، حتى إذا طاب عيشه ، ونبت ريشه ، واطلع على ما أراد أن يطلع عليه، راغ روغة ، فأتى أصحابه بما رأى وسمع ، فقال للملك : إني قد فرغت مما كنت أريد ، ولم يبق إلا أن تسمع وتطيع .

قال له : أنا والجند تحت أمرك فاحتكم كيف شئت .

قال الغراب : إن البوم بمكان كذا ، في جبل كثير الحطب ، وفي ذلك

الموضع قطيع من الغنم ، مع رجلٍ راعٍ ، ونحن مصيبــون هناك نارًا ، ونلقيها في أنقاب[1] البوم ، ونقذف عليها من يابس الحطب ، ونتراوح عليها ضربًا بأجنحتنا ، حتى تضطرم النار في الحطب ، فـمن خرج منهن احترق ، ومن لـم يخرج مات بالدخان موضعه ، ففعل الغربان ذلك فأهلكن البوم قاطبة ، ورجعن إلى منازلهن سالمات آمنات .

ثم إن ملك الغربان قال لذلك الغـراب : كيف صبرت على صحـبة البوم ، ولا صبر للأخيار على صحبة الأشرار ؟

فقـال الغراب : إن ما قلتـه أيها الملك لكذلك ، ولكن العـاقل إذا أتاه الأمر الفظيع العظيم الذى يخاف من عدم تحمله الجائحة[2] على نفسه وقومه ، لم يجزع من شدة الصبر عليه ، لما يرجو من أن يُعقِبَه صبره حـسن العاقبة ، وكثير الخير ؛ فلم يجد لذلك ألمًا ، ولم تكره نفسه الخضـوع لمن هو دونه ، حتى يبلغ حاجته ، فيغتبط بخاتمة أمره وعاقبة صبره .

فقال الملك : أخبرني عن عقول البوم .

قال الغراب : لم أجد فـيهن عاقلاً إلا الذى كان يحثـهن على قتلى ، وكان حـرضهن على ذلك مـرارًا ، فكن أضـعف شيء رأيًا ! فلم ينظرن في أمـري ، ويذكـرن أني قـد كنت ذا منزلة فـي الغـربان ، وأني أعـد من ذوي الرأى ، ولم يتـخوفـن مكري وحيلتـي ، ولا قبلن من الـناصح الشفـيق ، ولا أخـفين دوني أسرارهن . وقد قال العلماء : ينبغي للـملك أن يحصن أموره من أهل النميمة ، ولا يطلع أحدًا منهم على مواضع سره .

فقـال الملك : مـا أهلك البوم في نفـسي إلا البغي ، وضـعف رأى الملك ، وموافقته وزراء السوء .

---

(١) جمع نقب أو نقب بمعنى الثقب أو الطريق ، والمراد بها مساكن البوم .
(٢) الشدة المهلكة .

فقال الغراب: صدقت أيها الملك ، إنه قلما ظفر أحد بِغِنًى ولم يطغ ، وقل من أكثر من الطعام إلا مرض. وقل من وثق بوزراء السوء وسلم من أن يقع في المهالك وكان يقال : لا يطمعن ذو الكبر في حسن الثناء ، ولا الخب في كثرة الصديق ، ولا السيء الأدب في الشرف ، ولا الشحيح في البر ، ولا الحريص في قلة الذنوب ، ولا الملك المحتال المتهاون بالأمور الضعيف الوزراء في ثبات ملكه، وصلاح رعيته .

قال الملك : لقد احتملت مشقة شديدة في تصنعك للبوم ، وتضرعك لهن.

قال الغراب : إنه من احتمل مشقة يرجو نفعها ، ونحى عن نفسه الأنفة والحمية ووطنها على الصبر حمد غب[1] رأيه ؛ كما صبر الأسود على حمل ملك الضفادع على ظهره ، وشبع بذلك وعاش .

قال الملك : وكيف كان ذلك ؟

قال الغراب : زعموا أن أسود من الحيات كبر ، وضعف بصره ، وذهبت قوته فلم يستطع صيداً ، ولم يقدر على طعام ؛ وأنه انساب يلتمس شيئًا يعيش به، حتى انتهى إلى عين كثيرة الضفادع ، قد كان يأتيها قبل ذلك ، فيصيب من ضفادعها رزقه ، فرمى نفسه قريبًا منهن ، مظهرًا للكآبة والحزن . فقال له ضفدع[2] : ما لي أراك أيها الأسود كئيبًا حزينًا ؟ قال : ومن أحرى بطول الحزن مني ! وإنما كان أكثر معيشتي مما كنت أصيب من الضفادع ، فابتليت ببلاء ، وحرمت عليّ الضفادع من أجله ؛ حتى إني إذا التقيت ببعضها ، لا أقدر على إمساكه ، فانطلق الضفدع إلى مَلِك الضفادع ، فبشره بما سمع من الأسود . فأتى ملك الضفادع إلى الأسود ، فقال له : كيف كان أمرك ؟ قال : سعيت منذ أيام

---

(١) عاقبة .

(٢) بكسر أوله وثالثه أو فتحهما أو ضم الأول وفتح الثالث الواحدة بها ، والجمع ضفادع .

في طلب ضفدع . وذلك عند المساء ، فاضطررته إلى بيت ناسك ، ودخلت في أثره في الظلمة؛ وفي البيت ابن للناسك، فأصبت إصبعه ؛ فظننت أنها الضفدع؛ فلدغته فمات ، فخرجت هاربًا، فتبعني الناسك في أثرى، ودعا عليّ، ولعنني ، وقال : كما قـتلت ابني البرىء ظلمًا وتعديًا ، أدعو عليك أن تذل وتصير مركبًا لملك الضفـادع ، فلا تسـتطيع أخذها ، ولا أكل شيء منهـا ، إلا ما يتـصدق به عليك ملكهـا ، فأتيت إليك لتـركبني ، مـقرًا بذلك ، راضيًا به ، فـرغب ملك الضفادع في ركـوب الأسود ، وظن أن ذلك فخر له وشرف ، ورفعـة ، فركبه ، واستطاب ذلك . فقـال له الأسود ، قد علمت أيها الملك أني محـروم ، فاجعل لي رزقًا فأعيش به . قال ملك الضفـادع : لعمري لابد لك من رزق يقوم بك ، إذ كنت مركبي . فأمر له بضفدعين يـؤخذان في كل يوم ، ويدفعان إليه ، فعاش بذلك ، ولم يضـره خضـوعه للعـدو الذليل ؛ بل انتفع بذلك ، وصـار له رزقًا ومعيشة .

وكذلك كان صبـري على ما صبرت عليه ، التماساً لهذا النفع العظيم الذى اجتمع لنا فيه الأمن والظفر ، وهـلاك العدو والراحة منه ، ووجدت صرعة اللين والرفق أسرع وأشد استئصالاً للعدو من صرعة المكابرة ، فإن النار لا تزيد بحدتها وحرها إذا أصابت الشجرة على أن تحـرق ما فوق الأرض منها . والماء ببرده ولينه يستأصل ما تحت الأرض منها . ويقال أربعة أشياء لا يستقل قليلها : النار والمرض والعدو والدَّين . قال الغراب : وكل ذلك كان من رأى الملك وأدبه وسعادة جده. وأنَّه كان يقال : إذا طلب اثنان أمرًا ظفر به منهما أفضلهما مروءة. فإن اعتدلا في المروءة ، فأشدهما عزمًا . فإن استويا في العزم ، فأسعدهما جدًا . وكان يقال : من حارب الملك الحازم الأريب المتضرع الذى لا تبطره السراء ولا تدهشه الضراء، كان هو داعي الحتف إلى نفسه ، ولا سيما إذا كـان مثلك ، أيهـا الملك العالم بفروض الأعمال ، ومواضع الشـدة واللين والغضب والرضا ، والمعاجلة والأناة ؛

الناظر في أمر يومه وغده ، وعواقب أعماله . قال الملك للغراب : بل برأيك وعقلك ونصيحتك ويمن طالعك كان ذلك ؛ فإن رأى الرجل الواحد ، العاقل الحازم ، أبلغ في هلاك العدو من الجنود الكثيرة ، من ذوى البأس والنجدة ، والعدد والعُدَّة . وإن من عجيب أمرك عندي طول لُبثك بين ظَهرَاني البوم تسمع الكلام الغليظ، ثم لم تسقط بينهن بكلمة! قال الغراب : لم أزل متمسكًا بأدبك ، أيها الملك ، أصحب البعيد والقريب، بالرفق واللين والمبالغة والمواتاة . قال الملك : أصبحت وقد وجدتك صاحب العمل ، ووجدت غيرك من الوزراء أصحاب أقاويل ليس لها عاقبة حميدة ، فقد منّ الله علينا بك منّة عظيمة لم نكن قبلها نجد لذة الطعام ولا الشراب ، ولا النوم ولا القرار ، وكان يقال : لا يجد المريض لذة الطعام والنوم حتى يبرأ ؛ ولا الرجل الشره الذى قد أطعمه سلطانه في مال وعمل في يده ، حتى ينجزه له ؛ ولا الرجل الذى قد ألح عليه عدوه ، وهو يخافه صباحًا ومساء ، حتى يستريح منه قلبه . ومن وضع الحمل الثقيل عن يديه أراح نفسه ، ومن أمِن عدوه ثَلَجَ[1] صدره . قال الغراب : أسأل الله الذى أهلك عدوك أن يمتعك بسلطانك ، وأن يجعل في ذلك صلاح رعيتك ، ويشركهم في قرة العين بملكك ! فإن الملك إذا لم يكن في ملكه قرة عيون رعيته ، فمثله مثل زَنَمَةَ[2] العنز التى يَمَصُّها ، وهو يحسبها حلمة الضرع ، فلا يصادف فيها خيراً .

قال الملك : أيها الوزير الصالح ، كيف كانت سيرة البوم وملكها في حروبها، وفيما كانت فيه من أمورها ؟

قال الغراب : كانت سيرته سيرة بطر ، وأشر ، وخُيَلاء ، وعجز ، وفخر، مع ما فيه من الصفات الذميمة ، وكل أصحابه ووزرائه شبيه به ، إلا الوزير الذى كان يشير عليه بقتلي فإنه كان حكيمًا أريبًا ، فيلسوفًا حازمًا عالمًا ، قلما يرى مثله

---

(١) اطمأن . (٢) قطعة لحم تتدلى من عنقه .

في علو الهمة ، وكمال العقل ، وجودة الرأى .

قال الملك : وأى خصلة رأيت منه كانت أدل على عقله ؟

قال : خلتان : إحداهما رأيه في قتلى ، والأخرى أنه لم يكن يكتم صاحبه نصيحته ، وإن استقلها ؛ ولم يكن كلامه كلام عنف وقسوة ، ولكنه كلام رفق ولين ، حتى إنه ربما أخبره ببعض عيوبه ، ولا يصرح بحقيقة الحال ؛ بل يضرب له الأمثال ، ويحدثه بعيب غيره ، فيعرف عيبه ، فلا يجد ملكه إلى الغضب عليه سبيلاً ، وكان مما سمعته يقول لملكه : إنه لا ينبغي للملك أن يغفل عن أمره ، فإنه أمر جسيم ، لا يظفر به من الناس إلا قليل ، ولا يدرك إلا بالحزم ، فإن الملك عزيز ، فمن ظفر به فليحسن حفظه وتحصينه ، فإنه قد قيل : إنه في قلة بقائه بمنزلة قلة بقاء الظل عن ورق النَّيلَوفَر وهو في خفة زواله ، وسرعة إقباله وإدباره كالريح ؛ وفي قلة ثباته كاللبيب مع اللئام ؛ وفي سرعة اضمحلاله كحَبَاب الماء من وقع المطر ، فهذا مثل أهل العداوة الذين لا ينبغي أن يغتر بهم ؛ وإن هم أظهروا توددًا وتضرعًا .

**( انقضى باب البوم والغربان ) .**

❊ ❊ ❊

## باب : القرد والغَيْلم[1]

قال دبشليم الملك لبيدبا الفيلسوف : قد سمعت هذا المثل ، فاضرب لي مثل الرجل الذى يطلب الحاجة ، فإذا ظفر بها ، أضاعها .

قال الفيلسوف : إن طلب الحاجة أهون من الاحتفاظ بها ، ومن ظفر بحاجة ثم لم يحسن القيام بها، أصابه ما أصاب الغيلم.

قال الملك: وكيف كان ذلك؟

قال بيدبا : زعموا أن قردًا يقال له ماهر ، كان ملك القردة ، وكان قد كبر وهرم ، فوثب عليه قرد شاب من بيت المملكة ، فتغلب عليه ، وأخذ مكانه ، فخرج هاربًا على وجهه ، حتى انتهى إلى الساحل ، فوجد شجرة من شجر التين، فارتقى إليها وجعلها مقامه ، فبينما هو ذات يوم يأكل من ذلك التين ، إذ سقطت من يده تينة في الماء ، فسمع لها صوتًا وإيقاعًا ، فجعل يأكل ويرمى في الماء ، فأطربه ذلك ، فأكثر من طرح التين في الماء ، وثَمَّ غيلم ، كلما وقعت تينة أكلها ، فلما كثر ذلك ، ظن أن القرد إنما يفعل ذلك لأجله فرغب في مصادقته ، وأنِسَ إليه ، وكلمه وألف كل واحد منهما صاحبه .

وطالت غيبة الغيلم عن زوجته، فجزعت عليه، وشكت ذلك إلى جارة لها، وقالت : قد خفت أن يكون قد عرض له عارض سوء فاغتاله . فقالت لها : إن زوجك بالساحل قد ألف قردًا وألفه القرد ، فهو مؤاكله ومشاربه ، وهو الذى قطعه عنك ، ولا يقدر أن يقيم عندك حتى تحتالي لهلاك القرد . قالت : وكيف أصنع ؟ قالت جارتها : إذا وصل إليك فتمارضي، فإذا سألك عن حالك فقولي: إن الحكماء وصفوا لي قلب قرد .

---

(١) السلحفاة الذكر .

ثم إن الغيلم انطلق بعد مدة إلى منزله ، فوجد زوجته سيئة الحال مهمومة ، فقال لها الغيلم: ما لي أراك هكذا؟ فأجابته جارتها ، وقالت : إن زوجتك مريضة مسكينة ، وقد وصف لها الأطباء قلب قرد ، وليس لها دواء سواه .

قال الغيلم : هذا أمر عسير من أين لنا قلب قرد ، ونحن في الماء ؟ لكن سأحتال لصديقي .

ثم انطلق إلى ساحل البحر فقال له القرد يا أخي ، ما حبسك عني ؟ قال له الغيلم : ما حبسني عنك إلا حيائي ، فلم أعرف كيف أجازيك على إحسانك إلي؟ وأريد أن تتم إحسانك إليّ بزيارتك لي في منزلي ، فإني ساكن في جزيرة طيبة الفاكهة ، فاركب ظهري لأسبح بك ، فرغب القرد في ذلك ، ونزل فركب ظهر الغيلم ، فسبح به ، حتى إذا سبح به ، عرض له قبح ما أضمر في نفسه من الغدر ، فنكس رأسه ؛ فقال له القرد : ما لي أراك مهتمًا ؟

قال الغيلم : إنما همي لأني ذكرت أن زوجتي شديدة المرض ، وذلك يمنعني من كثير مما أريد أن أبلغه من كرامتك وملاطفتك .

قال القرد : إن الذى أعرف من حرصك على كرامتي ، يكفيك مؤونة التكلف .

قال الغيلم : أجل .

ومضى بالقرد ساعة ، ثم توقف به ثانية ، فساء ظن القرد وقال في نفسه : ما احتباس الغيلم وإبطاؤه إلا لأمر ! ولست آمنًا أن يكون قلبه قد تغير لي ، وحال عن مودتي ، فأراد بي سوءًا فإنه لا شيء أخف وأسرع تقلبًا من القلب ، وقد يقال : ينبغي للعاقل ألا يَغفل عن التماس ما في نفس أهله وولده وإخوانه وصديقه ، عند كل أمر ، وفي كل لحظة وكلمة ، وعند القيام والقعود ، وعلى كل حال ، فإن ذلك كله يشهد على ما في القلوب ، وقد قالت العلماء : إذا دخل قلب الصديق من صديقه ريبة فليأخذ بالحزم في التحفظ منه ، وليتفقد ذلك

في لحظاته وحالاته ، فإن كـان ما يظن حقًا ظفر بالسلامـة ، وإن كان باطلاً ظفر بالحزم ، ولـم يضره ذلك ؛ ثم قـال للغيلم : مـا الذى يحبسـك ؟ وما لي أراك مهتمًا ، كأنك تحدث نفسك مرة أخرى ؟

قال : يهـمني أنك تأتي منزلي ، فـلا تجد أمـري كما أحـب ؛ لأن زوجتي مريضة .

قال القرد : لا تهتم ، فإن الهم لا يغني عنك شيئًا ، ولكن التمس ما يصلح زوجتك من الأدوية والأغذية فـإنه يقال : ليبذل ذو المال مـاله في أربعة مواضع : في الصدقة ، وفي وقت الحاجة ، وعلى البنين ، وعلى الأزواج .

قال الغيلم : صدقت . وقد قالت الأطباء : إنه لا دواء لها إلا قلب قرد .

فقال القرد في نفسه : وا أسفـاه ! لقد أدركني الحرص والشره على كبر سني حـتى وقـعت في شـر ورطة ! ولقد صـدق الذى قـال : يعـيش القـانع الراضي مستـريحًا مطمئنًا ، وذو الحرص والشره يعيش مـا عاش في تعب ونصب ، وإني قد احتجت الآن إلى عقلي في التماس المخرج مما وقعت فيه.

ثم قال للغيلم : وما منعـك أن تعلمني عند منزلي ، حتى كنت أحمل قلبي معي ؟ فهذه سنة فينا معاشـر القردة ، إذا خرج أحدنا لزيارة صديق ، خلف قلبه عند أهله ، أو في موضعـه ، لننظر - إذا نظرنا - إلى حُرَم المزور ، وليس قلوبنا معنا.

قال الغيلم : وأين قلبك الآن ؟

قال : خلفتـه في الشجرة . فإن شئت فارجع بي إلى الشـجرة ، حتى آتيك به.

ففرح الغيلم بذلك وقال : لقـد وافقني صاحبي بدون أن أغدر به . ثم رجع بالقرد إلى مكانه . فلما قارب الساحل ، وثب عن ظهـره فارتقى الشجرة ، فلما أبطأ على الغيلم ، ناداه : يا خليلي ، احمل قلبك وانزل فقد حبستني .

فقال القرد : هيهات ! أتظن أني كالحمار الذى زعم ابن آوى أنه لم يكن له قلب ولا أذنان ؟

قال الغيلم : وكيف كان ذلك ؟

قال القرد : زعموا أنه كان أسد في أجمة ، وكان معه ابن آوى يأكل من فواضل طعامه ، فأصاب الأسد جرب ، وضعف شديد ، وجهد ؛ فلم يستطع الصيد . فقال له ابن آوي : ما بالك، يا سيد السباع، قد تغيرت أحوالك؟ قال : هذا الجرب الذى قد أجهدني ، وليس له دواء إلا قلب حمار وأذناه . قال ابن آوى : ما أيسر هذا ! وقد عرفت بمكان كذا حمار مع قَصَّار[1] يحمل عليه ثيابه ، وأنا آتيك به ، ثم دَلَفَ إلى الحمار فأتاه وسلم عليه فقال له : ما لي أراك مهزولاً ؟ قال ما يطعمني صاحبي شيئًا . فقال له : وكيف ترضى المقام معه على هذا ؟ قال : فما لي حيلة في الهرب منه ، لست أتوجه إلى جهة إلا أضر بي إنسان فكدني وأجاعني . قال ابن آوى : فأنا أدلك على مكان معزول عن الناس، لا يمر به إنسان، خصيب المرعى ، فيه قطيع من الحُمُر لم تر عين مثلها حسنًا وسمنًا . قال الحمار : وما يحبسنا عنها ؟ فانطلق بنا إليها ، فانطلق به ابن آوى نحو الأسد، وتقدم ابن آوى ، ودخل الغابة على الأسد ، فأخبره بمكان الحمار فخرج إليه وأراد أن يثب عليه فلم يستطع لضعفه ، وتخلص الحمار منه ، فأفلت هَلَعًا[2] على وجهه فلما رأى ابن آوى أن الأسد لم يقدر على الحمار ، قال له : أعجزت يا سيد السباع إلى هذه الغاية ؟ فقال له : إن جئتني به مرة أخرى ، فلن ينجو مني أبدًا ، فمضى ابن آوى إلى الحمار فقال له : ما الذى جرى عليك ؟ إن أحد الحمر رآك غريبًا ، فخرج يتلقاك مرحبًا بك ، ولو ثبت له لآنسك ، ومضى بك

(١) محور الثياب .
(٢) الهلع : أفحش الجزع .

إلى أصحابه ، فلما سمع الحمار كلام ابن آوى ، ولم يكن رأى أسدًا قط ، صدقه، وأخذ طريقه إلى الأسد ، فسبقه ابن آوى إلى الأسد ، وأعلمه بمكانه . وقال له : استعد له ، فقد خدعته لك ، فلا يدركنك الضعف في هذه النوبة ، فإنه إن أفلت فلن يعود معى أبدًا. فجاش[1] جأش الأسد لتحريض ابن آوى له ، وخرج إلى موضع الحمار ، فلما بصر به عاجله بوثبة افترسه بها . ثم قال : قد ذكرت الأطباء أنه لا يؤكل إلا بعد الغسل والطهور فاحتفظ به حتى أعود فآكل قلبه وأذنيه ، وأترك ما سوى ذلك قوتًا لك ، فلما ذهب الأسد ليغتسل ، عمد ابن آوى إلى الحمار فأكل قلبه وأذنيه ، رجاء أن يتطير الأسد منه ، فلا يأكل منه شيئًا . ثم إن الأسد رجع إلى مكانه ، فقال لابن آوى . أين قلب الحمار وأذناه ؟ قال ابن آوى : ألم تعلم أنه لو كان له قلب يفقه به ، وأذنان يسمع بهما ، لم يرجع إليك بعد ما أفلت ونجا من الهلكة .

وإنما ضربت لك هذا المثل لتعلم أنى لست كذلك الحمار الذى زعم ابن آوى أنه لم يكن له قلب وأذنان ، ولكنك احتلت عليّ وخدعتنى ، فخدعتك بمثل خديعتك ، واستدركت فارط أمرى . وقد قيل : إن الذى يفسده الحلم لا يصلحه إلا العلم .

قال الغيلم : صدقت ، إلا أن الرجل الصالح يعترف بزلته ، وإذا أذنب ذنبًا لم يستحي أن يؤدب ، لصدقه في قوله وفعله . وإن وقع في ورطة أمكنه التخلص منها بحيلته وعقله كالرجل الذى يعثر على الأرض ، ثم ينهض عليها معتمدًا ، فهذا مثل الرجل الذى يطلب الحاجة فإذا ظفر بها أضاعها .

**( انقضى باب القرد والغيلم )**

---

(١) غلى ، والجأش - وقد لا يهمز - من معانيه النفس .

## باب : الناسك وابن عرس

قال دبشليم الملك لبيدبا الفيلسوف : قد سمعت هذا المثل . فاضرب لي مثل الرجل العجلان في أمره ، من غير رويَّة ولا نظر في العواقب .

قال الفيلسوف : إنَّه من لم يكن في أمره متثبتًا ، لم يزل نادمًا ، ويصير أمره إلى ما صار إليه الناسك من قتل ابن عِرس ، وقد كان له ودودًا .

قال الملك : وكيف كان ذلك ؟

قال الفيلسوف : زعموا أنَّ ناسكًا من النساك كان بأرض جُرجَان[1] وكانت له امرأة جميلــة ، فمكثا زمانًا لم يرزقا ولدًا ، ثمَّ حملت منه بعــد الإياس ، فسرَّت المرأة وسر الناسك بذلك ، فحمد الله تعالى ، وسأله أن يكون الحمل ذكرًا. وقال لزوجتــه : أبشري : فــإني أرجو أن يكون غــلامًا ، لنا فيه منــافع ، وقرة عين ، أختار له أحسن الأســماء ، وأحضر له سائر الأدباء . فقــالت المرأة : ما يحملك أيهــا الرجل على أن تتكلم بما لا تدري أيكون أم لا ؟ ومن فــعل ذلك أصابه مــا أصاب الناسك الذى أراق على رأسه السمن والعسل.

قال لها: وكيف كان ذلك؟

قالت : زعموا أنَّ ناسكًا كــان يجري عليه من بيت رجل تاجر ، في كل يوم رزق من السمن والعسل ، وكــان يأكل منه قوته وحاجته ويــرفع الباقي ، ويجعله في جرَّة ، فيعلقها في وتد في ناحية البيت حتى امتلأت ، فبينما الناسك ذات يوم مستلق على ظهره ، والعكازة في يده ، والجرة معلقة على رأسه ، تفكر في غلاء السمن والعسل فقال : سأبيع مــا في هذه الجرَّة بدينار ، وأشترى به عشرة أعنز ؛ فَيَحبَلن ويلدن في كل خمسة أشهر بطنًا ولا تلبث إلا قليلاً حتى تصير غنمًا كثيرة

---

(١) بلد بفارس .

إذا ولدت أولادها ؛ ثم حرَّر على هذا النحو بسنين فوجد ذلك أكثر من أربعمائة عنز . فقال : أنا أشترى بها مائة من البقر بكل أربعة أعنز ثورًا أو بقرة ، وأشترى أرضًا ، وبذرًا وأستأجر أكَرَةً[١] وأزرع على الثيران ، وأنتفع بألبان الإناث ونتاجها، فلا يأتى عليّ خمس سنين إلا وقد أصبت من الزرع مالاً كثيراً ، فأبني بيتًا فاخرًا وأشترى إماء وعبيدًا وأتزوج امرأة جميلة ذات حسن ؛ ثم تأتي بغلام سري نجيب فأختار له أحسن الأسماء ؛ فإذا ترعرع أدبته، وأحسنت تأديبه وأشدد عليه في ذلك فإن يقبل مني، وإلا ضربته بهذه العكازة ، وأشار بيده إلى الجرة فكسرها ، فسال ما كان فيها على وجهه .

وإنَّما ضربت لك هذا المثل لكي لا تعجل بذكر ما لا ينبغي ذكره ، وما لا تدري أيصح أم لا يصح ، فاتعظ الناسك بما حكت زوجته .

ثمَّ إنَّ المرأة ولدت غلامًا جميلاً ، ففرح به أبوه ، وبعد أيَّام حان لها أن تتطهَّر فقالت المرأة للناسك : اقعد عند ابنك حتى أذهب إلى الحمام فأغتسل وأعود .

ثمَّ إنها انطلقت إلى الحمام ، وخلفت زوجها والغلام . فلم يلبث أن جاءه رسول الملك يستدعيه ، ولم يجد من يخلفه عند ابنه ، غير ابن عرس داجن[٢] عنده ، كان قد رباه صغيراً ، فهو عنده عديل ولده ، فتركه الناسك عند الصبي ، وأغلق عليهما البيت ، وذهب مع الرسول فخرج من بعض أجحار البيت حيَّة سوداء ، فدنت من الغلام ، فضربها ابن عرس ، ثمَّ وثب عليها فقتلها ثم قطعها وامتلأ فمه من دمها ، ثم جاء الناسك ، وفتح الباب ، فالتقاه ابن عرس كالمبشر له بما صنع من قتل الحيَّة ، فلمَّا رآه ملوثًا بالدم ، وهو مذعور ، طار عقله وظنَّ أنه قد خنق ولده ، ولم يتثبت في أمره ، ولم يترو فيه ، حتى يعلم حقيقة الحال،

(١) جمع أكار وهو الحرَّاث .
(٢) آلف .

ويعـمل بغيـر ما ظن من ذلك ، ولكن عـجَّل على ابن عرس ، وضـربه بعكازة كانت في يده ، على أم رأسه ، فمات ، ودخل الناسك فرأى الغلام سليمًا حيًا ، وعنده أسود مقطع ، فلمـا عرف القصة ، وتبين له سوء فـعله في العجلة ، لطم على رأسـه ، وقال ليـتنى لم أرزق هذا الولد ، ولم أغدر هذا الغـدر ! ودخلت امرأته فوجدته على تلك الحال ، فقالت له : ما شأنك ؟ فأخبرها بالخبر من حسن فعل ابن عرس وسوء مكافأته له . فقـالت : هذه ثمرة العجلة ! فهذا مثل من لا يتثَّبت فى أمره ، بل يفعل أغراضه بالسرعة والعجلة .

**( انقضى باب الناسك وابن عرس )**

❊ ❊ ❊

## باب : الجُرذ والسِّنور

قال دبشليم الملك لبيدبا الفيلسوف : قد سمعت هذا المثل فاضرب لي مثل رجل كثر أعداؤه ، وأحدقوا به من كل جانب ، فأشرف معهم على الهلاك ، فالتمس النجاة والمخرج بموالاة بعض أعدائه ومصالحته ، فسلم من الخوف وأمن ؛ ثمَّ وفى لمن صالحه منهم .

قال الفيلسوف : إنَّ المودَّة والعداوة لا تثبتان على حالة واحدة أبدًا . وربما حالت المودة إلى العداوة ، وصارت العداوة ولاية وصداقة ، ولهذا حوادث وعلل وتجارب وذو الرأى يحدث لكل ما يحدث من ذلك رأيًا جديدًا أما من قبل العدو فبالبأس ، وأما من قبل الصديق فبالاستئناس ، ولا تمنع ذا العقل عداوة كانت في نفسه لعدوه من مقاربته والاستنجاد به على دفع مخوف أو جر مرغوب ومن عمل في ذلك بالحزم ظفر بحاجته ومثل ذلك مثل الجرذ والسنور حين وقعا في الورطة فنجوا باصطلاحهما جميعًا من الورطة والشدة .

قال الملك : وكيف كان ذلك ؟

قال بيدبا : زعموا أنَّ شجرة عظيمة كان في أصلها جحر سنور يقال له رومي ، وكان قريبًا منه جحر جرذ يقال له فريدون ، وكان الصيادون كثيرًا يتداولون ذلك المكان ، يصيدون فيه الوحش والطير ؛ فنزل ذات يوم صياد ، فنصب حبالته قريبًا من موضع رومى ، فلم يلبث أن وقع فيها ، فخرج الجرذ يدب ، ويطلب ما يأكل ، وهو حذر من رومى ، فبينما هو يسعى إذ بصر به في الشرك ، فسر واستبشر ، ثمَّ التفت فرأى خلفه ابن عرس ، يريد أخذه ؛ وفي الشجرة بومًا ، يريد اختطافه ؛ فتحير في أمره ، وخاف إن رجع وراءه أخذه ابن عرس ، وإن ذهب يمينًا أو شمالاً اختطفه البوم ، وإن تقدَّم أمامه افترسه السنور .

فقال في نفسه : هذا بلاء قد اكتنفني ، وشرور تظاهرت عليَّ ، ومحن قد

أحاطت بي ، وبعد ذلك فمعى عقلي ، فلا يفزعني أمري ، ولا يهولني شأني ، ولا يلحقني الدهش ولا يذهب قلبي شَعَاعًا فالعاقل لا يَفرَقُ[1] عند سداد رأيه ، ولا يعزب عنه ذهنه على حال ، وإنما العقل شبيه بالبحر الذى لا يدرك غوره ، ولا يبلغ البلاء من ذى الرأى مجهوده فيهلكه ، وتحقق الرجاء لا ينبغي أن يبلغ منه مبلغًا يبطره ويسكره فيعمى عليه أمره ، ولست أرى لي من هذا البلاء مخلصًا إلا مصالحة السنور فإنه قد نزل به من البلاء مثل ما قد نزل بي أو بعضه ولعله إن سمع كلامي الذى أكلمه به ، ووعى عني فصيح خطابي ، ومحض صدقي الذى لا خلاف فيه ، ولا خداع معه ففهمه ، وطمع في معونتي إيَّاه، نتخلص جميعًا .

ثم إن الجرذ دنا من السنور فقال له : كيف حالك ؟

قال له السنور : كما تحب في ضنك وضيق.

قال : وأنا اليوم شريكك في البلاء ، ولست أرجو لنفسي خلاصًا إلا بالذى أرجو لك فيه الخلاص وكلامي هذا ليس فيه كذب ولا خديعة ، وابن عرس ها هو كامن لي ، والبوم يرصدني ، وكلاهما لي ولك عدو ، فإن جعلت لي الأمان قطعت حبائلك ، وخلصتك من هذه الورطة ، فإذا كان ذلك تخلص كل واحد منا بسبب صاحبه ، كالسفينة والركاب في البحر فبالسفينة ينجون وبهم تنجو السفينة فلمَّا سمع السنور كلام الجرذ ، وعرف أنه صادق ، قال له : إنَّ قولك هذا لشبيه بالحق ، وأنا أيضًا راغب فيما أرجو لك ولنفسي به الخلاص ، ثم إنك إن فعلت ذلك فسأشكرك ما بقيت. قال الجرذ: فإني سأدنو منك ، فأقطع الحبائل كلها إلا حبلاً واحدًا أبقيه لأستوثق لنفسي منك. ثم أخذ في قرض حبائله ثم إن البوم وابن عرس لما رأيا دنو الجرذ من السنور أيسا منه ، وانصرفا .

ثم إن الجرذ أبطأ على رومي في قطع الحبائل ، فقال له : ما لي لا أراك

---

(١) يخاف .

مجداً في قطع حبائلي ؟ فإن كنت قد ظفرت بحاجتك ، فتغيرت عما كنت عليه وتوانيت في حاجتي ، فما ذلك من فعل الصالحين ، فإن الكريم لا يتواني في حق صاحبه . وقد كان لك في سابق مودتي من الفائدة والنفع ما قد رأيت . وأنت حقيق أن تكافئني بذلك ، ولا تذكر العداوة التى بيني وبينك فالذى حدث بيني وبينك من الصلح حقيق أن ينسيك ذلك ، مع ما في الوفاء من الفضل والأجر ، وما في الغدر من سوء العاقبة ؛ فإن الكريم لا يكون إلا شكوراً غير حقود ، تنسيه الخلة الواحدة من الإحسان الخلال الكثيرة من الإساءة ، وقد يقال إن أعجل العقوبة عقوبة الغدر ، ومن إذا تُضرع إليه ، وسئل العفو ، فلم يرحم ولم يعف فقد غدر .

قال الجرذ : إنَّ الصديق صديقان : طائع ومضطر ، وكلاهما يلتمسان المنفعة ويحترسان من المضرة ، فأما الطائع فَيُستَرسَل إليه ، ويُؤمَنُ في جميع الأحوال . وأما المضطر ففي بعض الأحوال يسترسل إليه ، وفي بعضها يتحذر منه ، ولا يزال العاقل يرتهن منه بعض حاجاته ، لبعض ما يَتَّقِي ويخاف . وليس عاقبة التواصل من المتواصل إلا طلب عاجل النفع وبلوغ مأموله . وأنا واف لك بما جعلت لك ، ومحترس منك مع ذلك . من حيث أخافك تخوفًا أن يصيبني منك ما ألجأني خوفه إلى مصالحتك، وألجأك إلى قبول ذلك مني فإنَّ لكل عمل حينًا ، فما لم يكن منه في حينه فلا حسن لعاقبته، وأنا قاطع حبائلك كلها غير أني تارك عقدة واحدة أرتهنك بها ، ولا أقطعها إلا في الساعة التى أعلم أنك فيها عني مشغول وذلك عند معاينتي الصياد .

ثم إن الجرذ أخذ في قطع حبائل السنور ، فبينما هو كذلك إذ وافى الصياد ، فقال له السنور : الآن جاء الجد في قطع حبائلي . فأجهد الجرذ نفسه في القرض حتى إذا فرغ وثب السنور إلى الشجرة على دهش من الصياد ، ودخل الجرذ بعض الأجحار ، وجاء الصياد فأخذ حبائله مقطعة ثم انصرف خائبًا .

ثم إن الجرذ خرج بعد ذلك وكره أن يدنو من السنور فناداه السنور : أيها الصديق الناصح ، ذو البلاء الحسن عندى ، ما منعك من الدنو إليّ لأجازيك بأحسن ما أسديت إلي ؟ هلم إليَّ ولا تقطع إخائي فإنه من اتخذ صديقًا ، وقطع إخاءه ، وأضاع صداقته ، حرم ثمرة إخائه ، وأيس من نفعه الإخوان والأصدقاء. وإن يدك عندى لا تنسى ، وأنت حقيق أن تلتمس مكافأة ذلك مني ومن إخواني وأصدقائي ولا تخافن مني شيئًا ، واعلم أن ما قبلي لك مبذول ثم حلف واجتهد على صدقه فيما قال .

فناداه الجرذ : رب صداقة ظاهرة باطنها عداوة كامنة ، وهي أشد من العداوة الظاهرة ومن لم يحترس منها ، وقع موقع الرجل الذى يركب ناب الفيل المغتلم ، ثم يغلبه النعاس ، فيستيقظ تحت فراسن[1] الفيل ، فيدوسه ويقتله ، وإنما سمى الصديق صديقًا ؛ لما يرجى من نفعه ، وسمى العدو عدوًا ، لما يخاف من ضرره والعاقل إذا رجا نفع العدو أظهر له الصداقة ، وإذا خاف ضر الصديق أظهر له العداوة . ألا ترى تتبع البهائم أمهاتها رجاء ألبانها ؛ فإذا انقطع ذلك انصرفت عنها ، وربما قطع الصديق عن صديقه بعض ما كان يصله ، فلم يخف شره لأن أصل أمره لم يكن عداوة . فأما من كان أصل أمره عداوة جوهرية ، ثم أحدث صداقة لحاجة حملته على ذلك ، فإنه إذا زالت الحاجة التى حملته على ذلك ، زالت صداقته ، فتحولت عداوة ، وصار إلى أصل أمره ، كالماء الذى يسخن بالنار ، فإذا رفع عنها عاد باردًا ، وليس من أعدائي عدو أضر لي منك . وقد اضطرني وإياك حاجة إلى ما أحدثنا من المصالحة ، وقد ذهب الأمر الذى احتجت إليَّ واحتجت إليك فيه ، وأخاف أن يكون مع ذهابه عود العداوة . ولا خير للضعيف في قرب العدو القوي ، ولا للذليل في قرب العدو العزيز ، ولا أعلم

(١) جمع فرسن وهو بمنزلة الحافر .

لك قبلي حاجة إلا أن تكون تريد أكلي ، ولا أعلم لي قبلك حاجة ، وليس عندي بك ثقة فإني قد علمت أن الضعيف المحترس من العدو القوي أقرب إلى السلامة من القوي إذا اغتر بالضعيف واسترسل إليه . والعاقل يصالح عدوه إذا اضطر إليه ، ويصانعه ، ويظهر له وده ؛ ويريه من نفسه الاسترسال إليه إذا لم يجد من ذلك بدًا ، ثم يعجل الانصراف عنه حين يجد إلى ذلك سبيلاً . واعلم أن سريع الاسترسال لا تقال عثرته ، والعاقل يفي لمن صالحه من أعدائه بما جعل له من نفسه ، ولا يثق به كل الثقة ، ولا يأمنه على نفسه مع القرب منه . وينبغي أن يبعد عنه ما استطاع . وأنا أودك من بعيد ، وأحب لك من البقاء والسلامة ، ما لم أكن أحبه لك من قبل ولا عليك أن تجازيني على صنيعي إلا بمثل ذلك ، إذ لا سبيل إلى اجتماعنا والسلام .

**( انقضى باب الجرذ والسنور )**

❊ ❊ ❊

## باب : ابن الملك والطائر فنزة

قال دبشليم الملك لبيدبا الفيلسوف : قد سمعت هذا المثل ، فاضرب لي مثل أهل التِّرات[1] الذين لا بد لبعضهم من اتقاء بعض .

قال بيدبا : زعموا أن ملكًا من ملوك الهند كان يقال له بَرِيدُونُ ، وكان له طائر يقال له فنزة ، وكان له فرخ وكان هذا الطائر وفرخه ينطقان بأحسن منطق ، وكان الملك بهما معجبًا . فأمر بهما أن يجعلا عند امرأته ، وأمرها بالمحافظة عليهما . واتفق أن امرأة الملك ولدت غلامًا فألف الفرخ الغلام . وكلاهما طفلان يلعبان جميعًا . وكان فنزة يذهب إلى الجبل كل يوم ، فيأتي بفاكهة لا تعرف ، فيطعم ابن الملك شطرها ويطعم فرخه شطرها . فأسرع ذلك في نشأتهما ، وزاد في شبابهما وبان عليهما أثره عند الملك ، فازداد لفنزة إكرامًا وتعظيمًا ومحبة ؛ حتى إذا كان يوم من الأيام وفنزة غائب في اجتناء الثمرة ، وفرخه في حجر الغلام ، ذرق في حجره ، فغضب الغلام ، وأخذ الفرخ فضرب به الأرض فمات.

ثمَّ إنَّ فنزة أقبل فوجد فرخه مقتولاً فصاح وحزن وقال: قبحًا للملوك الذين لا عهد لهم ولا وفاء ! ويل لمن ابتلى بصحبة الملوك الذين لا حمية لهم ولا حرمة ولا يحبون أحدًا ولا يكرُم عليهم إلا إذا طمعوا فيما عنده من غَنَاء واحتاجوا إلى ما عنده من علم فيكرمونه لذلك ، فإذا ظفروا بحاجتهم منه ، فلا ود ، ولا إخاء ولا إحسان، ولا غفران ذنب ، ولا معرفة حق ، هم الذين أمرهم مبني على الرياء والفجور وهم يستصغرون ما يرتكبونه من عظيم الذنوب، ويستعظمون اليسير إذا خولفت فيه أهواؤهم . ومنهم هذا الكفور الذى لا رحمة له ، الغادر

(١) جمع ترة وهى الثأر .

بأليفه وأخيـه ثم وثب في شدة حنقه على وجه الغلام ففـقأ عينه وطار فوقع على شُرفة المنزل .

ثم إنه بلغ الملك ذلك ، فجزع أشد الجـزع ، ثم طمع أن يحتال له ، فوقف قريبًا منه ، وناداه ، وقال له : إنك آمن ، فانزل يا فنزة .

فقال له : أيها الملك إنَّ الغادر مأخوذ بغدره ، وإنه إن أخطأه عاجل العقوبة ، لم يخطئه الآجل ؛ حتـى أنه يدرك الأعقاب وأعقاب الأعـقاب ، وإن ابنك غدر بابني فعجلت له العقوبة .

قال الملك : لعمـرى قد غدرنا بابنك ، فانتقـمت منا فليس لك قبلنا ولا لنا قبلك وتر مطلوب فارجع إلينا آمنًا .

قـال فنزة : لست براجع إليك أبـدًا ، فإن ذوي الرأى قـد نهـوا عن قـرب الموتـور[1] فإنه لا يزيدك لطف الحقود ولينه وتكرمـته إياك إلا وحشة منه ، وسوء ظن به ، فـإنك لا تجد للحـقود الموتـور أمانًا هو أوثق لك من الذعـر منه ، ولا أجود من البعد عنه ، والاحتراس منه أولى . وقد كان يقال : إنَّ العاقل يعد أبويه أصدقـاء ، والإخوة رفـقاء ، والأزواج ألفـاء ، والبنين ذِكرًا والـبنات خصـماء ، والأقارب غـرماء ويعـد نفسه فـريدًا ، وأنا الفريد الوحـيد الغريـب الطريد ، قد تزودت من عندكم من الحزن عبئًا ثقيلاً ، لا يحمله معي أحد ، وأنا ذاهب فعليك مني السلام .

قال له الملك : إنَّك لو تكون قـد اجترأت بما صنعناه بك ، أو كـان صنيعك بنا من غير ابتداء منا بالغدر ، كان الأمـر كما ذكرت ، فأما إذ كنا نحن بدأناك ، فما ذنبك ؟ وما الذى يمنعك من الثقة بنا ؟ هلم فارجع ؛ فإنك آمن .

قال فنزة : اعلم أن الأحقاد لها في القلوب مـواقع مُمكَّنة موجعة ، فالألسن

---

(١) من قتل له قتيل فلم يدرك بدمه .

لا تصدق في خبرها عن القلوب ، والقلب أعدل شهادة من اللسان على القلب ، وقد علمت أنَّ قلبي لا يشهد للسانك ، ولا قلبك للساني .

قال الملك : ألم تعلم أن الضغائن والأحقاد تكون بين كثير من الناس : فمن كان ذا عقل ، كان على إماتة الحقد أحرص منه على تربيته .

قال فنزة : إنَّ ذلك لكما ذكرت ؛ ولكن ليس ينبغي لذى الرأى مع ذلك أن يظن أن الموتور الحقود ناس ما وتر به ، مصروف عنه فكره فيه ، وذو الرأى يتخوف المكر والخديعة والحيل ، ويعلم أن كثيرًا من العدو لا يستطاع بالشدة والمكابرة حتى يصاد بالرفق والملاينة ، كما يصاد الفيل الوحشي بالفيل الداجن .

قال الملك: إن العاقل الكريم لا يترك إلفه ولا يقطع إخوانه ولا يضيع الحفاظ وإن هو خاف على نفسه ؛ حتى إن هذا الخلق يكون في أوضع الدواب منزلة فقد علمت أن اللعابين يلعبون بالكلاب ، ثمَّ يذبحونها ويأكلونها ، ويرى الكلب الذى قد ألفهم ذلك فلا يدعوه إلى مفارقتهم ، ولا يمنعه من ألفته إياهم .

قال فنزة : إن الأحقاد مخوفة حيثما كانت فأخوفها وأشدها ما كان في أنفس الملوك فإن الملوك يدينون بالانتقام ، ويرون الدَّركَ والطلب بالوتر مكرمة وفخرًا ، وإنَّ العاقل لا يغتر بسكون الحقد إذا سكن فإنما مثل الحقد في القلب إذا لم يجد محركًا مثل الجمر المكنون ما لم يجد حطبًا فليس ينفك الحقد متطلعًا إلى العلل كما تبتغي النار الحطب فإذا وجد علة استعر استعار النار فلا يطفئه حسن كلام ولا لين ولا رفق، ولا خضوع ولا تضرع ولا مصانعة ولا شيء دون تلف الأنفس مع أنه رب واتر يطمع في مراجعة الموتور بما يرجو أن يقدر عليه من النفع له ، والدفع عنه ، ولكني أنا أضعف عن أن أقدر على شيء يذهب به ما في نفسك ولو كانت نفسك منطوية لي على ما تقول ما كان ذلك عني مغنيًا ولا أزال في خوف ووحشة وسوء ظن ، ما اصطحبنا فليس الرأى بيني وبينك إلا الفراق ، وأنا أقرأ عليك السلام .

قال الملك: لقد علمت أنه لا يستطيع أحـد لأحد ضرًا ولا نفعًا وأنه لا شيء من الأشياء صغيرًا ولا كبيرًا يصـيب أحدًا، إلا بقضاء وقدر معلوم، وكما أن خلق ما يخلق وولادة ما يولد، وبقاء ما يبقى، ليس إلى الخلائق منه شيء؛ كذلك فناء ما يـفنى ، وهلاك ما يهلك وليس لك فـي الذى صنعت بابني ذنب ، ولا لابنى فيما صنع بابنك ذنب ، إنما كان ذلك كله قدراً مقدوراً ، وكلانا له علة فلا نؤاخذ بما أتانا به القدر .

قال فنزة : إن القدر لكما ذكـرت لكن لا يمنع ذلك الحازم من توقى المخاوف والاحتراس من المكاره ، ولـكنه يجمع تصديقًا بالقدر وأخـذًا بالحزم والقوة ، وأنا أعلم أنك تكلمني بغير مـا في نفسك ، والأمر بيني وبينك غير صـغير لأن ابنك قتل ابني ، وأنا فقـأت عين ابنك وأنت تريد أن تشتفي بقتلي وتـختُلني عن نفسي والنفس تأبى الموت ، وقد كـان يقال : الفاقة بلاء والحزن بـلاء وقرب العدو بلاء وفراق الأحـبة بلاء والسـقم بلاء والهرم بلاء؛ ورأس البلايا كلـها الموت ، وليس أحد بأعلم بما في نفس الموجع الحزين ممن ذاق مثل ما به ، فأنا بما في نفسي عالم بما في نفسك ، للمثل الذى عندي من ذلك ، ولا خيـر لي في صحبتك ؛ فإنك لن تتذكر صنيعي بابنـك ، ولن أتذكر صنيع ابنك بابني ، إلا أحدث ذلك لقلوبنا تغييراً .

قال الملك : لا خـير فـيمن لا يستطـيع الإعراض عمـا في نفسـه ، وينساه ويهمله حتى لا يذكر منه شيئًا ، ولا يكون له في نفسه موقع .

قال فنزة : إن الرجل الذى في باطن قدمه قرحة ، إن هو حرص على المشي فلا بد أنه لا يزال يشتكى قـرحته ، والرجل الأرمد العين إذا استـقبل بها الريح ، تعرض لأن تزداد رمدًا . وكذلك الواتر إذا دنا من الموتور فقد عرض نفسه للهلاك ولا ينبغى لصاحب الدنيا إلا توقي المهالك والمتالف وتقدير الأمور ، وقلة الاتكال على الحول والقوة ، وقلة الاغترار بمن لا يأمن، فإنه من اتكل على قوته ، فحمله

ذلك على أن يسلك الطريق المخوف فقد سعى في حتف نفسه ومن لا يقدر لقمته وعظمها فوق ما يسع فوه فربما غص بها فمات ، ومن اغتر بكلام عدوه وانخدع له ، وضيع الحزم ، فهو أعدى لنفسه من عدوه ، وليس لأحد النظر في القدر الذى لا يدري ما يأتيه منه ولا ما يصرف عنه ولكن عليه العمل بالحزم والأخذ بالقوة ومحاسبة نفسه في ذلك ، والعاقل لا يثق بأحد ما استطاع ، ولا يقيم على خوف وهو يجد عنه مذهبًا ، وأنا كثير المذاهب ، وأرجو ألا أذهب وجهًا إلا أصبت فيه ما يغنيني فإن خلالاً خمسًا من تزودهن كفينه في كل وجه ، وآنسنه في كل غربة ، وقربن له البعيد ، وأكسبنه المعاش والإخوان أولهن كف الأذى ، والثانية حسن الأدب ، والثالثة مجانبة الريب ، والرابعة كرم الخلق ، والخامسة النُّبل في العمل ، وإذا خاف الإنسان على نفسه شيئًا طابت نفسه عن المال والأهل والولد والوطن فإنه يرجو الخلف من ذلك كله ولا يرجو عن النفس خلفًا وشر المال ما لا إنفاق منه وشر الأزواج التى لا تؤاتي بعلها ، وشر الولد العاصي العاق لوالديه ، وشر الإخوان الخاذل لأخيه عند النكبات والشدائد ، وشر الملوك الذى يخافه البريء ، ولا يواظب على حفظ أهل مملكته ، وشر البلاد بلاد لا خصب فيها ولا أمن وإنه لا أمن لي عندك أيها الملك ولا طمأنينة لي في جوارك ، ثمَّ ودَّع الملك وطار ، فهذا مثل ذوي الأوتار الذين لا ينبغي لبعضهم أن يثق ببعض .

**( انقضى باب ابن الملك والطائر )**



## باب : الأسد والشَّغبَر النَّاسِك وهو ابن آوى

قال دبشليم الملك لبيدبا الفيلسوف : قد سمعت هذا المثل، فاضرب لي مثل الملك الذى يراجع[1] من أصابته منه عقوبة من غير جرم ، أو جفوة من غير ذنب.

قال الفيلسوف : إنَّ الملك لو لم يراجع من أصابته منه جفوة عن ذنب أو عن غير ذنب ، ظلم أو لم يظلم ، لأضرَّ ذلك بـالأمور ، ولكن الملك حقيق أن ينظر في حال من ابتلي بذلك ، ويخبر ما عنده من المنافع ، فـإن كان ممن يوثق به في رأيه وأمانتـه ، فإنَّ الملك حقـيق بالحرص على مراجـعته ، فـإنَّ المُلكَ لا يستطاع ضبطه إلا مـع ذوي الرأى وهم الوزراء والأعوان ولا ينتفـع بالوزراء والأعوان إلا بالمودة والنصيـحة ؛ ولا مودَّة ولا نـصيحـة إلا لذوي الرأى والعفاف . وأعـمال السلطان كثيرة ؛ والذين يـحتاج إليهم من العمال والأعوان كـثيرون ، ومن يجمع منهم ما ذكرت من النصيحة والعفاف قليل. والمثل في ذلك مثل الأسد وابن آوى.

قال الملك : وكيف كان ذلك ؟

قال الفيلسوف : زعموا أنَّ ابن آوى كان يسكن في بعض الدِّحال[2] ، وكان متزهدًا متعففًا ، مع بنات آوى وذئاب وثعالب ، ولم يكن يصنع ما يصنعن ، ولا يُغير كما يُغرن ، ولا يُهريقُ دمًا، ولا يأكل لحمًا ، فخاصمه تلك السباع ، وقلن: لا نرضى بسـيرتك ولا رأيـك الذى أنت عليه من تـزهدك مع أن تزهدك لا يغني عنك شيئًا ، وأنت لا تسـتطيع أن تكون إلا كأحدنا تسعى مـعنا ، وتفعل فعلنا ، فما الذى كفك عن الدماء وعن أكل اللحم ؟

قال ابن آوى : إن صـحبتي إيَّاكنَّ لا تؤثمنـي إذا لم أُؤثم نفسي ؛ لأن الآثام ليست من قـبل الأماكن والأصحـاب ، ولكنها من قبل القلوب والأعـمال ، ولو كان صاحب المكان الصالح يكون عمله فيه صالحًا ، وصاحب المكان السيء يكون

---

(١) يعاود . (٢) نقب ضيق فمه ، متسع أسفله .

عمله فيه سيئًا ، كان حينئذ من قتل الناسك في محرابه لم يأثم ؛ ومن استحياه في معركة القتال أثم ، وإني إنما صحبتكن بنفسي ، ولم أصحبكن بقلبي وأعمالي لأني أعرف ثمرة الأعمال ، فلزمت حالي .

وثبت ابن آوى على حاله تلك ، واشتهر بالنسك والتزهد ؛ حتى بلغ ذلك أسدًا كان ملك تلك الناحية ، فرغب فيه ، لما بلغه عنه من العفاف والنزاهة والزهد والأمانة ، فأرسل إليه يستدعيه فلما حضر كلمه وآنسه فوجده في جميع الأمور وفق غرضه .

ثمَّ دعاه بعد أيام إلى صحبته وقال له : تعلم أن عمالي كثير ، وأعواني جم غفير ، وأنا مع ذلك إلى الأعوان محتاج ، وقد بلغني عنك عفاف وأدب وعقل ودين ، فازددت فيك رغبة ، وأنا موليك من عملي جسيمًا ، ورافعك إلى منزلة شريفة ، وجاعلك من خاصتي .

قال ابن آوى : إنَّ الملوك أحقاء باختيار الأعوان فيما يهتمون به من أعمالهم وأمورهم ، وهم أحرى ألا يكرهوا على ذلك أحدًا فإن المكره لا يستطيع المبالغة في العمل ، وإني لعمل السلطان كاره ، وليس لي به تجربة ، ولا بالسلطان رفق، وأنت ملك السباع ، وعندك من أجناس الوحوش عدد كثير ، فيهم أهل نُبل وقوَّة ولهم على العمل حرص ، وعندهم به وبالسلطان رفق ، فإن استعملتهم أغنوا عنك ، واغتبطوا لأنفسهم بما أصابهم من ذلك .

قال الأسد : دع عنك هذا فإني غير معفيك من العمل .

قال ابن آوى : إنَّما يستطيع خدمة السلطان رجلان لست بواحد منهما : إمَّا فاجر مصانع ، ينال حاجته بفجوره ، ويسلم بمصانعته ؛ وإما مغفل لا يحسده أحد ، فمن أراد أن يخدم السلطان بالصدق والعفاف فلا يخلط ذلك بمصانعته ؛ وحينئذ قل أن يسلم على ذلك ؛ لأنه يجتمع عليه عدو السلطان وصديقه بالعداوة والحسد ، أما الصديق فينافسه في منزلته ، ويبغى عليه فيها ، ويعاديه لأجلها ؛

وأما عدو السلطان فيضطغن عليه ، لنصيحته لسلطانه ، وإغنائه عنه ، فإذا اجتمع عليه هذان الصنفان فقد تعرَّض للهلاك .

قال الأسد : لا يكونن بغي أصحابي عليك وحسدهم إيَّاك مما يعرض في نفسك ، فأنت معي ، وأنا أكفيك ذلك ، وأبلغ بك من درجات الكرامة والإحسان على قدر همَّتك .

قال ابن آوى : إن كان الملك يريد الإحسان إليَّ ، فليَدَعني في هذه البرية أعيش آمنًا ، قليل الهم ، راضيًا بعيشي من الماء والعُشب ، فإني قد علمت أنَّ صاحب السلطان يصل إليه من الأذى والخوف في ساعة واحدة ما لا يصل إلى غيره في طول عمره؛ وإن قليلاً من العيش في أمن وطمأنينة خير من كثير من العيش في خوف ونصب .

قال الأسد : قد سمعت مقالتك ، فلا تخف شيئًا مما أراك تخاف منه ، ولست أجد بدًا من الاستعانة بك في أمري .

قال ابن آوى : أمَّا إذا أبى الملك إلا ذلك فليجعل لي عهدًا ، إن بغى عليَّ أحد من أصحابه عنده ، ممن هو فوقي ؛ مخافة على منزلته، أو ممن هو دوني ؛ لينازعني في منزلتي ، فذكر عند الملك منهم ذاكر بلسانه ، أو على لسان غيره ما يريد به تحميل الملك عليّ ، ألا يعجل في أمرى ، وأن يتثبَّت فيما يرفع إليه ويذكر عنده من ذلك ، ويفحص عنه ، ثم ليصنع ما بدا له ، فإذا وثقت منه بذلك ، أعنته بنفسي فيما يحب ، وعملت له فيما أولاني بنصيحة واجتهاد ، وحرصت على ألا أجعل له على نفسي سبيلاً .

قال الأسد : لك ذلك عليَّ وزيادة ، ثمَّ ولاه خزائنه ، واختص به دون أصحابه ، وزاد في كرامته .

فلما رأى أصحاب الأسد ذلك ، غاظهم وساءهم ، فأجمعوا كيدهم ، واتفقوا كلُّهم على أن يحملوا عليه الأسد ، وكان الأسد قد استطاب لحمًا ، فعزل

منه مقدارًا ، وأمره بالاحتفاظ به ، وأن يرفعه في أحصن موضع طعامه وأحرزه ليعاد عليه ؛ فأخذوه من موضعه ، وحملوه إلى بيت ابن آوى فخبئوه فيه ، ولا علم له به ، ثمَّ حضروا يكذبونه إن جرت في ذلك حال .

فلما كان من الغد ، ودعا الأسد بغدائه ، فقد ذلك اللحم ، فالتمسه ولم يجده ؛ وابن آوى لم يشعر بما صنع في حقه من المكيدة فحضر الذين عملوا المكيدة ، وقعدوا في المجلس ، ثمَّ إنَّ الملك سأل عن اللحم وشدد فيه ، وفي المسألة عنه ، فنظر بعضهم إلى بعض فقال أحدهم قول المخبر الناصح : إنه لابد لنا من أن نخبر الملك بما يضره وينفعه ، وإن شقَّ ذلك على من يشق عليه ، وإنه بلغني أن ابن آوى هو الذى ذهب باللحم إلى منزله قال الآخر : لا أراه يفعل هذا، ولكن انظروا وافحصوا فإن معرفة الخلائق شديدة . فقال الآخر : لعمرى ما تكاد السرائر تعرف وأظنكم إن فحصتم عن هذا وجدتم اللحم ببيت ابن آوى ، وكل شيء يذكر من عيوبه وخيانته نحن أحق أن نصدقه . قال الآخر : لئن وجدنا هذا حقًا فليست بالخيانة فقط ، ولكن مع الخيانة كفر النعمة ، والجراءة على الملك . قال الآخر : أنتم أهل العدل والفضل ، لا أستطيع أن أكذبكم ، ولكن سيبين هذا لو أرسل الملك إلى بيته من يفتشه . قال آخر : إن كان الملك مفتشًا منزله فليعجل فإن عيونه وجواسيسه مبثوثة بكل مكان .

ولم يزالوا في هذا الكلام وأشباهه ، حتى وقع في نفس الأسد ذلك ؛ فأمر بابن آوى فحضر ، فقال له : أين اللحم الذى أمرتك بالاحتفاظ به ؟ قال : دفعته إلى صاحب الطعام ليقربه إلى الملك ، فدعا الأسد بصاحب الطعام ؛ وكان ممن شايع وبايع مع القوم على ابن آوى ، فقال : ما دفع إليَّ شيئًا ، فأرسل الأسد أمينًا إلى بيت ابن آوى ليفتشه ، فوجد فيه ذلك اللحم ؛ فأتى به الأسد .

فدنا من الأسد ذئب لم يكن تكلَّم في شيء من ذلك ، وكان يظهر أنه من العدول الذين لا يتكلمون فيما لا يعلمون ، حتى يتبين لهم الحق . فقال : بعد

أن اطلع الملك على خيانة ابن آوى فلا يعفون عنه فإنه إن عفا عنه لم يطلع الملك بعدها على خيانة خائن ، ولا ذنب مذنب ، فأمر الأسد بابن آوى أن يخرج ، ويحتفظ به . فقال بعض جلساء الملك : إني لأعجب من رأى الملك ومعرفته بالأمور كيف يخفى عليه أمر هذا ، ولم يعرف خِبَّه ومخادعته ؟ وأعجب من هذا أني أراه سيصفح عنه ، بعد الذى ظهر منه .

فأرسل الأسد بعضهم رسولاً إلى ابن آوى يلتمس منه العذر ، فرجع إليه الرسول برسالة كاذبة اخترعها ؛ فغضب الأسد من ذلك وأمر بابن آوى أن يقتل . فعلمت أم الأسد أنَّه قد عجل في أمره ؛ فأرسلت إلى الذين أُمِرُوا بقتله أن يؤخروه ، ودخلت على ابنها ، فقالت : يا بني بأى ذنب أمرت بقتل ابن آوى ؟ فأخبرها بالأمر . فقالت : يا بني عجلت ، وإنما يسلم العاقل من الندامة بترك العجلة وبالتثبت ، والعجلة لا يزال صاحبها يجتني ثمرة الندامة بسبب ضعف الرأى ، وليس أحد أحوج إلى التؤدة والتثبت من الملوك فإن المرأة بزوجها ، والولد بوالديه ، والمتعلم بالمعلم ، والجند بالقائد ، والناسك بالدين ، والعامة بالملوك ، والملوك بالتقوى ، والتقوى بالعقل ، والعقل بالتثبت والأناة ، ورأس الكل الحزم ، ورأس الحزم للملك معرفة أصحابه ، وإنزالهم منازلهم على طبقاتهم ، واتهامه بعضهم على بعض ، فإنه لو وجد بعضهم إلى هلاك بعض سبيلاً لفعل ، وقد جربت ابن آوى ، وبلوت رأيه وأمانته ومروءته ، ثم لم تزل مادحًا له راضيًا عنه ، وليس ينبغي للملك أن يَخَوِّنَهُ بعد ارتضائه إياه وائتمانه له؛ ومنذ مجيئه إلى الآن لم يطلع له على خيانة إلا على العفة والنصيحة ، وما كان رأى الملك أن يعجل عليه لأجل طابق لحم ، وأنت أيها الملك حقيق أن تنظر في حال ابن آوى ؛ لتعلم أنَّه لم يكن ليتعرض للحم استودعته إياه ، ولعل الملك إن فحص عن ذلك ظهر له أن ابن آوى له خصماء هم الذين ائتمروا بهذا الأمر ، وهم الذين ذهبوا باللحم إلى بيته فوضعوه فيه ، فإن الحدأة إذا كان في رجلها

قطعة لحم اجتمع عليها سائر الطير ، والكلب إذا كان معه عظم اجتمعت عليه الكلاب ، وابن آوى منذ كان إلى اليوم نافع ، وكان محتملاً لكل ضرر في جنب منفعة تصل إليك ، ولكل عناء يكون لك فيه راحة، ولم يكن يطوى دونك سراً.

فبينما أم الأسد تقص عليه هذه المقالة ، إذ دخل على الأسد بعض ثقاته ، فأخبره ببراءة ابن آوى . فقالت أم الأسد ، بعد أن اطلع الملك على براءة ابن آوى: إن الملك حقيق ألا يرخص لمن سعى به لئلا يتجرؤوا على ما هو أعظم من ذلك ؛ بل يعاقبهم عليه لكي لا يعودوا إلى مثله ؛ فإنه لا ينبغي للعاقل أن يراجع في أمر الكفور للحسنى ، الجرىء على الغدر ، الزاهد في الخير ، الذى لا يوقن بالآخرة ، وينبغى أن يجزى بعمله ، وقد عرفت سرعة الغضب وفرط الهفوة ، ومن سخط باليسير لم يبلغ رضاه بالكثير ، والأولى لك أن تراجع ابن آوى ، وتعطف عليه ؛ ولا يؤيسنك من مناصحته ما فرط منك إليه من الإساءة فإن من الناس من لا ينبغي تركه على حال من الأحوال ، وهو من عرف بالصلاح والكرم وحسن العهد والشكر والوفاء والمحبة للناس والسلامة من الحسد والبعد من الأذى والاحتمال للإخوان والأصحاب وإن ثقلت عليه منهم المؤونة ، وأما من ينبغي تركه فهو من عرف بالشراسة ولؤم العهد وقلة الشكر والوفاء والبعد من الرحمة والورع ، واتصف بالجحود لثواب الآخرة وعقابها ، وقد عرفت ابن آوى وجربته وأنت حقيق بمواصلته .

فدعا الأسد بابن آوى واعتذر إليه مما كان منه ووعده خيراً ، وقال : إني معتذر إليك ورادك إلى منزلتك .

فقال ابن آوى : إن شر الأخلاء من التمس منفعة نفسه بضر أخيه ، ومن كان غير ناظر له كنظره لنفسه ، أو كان يريد أن يرضيه بغير الحق لأجل اتباع هواه ، وكثيراً ما يقع ذلك بين الأخلاء ، وقد كان من الملك إليّ ما علم ، فلا يغلظن على نفسه ما أخبره به أني به غير واثق ، وأنه لا ينبغي لي أن أصحبه ،

فإن الملوك لا ينبغي أن يصحبوا من عاقبوه أشد العقاب ؛ ولا ينبغي لهم أن يرفضوه أصلاً فإن ذا السلطان إذا عزل كان مستحقًا للكرامة في حالة إبعاده والإقصاء له .

فلم يلتفت الأسد إلى كلامه ، ثمَّ قال له : إني قد بلوت طباعك وأخلاقك، وجربت أمانتك ووفاءك وصدقك ، وعرفت كذب من تمحل الحيل لتحملي عليك ، وإني منزلك من نفسي منزلة الأخيار الكرماء ، والكريم تنسيه الخلة الواحدة من الإحسان ، الخلال الكثيرة من الإساءة ، وقد عدنا إلى الثقة بك، فعد إلى الثقة بنا ؛ فإن لنا ولك بذلك غبطة وسرورًا ، فعاد ابن آوى إلى ولاية ما كان يلي ، وضاعف له الملك الكرامة ، ولم تزده الأيام إلا تقربًا من السلطان .

( انقضى باب الأسد وابن آوى )



## باب : إيلاذ وبلاذ وإيراخت

قال دبشليم الملك لبيدبا الفيلسوف : قد سمعت هذا المثل ، فاضرب لي مثلاً في الأشياء التى يجب على الملك أن يلزم بها نفسه، ويحفظ ملكه ويثبت سلطانه؛ ويكون ذلك رأس أمره وملاكه : أبالحلم أم بالمروءة أم بالشجاعة أم بالجود ؟

قال بيـدبا : إنَّ أحق ما يحـفظ به الملك ملكه الحلم ، وبه تثبت السلطنة ؛ والحلم رأس الأمور وملاكـها ، وأجود ما كان في الملوك : كـالذى زعموا من أنَّه كان ملك يـدعى بلاذ ، وكان له وزير يدعى إيلاذ ، وكـان متعـبِّدًا ناسكًا ، فنام الملك ذات ليلة ، فرأى في منامه ثمانيـة أحلام أفزعته ، فاستيـقظ مرعوبًا ، فدعا البراهمـة ، وهم النساك ليعـبروا رؤياه ، فلمـا حضروا بين يديه قص عليـهم ما رأى، فقالوا بأجمعهم : لقد رأى الملك عجبًا ، فإن أمهلنا سبعة أيام جئناه بتأويله قال الملك : قد أمهلتكم .

فخـرجوا من عنده ثم اجتمـعوا في منزل أحدهم وأتمروا بينهم وقـالوا : قد وجدتم علمًا واسعًا تدركون به ثأركم وتنتقمـون به من عدوكم وقد علمتم أنه قتل منا بالأمس اثني عـشر ألفًا ، وها هو قـد أطلعنا على سره وسـألنا تفسـير رؤياه فهلموا نغلظ له القول ونخوفه حتى يحمله الفرق والجزع على أن يفعل الذى نريد ونأمر فنقول : ادفع إليـنا أحباءك ومن يكرم عليك حتى نقتلهـم فإنا قد نظرنا في كتبنا فلم نر أن يدفع عنك ما رأيت لنفسك ومـا وقعت فيه من هذا الشر إلا بقتل من نسمى لك ، فـإن قال الملك : وما تريدون أن تقتلوا ؟ سـموهم لي . قلنا : نريد الملكة إيراخت أم جـوير المحمـودة أكرم نـسائك عليك ، ونريد جـوير أحب بنيك إليك وأفضلهم عندك ، ونريد ابن أخـيك الكريم ، وإيلاذ خليلك وصاحب أمرك، ونريد كالا الكاتب صـاحب سرك، وسيفك الذى لا يوجـد مثله ، والفيل الأبيض الذى لا تلحـقه الخيـل ، والفرس الذى هو مـركبك في القتـال ، ونريد

الفيلين الآخريـن العظيمين اللذين يكونان مع الفيل الذكر ، ونريد الـبُختي السريع القوي ، ونريد كباريُون الحكيم الفاضل العـالم بالأمور لننتقم منه بما فعل بنا ، ثم نقول : إنما ينبـغي لك أيها الملك أن تقتل هؤلاء الذين سمـيناهم لك ، ثم تجعل دماءهم في حوض تملؤه ، ثم تقعد فيه ، فـإذا خرجت من الحوض اجتمعنا نحن معاشر البراهمة من الآفاق الأربـعة نجول حولك فنرقيك ونتفل عليك ونمسح عنك الدم ونغسلك بالماء والدهن الطيب ، ثم تقوم إلى منزلك الـبهي فيدفع الله بذلك البلاء الذى نتـخوفه عليك ، فإن صـبرت أيها الملك وطابت نفسك عن أحـبائك الذين ذكرنـا لك ، وجعلتهـم فداءك تخلصت من البـلاء ، واستقـام لك ملكك وسلطانك ، واستخلفت من بعدهم من أحببت ، وإن أنت لم تفعل تخوفنا عليك أن يغصب ملكك أو تهلك ، فإن هو أطاعنا فيما نأمره قتلناه أي قِتلة شئنا .

فلما أجمعوا على ما أتمروا به رجعـوا إليه في اليوم السابع ، وقالوا له : أيها الملك ، إنا نظرنا في كتبنا في تفـسير ما رأيت ، وفحصنا عن الرأى فـيما بيننا ، فلتكن لك أيها الملك الطاهر الصالح الـكرامة ، ولسنا نقدر أن نعلمك بما رأينا إلا أن تخلو بنا ، فأخـرج الملك من كان عنده وخلا بهم فحدثـوا بالذى ائتمروا به ، فقال لهم : الموت خير لي من الحـياة إن أنا قتلت هؤلاء الذين هم عديل نفسي . وأنا ميت لا محالة ، والحيـاة قصيرة ، ولست كل الدهر ملكًا ، وإن الموت عندى وفراق الأحباء سواء ، قال له البَرَاهمة : إن أنت لم تغضب أخبرناك ، فأذن لهم. فـقالوا: أيهـا الملك إنك لم تقل صـوابًا حين تجـعل نفس غـيرك أعـز عندك من نفسك، فاحتفظ بنفسـك وملكك ، واعمل هذا الذى لك فيه الرجاء العظيم على ثقة ويقين ، وقر عينًا بملكك في وجـوه أهل مملكتك الذين شرفت وكرمت بهم ، ولا تدع الأمر العظيم وتأخذ بالضعيف فتهلك نفسك إيثارًا لمن تحب ، واعلم أيها الملك أن الإنسـان إنما يحب الحـياة مـحـبة لنفـسـه ، وأنه لا يحب من أحب من الأحباب إلا ليـتمتع بهم في حـياته ، وإنما قوام نفسك بعـد الله تعالى بملكك ،

وإنك لم تنل ملكك إلا بالمشقة والعناء الكثير في الشهور والسنين ، وليس ينبغي أن ترفضه ويهون عليك ، فاستمع كلامنا ، فانظر لنفسك مناها ، ودع ما سواها فإنه لا خطر له .

فلما رأى الملك أن البراهمة قد أغلظوا له في القول واجترءوا عليه في الكلام اشتد غمه وحزنه وقام من بين ظهرانيهم ودخل إلى حجرته فخر على وجهه يبكي ويتقلب كما تتقلب السمكة إذا خرجت من الماء ، وجعل يقول في نفسه ما أدري أى الأمرين أعظم في نفسي؟ ألمملكة أم قتل أحبائي ؟ ولن أنال الفرح ما عشت ، وليس ملكى بباق علي إلى الأبد، ولست بالمصيب سؤلي في ملكى ، وإنى لزاهد في الحياة إذا لم أر إيراخت ، وكيف أقدر على القيام بملكى إذا هلك وزيرى إيلاذ؟ وكيف أضبط أمرى إذا هلك فيلي الأبيض وفرسي الجواد ؟ وكيف أدعى ملكًا وقد قتلت من أشار البراهمة بقتله ؟ وما أصنع بالدنيا بعدهم ؟

ثم إن الحديث فشا في الأرض بحزن الملك وهمه .

فلما رأى إيلاذ ما نال الملك من الهم والحزن فكر بحكمته ونظر وقال : ما ينبغي لي أن أستقبل الملك فأسأله عن هذا الأمر الذى قد ناله من غير أن يدعوني، ثم انطلق إلى إيراخت فقال : إني منذ خدمت الملك إلى الآن لم يعمل عملاً إلا بمشورتي ورأيي ، وأراه يكتم عني أمرًا لا أعلم ما هو ، ولا أراه يظهر منه شيئًا وإنى رأيته خاليًا مع جماعة البرهميين منذ ليال ، وقد احتجب عنا فيها ، وأنا خائف أن يكون قد أطلعهم على شيء من أسراره ، فلست آمنهم أن يشيروا عليه بما يضره ويدخل عليه منه السوء ، فقومى وادخلي عليه فاسأليه عن أمره وشأنه ، وأخبريني بما هو عليه وأعلميني فإنى لست أقدر على الدخول عليه ، فلعل البرهميين قد زينوا له أمرًا أو حملوه على خُطَّة قبيحة ، وقد علمت أن من خلق الملك أنه إذا غضب لا يسأل أحدًا ، وسواء عنده صغير الأمور وكبيرها ، فقالت إيراخت : إنه كان بيني وبين الملك بعض العتاب فلست بداخلة عليه في هذه

الحال، فـقال لها إيلاذ : لا تحـملي عليه الحقـد في مثل هذا ، ولا يخطرن ذلك على بالك فليس يقدر على الدخول عليه أحد سواك ، وقد سـمعته كثيرًا يقول : ما اشتـد غمي ودخلت عليَّ إيراخت إلا سُرِي عني فقومي إليـه واصفحي عنه ، وكلميـه بما تعلمين أنه تطيب به نفـسه ويذهب الذى يجده ، وأعلمـيني بما يكون جوابه ؛ فإنه لنا ولأهل المملكة أعظم الراحة .

فانطلقت إيراخت فـدخلت على الملك فجلست عند رأسه فـقالت : ما الذى بك أيها المـلك المحمود ؟ ومـا الذى سمـعت من البراهمـة ؟ فإنى أراك مـحزونًا فأعلمني ما بك ، فقد ينبغي لنا أن نحـزن معك ونواسيك بأنفسنا ، فقال الملك : أيتها السيدة لا تسأليني عن أمري فتزيديني غمًا وحزنًا فإنه أمر لا ينبغي أن تسأليني عنه ، قالت : أوقد نزلـت عندك منزلة من يستحق هذا ؟ إنما أحمـد الناس عقلاً من إذا نزلت به النازلة كان لنفسه أشد ضـبطًا ، وأكثرهم استماعًا من أهل النصح حتى ينجو مـن تلك النازلة بالحيلة والعقل والبحث والمشـاورة ، فعظيم الذنب لا يقنط من الرحمـة ، ولا تدخلن عليك شيـئًا من الهم والحزن ، فإنهـما لا يردان شيـئًا مقضـيًا ، إلا أنهما ينحـلان الجسم ويشفـيان العدو . قـال لها الملك : لا تسأليني عـن شيء فقد شـققت[1] عليّ ، والذى تسألـيني عنه لا خير فـيه ؛ لأن عاقبته هلاكي وهلاكك وهلاك كثير من أهل مملكتي ومن هو عديل نفسي ، وذاك أن البراهمة زعـموا أنه لابد من قتلك وقـتل كثير من أهل مودتـي ، ولا خير في العيش بعدكم ، وهل أحد يسمع بهذا إلا اعتراه الحزن ؟

فلما سمعت ذلك إيراخت جزعت ، ومنعها عقلها أن تظهر للملك جزعًا ، فـقالت : أيـها الملك لا تجـزع فنحن لك الفـداء ، ولك في سـواي ومـثلي من الجواري مـا تقر به عـينك ، ولكني أطلب منك أيها المـلك حاجة يحـملني على طلبها حبي لك وإيثاري إياك ، وهى نصيحتى لك ، قال الملك : وما هي ؟ قالت

(١) أوقعتني في المشقة .

: أطلب منك ألا تثق بعدها بأحد من البراهمة ، ولا تشاورهم في أمر حتى تتثبت في أمرك ، ثم تشاور فيه ثقاتك مراراً فإن القتل أمر عظيم ، ولست تقدر على أن تحيي من قتلت ، وقد قيل في الحديث : إذا لقيت جوهراً لا خير فيه فلا تلقه من يدك حتى تريه من يعرفه ، وأنت أيها الملك لا تعرف أعداءك ، واعلم أن البراهمة لا يحبونك ، وقد قتلت منهم بالأمس اثني عشر ألفًا ، ولا تظن أن هؤلاء ليسوا من أولئك . ولعمري ما كنت جديرًا أن تخبرهم برؤياك ، ولا أن تطلعهم عليها ، وإنما قالوا لك ما قالوا لأجل الحقد الذى بينك وبينهم ؛ لعلهم يهلكونك ويهلكون أحباءك ووزيرك فيبلغوا قصدهم منك ، فأظنك لو قبلت منهم فقتلت من أشاروا بقتله ظفروا بك وغلبوك على ملكك ، فيعود الملك إليهم كما كان ، فانطلق إلى كباريون الحكيم ، فهو عالم فطن ، فأخبره عما رأيت في رؤياك واسأله عن وجهها وتأويلها .

فلما سمع الملك ذلك سُرِّيَ عنه ما كان يجده من الغم ، فأمر بفرسه فأسرج فركبه ثمَّ انطلق إلى كباريون الحكيم ، فلما انتهى إليه نزل عن فرسه وسجد له ، وقام مطأطئًا الرأس بين يديه ، فقال له الحكيم : ما بالك أيها الملك ؟ وما لي أراك متغير اللون ؟ فقال له الملك : إني رأيت في المنام ثمانية أحلام فقصصتها على البراهمة وأنا خائف أن يصيبني من ذلك عظيم أمر مما سمعت من تعبيرهم لرؤياى ، وأخشى أن يغصب مني ملكى أو أن أغلب عليه . فقال له الحكيم : إن شئت فاقصص رؤياك عليَّ .

فلما قص عليه الملك رؤياه قال : لا يحزنك أيها الملك هذا الأمر ولا تخف منه : أما السمكتان الحمراوان اللتان رأيتهما قائمتين على أذنابهما ؛ فإنه يأتيك رسول من ملك نهاوند بعلبة فيها عقدان من الدر والياقوت الأحمر قيمتهما أربعة آلاف رطل من ذهب فيقوم بين يديك ، وأما الوزتان اللتان رأيتهما طارتا من وراء ظهرك فوقعتا بين يديك ، فإنه يأتيك من ملك بلخ فرسان ليس على الأرض

مثلهما فيقومان بين يديك ، وأما الحية التى رأيتها تدب على رجلك اليسرى فإنه يأتيك من ملك صنجين من يقوم بين يديك بسيف خالص الحديد لا يوجد مثله ، وأما الدم الذى رأيت كأنه خضب به جسدك فإنه يأتيك من ملك كازرون من يقوم بين يديك بلباس معجب يسمى حلة أُرجُوان يضيء في الظلمة ، وأما ما رأيت من غسلك جسمك بالماء فإنه يأتيك من ملك رهزين من يقوم بين يديك بثياب كتان من لباس الملوك ، وأما ما رأيت من أنك على جبل أبيض فإنه يأتيك من ملك كيدور من يقوم بين يديك بفيل أبيض لا تلحقه الخيل ، وأما ما رأيت على رأسك شبيهًا بالنار ، فإنه يأتيك من ملك أرزن من يقوم بين يديك بإكليل من ذهب مكلل بالدر والياقوت ، وأما الطير الذى رأيته ضرب رأسك بمنقاره فلست مفسرًا ذلك اليوم ، وليس بضارك ، فلا توجلن منه ، ولكن فيه بعض السخط والإعراض عمن تحبه فهذا تفسير رؤياك أيها الملك ، وأما هذه الرسل والبرد فإنهم يأتونك بعد سبعة أيام جميعًا فيقومون بين يديك ، فلما سمع الملك ذلك سجد لكباريون ورجع إلى منزله .

فلما كان بعد سبعة أيام جاءت البشائر بقدوم الرسل فخرج الملك فجلس على التخت ، وأذن للأشراف ، وجاءته الهدايا كما أخبره كباريون الحكيم ، فلما رأى الملك ذلك اشتد عجبه وفرحه من علم كباريون ، وقال : ما وفقت حين قصصت رؤياى على البراهمة فأمرونى بما أمروني به ، ولولا أن الله تعالى تداركني برحمته لكنت قد هلكت وأهلكت ؛ وكذلك لا ينبغي لكل أحد أن يسمع إلا من الأخلاء ذوى العقول ، وإن إيراخت أشارت بالخير فقبلته ، ورأيت به النجاح ، فضعوا الهدية بين يديها لتأخذ منها ما اختارت ، ثم قال لإيلاذ خذ الإكليل والثياب واحملها واتبعني بها إلى مجلس النساء ، ثم إن الملك دعا إيراخت وحورقناه أكرم نسائه بين يديه ، فقال لإيلاذ : ضع الكسوة والإكليل بين يدي إيراخت لتأخذ أيها شاءت ، فوضعت الهدايا بين يدي إيراخت ، فأخذت

منها الإكليل ، وأخذت حورقناه كسوة من أفخر الثياب وأحسنها ، وكان من عادة الملك أن يكون ليلة عند إيراخت وليلة عند حورقناه ، وكان من سنة الملك أن تهيئ له المرأة التى يكون عندها في ليلتها أرزًا بحلاوة فتطعمه إياه ، فأتى الملك إيراخت في نوبتها ، وقد صنعت له أرزًا ، فدخلت عليه بالصحفة والإكليل على رأسها ، فعلمت حورقناه بذلك فغارت من إيراخت ، فلبست تلك الكسوة ، ومرت بين يدي الملك وتلك الثياب تضيء عليها مع نور وجهها كما تضيء الشمس فلما رآها الملك أعجبته ، ثم التفت إلى إيراخت فقال : إنك جاهلة حين أخذت الإكليل وتركت الكسوة التى ليس في خزائننا مثلها ، فلما سمعت إيراخت مدح الملك لحورقناه وثناءه عليها وتجهيلها هى وذم رأيها أخذها من ذلك الغيرة والغيظ ، فضربت بالصحفة رأس الملك ، فسال الأرز على وجهه ، فقام الملك من مكانه ودعا بإيلاذ ، فقال له : ألا ترى ، وأنا ملك العالم، كيف حقرتني هذه الجاهلة ، وفعلت بي ما ترى ؟ فانطلق بها فاقتلها ولا ترحمها ، فخرج إيلاذ من عند الملك وقال : لا أقتلها حتى يسكن عنه الغضب ، فالمرأة عاقلة سديدة الرأى من الملكات التى ليس لها عديل في النساء ، وليس الملك بصابر عنها ، وقد خلصته من الموت ، وعملت أعمالاً صالحة ، ورجاؤنا فيها عظيم ، ولست آمنه أن يقول : لم لم تؤخر قتلها حتى تراجعنى ؟ فلست قاتلها حتى أنظر رأى الملك فيها ثانية فإن رأيته نادمًا حزينًا على ما صنع جئت بها حية ، وكنت قد عملت عملاً عظيمًا ، وأنجيت إيراخت من القتل ، وحفظت قلب الملك ، واتخذت عند عامة الناس بذلك يدًا ، وإن رأيته فرحًا مستريحًا مصوبًا رأيه في الذى فعله وأمر به، فقتلها لا يفوت .

ثم انطلق بها إلى منزله ، ووكل بها خادمًا من أمنائه ، وأمره بخدمتها وحراستها ، حتى ينظر ما يكون من أمرها وأمر الملك ثم خضب سيفه بالدم ودخل على الملك كالكئيب الحزين ، فقال أيها الملك : إني قد أمضيت أمرك في

إيراخت ، فلم يلبث الملك أن سكن عنه الغضب وذكر جمال إيراخت وحسنها ، واشتد أسفه عليها ، وجعل يعزي نفسه عنها ويتجلد وهو مع ذلك يستحي أن يسأل إيلاذ أحقًّا أمضى أمره فيها أم لا ؟ ورجا - لما عرف من عقل إيلاذ - ألا يكون قد فعل ذلك ، ونظر إليه إيلاذ بفضل عقله فعلم الذى به ، فقال له : لا تهتم ولا تحزن أيها الملك فإنه ليس في الهم والحزن منفعة ، ولكنهما ينحلان الجسم ويفسدانه ، فاصبر أيها الملك على ما لست بقادر عليه أبدًا ، وإن أحب الملك حدثته بحديث يُسليه . قال : حدثني .

قال إيلاذ : زعموا أن حمامتين ذكرًا وأنثى ملآ عشهما من الحنطة والشعير ، فقال الذكر للأنثى : إنا إذا وجدنا في الصحارى ما نعيش به فلسنا نأكل مما هاهنا شيئًا ، فإذا جاء الشتاء ولم يكن في الصحارى شيء رجعنا إلى ما في عشنا فأكلناه فرضيت الأنثى بذلك ، وقالت له : نعم ما رأيت ، وكان ذلك الحب نديًا حين وضعاه في عشهما ، فانطلق الذكر فغاب ، فلما جاء الصيف يبس الحب وانضمر ، فلما رجع الذكر رأى الحب ناقصًا ، فقال لها : أليس كنَّا أجمعنا رأينا على ألا نأكل منه شيئًا فلم أكلته ؟ فجعلت تحلف أنها ما أكلت منه شيئًا ، وجعلت تعتذر إليه ، فلم يصدقها ، وجعل ينقرها حتى ماتت ، فلما جاءت الأمطار ودخل الشتاء تندى الحب وامتلأ العش كما كان ، فلما رأى الذكر ذلك ندم ، ثم اضطجع إلى جانب حمامته وقال : ما ينفعني الحب والعيش بعدك إذا طلبتك فلم أجدك ، ولم أقدر عليك ، وإذا فكرت في أمرك وعلمت أني قد ظلمتك ، ولا أقدر على تدارك ما فات ، ثم استمر على حزنه فلم يطعم طعامًا ولا شرابًا حتى مات إلى جانبها ، والعاقل لا يعجل في العذاب والعقوبة ، ولا سيما من يخاف الندامة كما ندم الحمام الذكر .

وقد سمعت أيضًا أن رجلاً دخل الجبل وعلى رأسه كارة[1] من العدس ،

(١) مقدار .

فوضع الكارة عن ظهره ليستريح ، فنزل قرد من شجرة فأخذ ملء كفه من العدس وصعد إلى الشجرة ، فسقطت من يده حبة فنزل في طلبها فلم يجدها ، وانتثر ما كان في يده من العدس أجمع ، وأنت أيضًا أيها الملك عندك ستة عشر ألف امرأة تدع أن تلهو بهن وتطلب التى لا تجد فلما سمع الملك ذلك خشى أن تكون إيراخت قد هلكت ، فقال لإيلاذ : لم لا تأنيت وتثبت ؟ بل أسرعت عند سماع كلمة واحدة فتعلقت بها ، وفعلت ما أمرتك به من ساعتك ؟ قال إيلاذ : إن الذى قوله واحد لا يختلف هو الله الذى لا تبديل لكلماته ولا اختلاف لقوله . قال الملك : لقد أفسدت أمرى وشددت حزني بقتل إيراخت . قال إيلاذ : اثنان ينبغي لهما أن يحزنا الذى يعمل الإثم في كل يوم ، والذى لم يعمل خيرًا قط لأن فرحهما في الدنيا ونعيمهما قليل وندامتهما إذا يعاينان الجزاء طويلة لا يستطاع إحصاؤها . قال الملك : لئن رأيت إيراخت حية لا أحزن على شيء أبدًا ، قال إيلاذ : اثنان لا ينبغي لهما أن يحزنا : المجتهد في البر كل يوم ، والذى لم يأثم قط ، قال الملك : ما أنا بناظر إلى إيراخت أكثر مما نظرت ، قال إيلاذ : اثنان لا ينظران : الأعمى ، والذى لا عقل له ، وكما أن الأعمى لا ينظر السماء ونجومها وأرضها ولا ينظر القرب والبعد ، كذلك الذى لا عقل له لا يعرف الحسن من القبيح ولا المحسن من المسيء . قال الملك : لو رأيت إيراخت لاشتد فرحى . قال إيلاذ : اثنان هما الفرحان : البصير ، والعالم ، فكما أن البصير يبصر أمور العالم وما فيه من الزيادة والنقصان والقريب والبعيد ، فكذلك العالم يبصر البر والإثم ، ويعرف عمل الآخرة ، ويتبين له نجاته ، ويهتدى إلى صراط مستقيم . قال الملك : ينبغي لنا أن نتباعد منك يا إيلاذ ونأخذ الحذر ونلزم الاتقاء .قال إيلاذ: اثنان ينبغي أن يتباعد منهما : الذى يقول لا بر ولا إثم ولا عقاب ولا ثواب ولا شيء عليّ مما أنا فيه، والذى لا يكاد يصرف بصره عما ليس له بمحرم، ولا أذنه عن استماع السوء ، ولا قلبه عما تهم به نفسه من الإثم والحرص . قال

الملك : صارت يدي من إيراخت صفرًا . قال إيلاذ : ثلاثة أشياء أصفار : النهر الذى ليس فيه ماء ، والأرض التى ليس فيها ملك ، والمرأة التى ليس لها بعل ، قال الملك : إنك يا إيلاذ لتلقي بالجواب . قال إيلاذ : ثلاثة يلقون بالجواب : الملك الذى يعطى ويقسم من خزائنه ، والمرأة المهداة إلى من تهوى من ذوى الحسب ، والرجل العالم الموفق للخير .

ثم إن إيلاذ لما رأى الملك اشتد به الأمر قال : أيها الملك ، إن إيراخت بالحياة فلما سمع الملك ذلك اشتد فرحه . وقال : يا إيلاذ إنما منعني من الغضب ما أعرف من نصيحتك وصدق حديثك . وكنت أرجو لمعرفتى بعلمك ألا تكون قد قتلت إيراخت ، فإنها وإن كانت أتت عظيمًا وأغلظت في القول فلم تأته عداوة ولا طلب مضرة ؛ ولكنها فعلت ذلك للغيرة ، وقد كان ينبغى لي أن أعرض عن ذلك وأحتمله ، ولكنك يا إيلاذ أردت أن تختبرني وتتركني في شك من أمرها وقد اتخذت عندى أفضل الأيدي ، وأنا لك شاكر ، فانطلق فأتني بها فخرج من عند الملك فأتى إيراخت وأمرها أن تتزين ففعلت ذلك ، وانطلق بها إلى الملك ، فلما دخلت سجدت له ثم قامت بين يديه ، وقالت : أحمد الله تعالى ثم أحمد الملك الذى أحسن إلي قد أذنبت الذنب العظيم الذي لم أكن للبقاء أهلاً بعده ، فوسعه حلمه وكرم طبعه ورأفته ثم أحمد إيلاذ الذى أخر أمرى ، وأنجاني من الهلكة ، لعلمه برأفة الملك وسعة حلمه وجوده وكرم جوهره ووفاء عهده .

وقال الملك لإيلاذ : ما أعظم يدك عندي وعند إيراخت وعند العامة إذ قد أحييتها بعد ما أمرت بقتلها فأنت الذى وهبها لي اليوم فإني لم أزل واثقًا بنصيحتك وتدبيرك، وقد ازددت اليوم عندي كرامة وتعظيمًا . وأنت محكم في ملكي تفعل فيه بما ترى ، وتحكم عليه بما تريد ، فقد جعلت ذلك إليك ووثقت بك .

قال إيلاذ : أدام الله لك أيها الملك الملك والسرور ، فلست بمحمود على

ذلك ، فإنما أنا عبدك ، لكن حاجتى ألا يعجل الملك في الأمر الجسيم الذى يندم على فعله ، وتكون عاقبته الغم والحزن ، ولا سيما في مثل هذه الملكة الناصحة المشفقة التى لا يوجد في الأرض مثلها .

فقال الملك : بحق قلت يا إيلاذ ، وقد قبلت قولك ، ولست عاملاً بعدها عملاً صغيرًا ولا كبيرًا ، فضلاً عن مثل هذا الأمر العظيم الذى ما سلمت منه ، إلا بعد المؤامرة والنظر والتردد إلى ذوى العقول ومشاورة أهل المودة والرأى ثم أحسن الملك جائزة إيلاذ ومكنه من أولئك البراهمة الذين أشاروا بقتل أحبابه ، فأطلق فيهم السيف ، وقرَّت عين الملك وعيون عظماء أهل مملكته ؛ وحمدوا الله وأثنوا على كباريون بسعة علمه وفضل حكمته ؛ لأنه بعلمه خلص الملك ووزيره الصالح وامرأته الصالحة .

**( انقضى باب إيلاذ وبلاذ وإيراخت )**

❊ ❊ ❊

## باب : اللبؤة[1] والأسوار[2] والشغبر

قال دبشليم الملك لبيدبا الفيلسوف : قد سمعت هذا المثل . فاضرب لي مثلاً في شأن من يدع ضر غيره إذا قدر عليه لما يصيبه من الضر ، ويكون له فيما ينزل به واعظ وزاجر عن ارتكاب الظلم والعداوة لغيره .

قال الفيلسوف : إنه لا يقدم على طلب ما يضر بالناس وما يسوءهم إلا أهل الجهالة والسفه وسوء النظر في العواقب من أمور الدنيا والآخرة، وقلة العلم بما يدخل عليهم في ذلك من حلول النقمة وبما يلزمهم من تبعة ما اكتسبوا مما لا تحيط به العقول وإن سلم بعضهم من ضرر بعض بمنية عرضت له قبل أن ينزل به وبال ما صنع فإن من لم يفكر في العواقب لم يأمن المصائب، وحقيق ألا يسلم من المعاطب وربما اتعظ الجاهل واعتبر بما يصيبه من المضرة من غيره، فارتدع عن أن يغشى أحدًا بمثل ذلك من الظلم والعدوان، وحصل له نفع ما كف عنه من ضرره لغيره في العاقبة فنظير ذلك حديث اللبؤة والأسوار والشغبر .

قال الملك : وكيف كان ذلك ؟

قال الفيلسوف: زعموا أن لبؤة كانت في غيضة[3] ولها شبلان؛ وأنها خرجت في طلب الصيد وخلفتهما في كهفهما ؛ فمر بهما أسوار فحمل عليهما ورماهما فقتلهما ، وسلخ جلديهما فاحتقبهما[4] ، وانصرف بهما إلى منزله ،

ثم إنها رجعت فلما رأت ما حل بهما من الأمر الفظيع اضطربت ظهرًا لبطن وصاحت وضجت وكان إلى جنبها شغبر ، فلما سمع ذلك من صياحها قال لها: ما هذا الذى تصنعين؟ وما نزل بك ؟ فأخبريني به .

قالت اللبؤة : شبلاي مر بهما أسوار فقتلهما وسلخ جلديهما فاحتقبهما

---

(١) أنثى الأسد . (٢) قائد الفرس . (٣) أجمة .

(٤) ربطهما في مؤخر الرحل أو القتب .

ونبذهما بالعراء[1]. قال لها الشغبر: لا تضجي وأنصفي من نفسك ، واعلمي أن هذا الأسوار لم يأت إليك شيئًا إلا وقد كنت تفعلين بغيرك مثله ، وتأتين إلى غير واحد مثل ذلك ، ممن كان يجد بحميمه ومن يعز عليه مثل ما تجدين بشبليك ، فاصبري على فعل غيرك ، كما صبر غيرك على فعلك فإنه قد قيل : كما تدين تدان ، ولكل عمل ثمرة من الثواب والعقاب ، وهما على قدره في الكثرة والقلة كالزرع إذا حضر الحصاد أعطى على حسب بذره .

قالت اللبؤة : بين لي ما تقول، وأفصح لي عن إشارته.

قال الشغبر: كم أتى لك من العمر ؟

قالت اللبؤة: مائة سنة .

قال الشغبر : ما كان قوتك ؟

قالت اللبؤة : لحم الوحش .

قال الشغبر: من كان يطعمك إياه؟

قالت اللبؤة : كنت أصيد الوحش وآكله .

قال الشغبر: أرأيت الوحوش التي كنت تأكلين أما كان لها آباء وأمهات ؟

قالت : بلى .

قال الشغبر : فما بالي لا أرى ولا أسمع لتلك الآباء والأمهات من الجزع والضجيج ما أرى وأسمع لك ؟ أما إنه لم ينزل بك ما نزل إلا لسوء نظرك في العواقب ، وقلة تفكرك فيها وجهالتك بما يرجع عليك من ضرها .

فلما سمعت اللبؤة ذلك من كلام الشغبر عرفت أن ذلك مما جنت على نفسها وأن عملها كان جورًا وظلمًا ، فتركت الصيد ، وانصرفت عن أكل اللحم إلى الثمار والنسك والعبادة ،فلما رأى ذلك ورشان[2] ( كان صاحب تلك الغيضة

---

(١) الفضاء لا يستر فيه شيء .

(٢) طائر شبه الحمامة والأنثى وَرَشَانة وجمعه وِرشانٌ ووراشين .

وكان عيشه من الثمار ) قال لها : قد كنت أظن أن الشجر عامنا هذا لم تحمل ، لقلة الماء ، فلما أبصرتك تأكلينها ، وأنت آكلة اللحم ، فتركت رزقك وطعامك وما قسم الله لك ، وتحولت إلى رزق غيرك فانتقصته ، ودخلت عليه فيه ، علمت أن الشجر العام أثمرت كما كانت تثمر قبل اليوم ؛ وإنما أتت قلة الثمر من جهتك ، فويل للشجر وويل للثمار وويل لمن عيشه منها ! ما أسرع هلاكهم إذا دخل عليهم في أرزاقهم ، وغلبهم عليها من ليس له فيها حظ ولم يكن معتاداً لأكلها !

فلما سمعت اللبؤة ذلك من كلام الورشان تركت أكل الثمار وأقبلت على أكل الحشيش والعبادة .

وإنما ضربت لك هذا المثل لتعلم أن الجاهل ربما انصرف بضر يصيبه عن ضر الناس ؛ كاللبؤة التى انصرفت لما لقيت في شبليها عن أكل اللحم ثمّ عن أكل الثمار بقول الورشان ، وأقبلت على النسك والعبادة ، والناس أحق بحسن النظر في ذلك فإنه قد قيل : ما لا ترضاه لنفسك لا تصنعه لغيرك ؛ فإن في ذلك العدل ، وفي العدل رضا الله تعالى ورضا الناس .

( انقضى باب اللبؤة والأسوار والشغبر )

* * *

## باب : الناسك والضيف

قال دبشليم الملك لبيدبا الفيلسوف : قد سمعت هذا المثل ، فاضرب لي مثل الذى يدع صنعه الذى يليق به ويشاكله ، ويطلب غيره فلا يدركه فيبقى حيران مترددًا .

قال الفيلسوف : زعموا أنَّه كان بأرض الكرخ ناسك عابد مجتهد ، فنزل به ضيف ذات يوم ، فدعا الناسك لضيفه بتمر ؛ لِيُطرفه به ، فأكلا منه جميعًا ، ثمَّ قال الضيف : ما أحلى هذا التمر وأطيبه ! فليس هو في بلادى التى أسكنها ، وليته كان فيها ! ثمَّ قال : أرى أن تساعدنى على أن آخذ منه ما أغرسه في أرضنا فإنى لست عارفًا بثمار أرضكم هذه ولا بمواضعها.

فقال له الناسك: ليس لك في ذلك راحة فإن ذلك يثقل عليك ، ولعل ذلك لا يوافق أرضكم ، مع أن بلادكم كثيرة الأثمار فما حاجتها مع كثرة ثمارها إلى التمر مع وخامته وقلة موافقته للجسد؟

ثم قال له الناسك: إنه لا يعد حكيمًا من طلب ما لا يجد ، وإنك سعيد الجد إذا قنعت بالذى تجد وزهدت فيما لا تجد .

وكان هذا الناسك يتكلم بالعبرانية فاستحسن الضيف كلامه وأعجبه، فتكلف أن يتعلمه؛ وعالج في ذلك نفسه أيامًا ، فقال الناسك لضيفه : ما أخلقك أن تقع مما تركت من كلامك ، وتكلفت من كلام العبرانية ، في مثل ما وقع فيه الغراب!!

قال الضيف : وكيف كان ذلك ؟

قال الناسك : زعموا أن غرابًا رأى حَجَلَة تدرُج وتمشي ، فأعجبته مشيتها ، وطمع أن يتعلمها ، فراض على ذلك نفسه ، فلم يقدر على إحكامها ، وأيس منها ، وأراد أن يعود إلى مشيته التي كان عليها ، فإذا هو قد اختلط وتخلع في

مشيته، وصار أقبح الطير مشيًا .

وإنما ضربت لك هذا المثل لما رأيت من أنَّك تركت لسانك الذى طبعت عليه، وأقبلت على لسان العبرانية ، وهو لا يشاكلك ؛ وأخاف ألا تدركه ، وتنسى لسانك ، وترجع إلى أهلك وأنت شرهم لسانًا ؛ فإنه قد قيل : إنه يعد جاهلاً من تكلف من الأمور ما لا يشاكله ، وليس من عمله ، ولم يؤدبه عليه آباؤه وأجداده من قبل .

( انقضى باب الناسك والضيف )

❊ ❊ ❊

# باب : السائح والصائغ

قال دبشليم الملك لبيدبا الفيلسوف : قد سمعت هذا المثل فاضرب لي مثلاً في شأن الذى يضع المعروف في غير موضعه ، ويرجو الشكر عليه .

قال الفيلسوف : أيها الملك إن طبائع الخلق مختلفة ، وليس مما خلقه الله في الدنيا مما يمشي على أربع أو على رجلين أو يطير بجناحين شيء هو أفضل من الإنسان ؛ ولكن من الناس البر والفاجر ، وقد يكون في بعض البهائم والسباع والطير ما هو أوفى منه ذمة ، وأشد محاماة على حرمه ، وأشكر للمعروف ، وأقوم به وحينئذ يجب على ذوى العقل من الملوك وغيرهم أن يضعوا معروفهم مواضعه ؛ ولا يضعوه عند من لا يحتمله ، ولا يقوم بشكره ؛ ولا يصطنعوا أحداً إلا بعد الخبرة بطرائقه ، والمعرفة بوفائه ومودته وشكره ، ولا ينبغي أن يختصوا بذلك قريبًا لقرابته ، إذا كان غير محتمل للصنيعة ، ولا أن يمنعوا معروفهم ورفدهم للبعيد ، إذا كان يقيهم بنفسه وما يقدر عليه لأنه يكون حينئذ عارفًا بحق ما اصطنع إليه مؤديًا لشكر ما أنعم عليه محموداً بالنصح ، معروفًا بالخير ، صدوقًا عارفًا ، مؤثرًا لحميد الفعال والقول . وكذلك كل من عرف بالخصال المحمودة ووثق منه بها ، كان للمعروف موضعًا ، ولتقريبه واصطناعه أهلاً ، فإنَّ الطبيب الرفيق العاقل لا يقدر على مداواة المريض إلا بعد النظر إليه والجس لعروقه، ومعرفة طبيعته وسبب علته ، فإذا عرف ذلك كله حق معرفته أقدم على مداواته ، فكذلك العاقل لا ينبغي له أن يصطفى أحدًا ، ولا يستخلصه إلا بعد الخبرة ، فإنَّ من أقدم على مشهور العدالة من غير اختبار كان مخاطرًا في ذلك ومشرفًا منه على هلاك وفساد ، ومع ذلك ربما صنع الإنسان المعروف مع الضعيف الذى لم يجرب شكره ، ولم يعرف حاله في طبائعه فيقوم بشكر ذلك ويكافىء عليه أحسن المكافأة وربما حذر العاقل الناس ولم يأمن على نفسه أحدًا منهم ، وقد

يأخذ ابن عـرس فيدخله في كـمه ويخرجـه من الآخر كالذى يحـمل الطائر على يده، فإذا صاد شيئًا انتفع به ، ومطعـمه منه ، وقد قيل : لا ينبغي لذى العقل أن يحتـقر صـغيرًا ولا كـبيرًا من الناس ولا من الـبهائم ؛ ولكنه جـدير بأن يبلوهم ويكون ما يصنع إليـهم على قدر ما يـرى منهم ، وقد مضى في ذلك مـثل ضربه بعض الحكماء .

قال الملك : وكيف كان ذلك ؟

قال الفيلسوف : زعموا أنَّ جـماعة احتفروا رَكِيَّة[1] فوقع فـيهـا رجل صائغ وحـيَّة وقرد وبـبـر[2]، ومرَّ بهم رجل سائح فـأشرف على الركية ؛ فـبصر بالرجل والحية والببر والقرد ، ففكر في نفسه ، وقال لست أعمل لآخرتى عملاً أفضل من أن أخلص هذا الرجل من بين هؤلاء الأعـداء ، فأخـذ حبـلاً ، وأدلاه إلى البئـر فتعلَّق به القرد لخـفته فخرج ، ثمَّ دلاه ثانية ، فالتفت به الحـية فخرجت ثمَّ دلاه الثالثة ، فتـعلق به الببر فأخرجه ، فشكرن له صـنيعه ، وقلن له : لا تخرج هذا الرجل من الركـيــة ؛ فـإنه ليس شيء أقل شكرًا من الإنـسـان ، ثمَّ هذا الرجل خاصة .

ثم قال له القرد : إنَّ منزلي في جبل قريب من مدينة يقال لها : نوادرخت .

فقال له الببر : أنا أيضًا في أجمة إلى جانب تلك المدينة .

قالت الحـية : أنا أيضًا في سـور تلك المدينة ، فإن أنت مـررت بنا يومًا من الدهر ، واحـتجت إلينا فـصوت علينا حـتى نأتيك فنجزيك بما أسـديت إلينا من المعروف .

فلم يلتفت السـائح إلى ما ذكروا له من قلة شكر الإنسـان ، وأدلى الحبل ، فأخرج الصائغ ، فسجد له ، وقـال له : لقد أوليتني معروفًا ، فإن أتيت يومًا من

---

(١) بئرًا . (٢) سبع .

الدهر بمدينة نَوادرخت فاسأل عن منزلي ؛ فأنا رجل صائغ لعليٍّ أكافئك بما صنعت إليّ من المعروف .

فانطلق الصائغ إلى مدينته وانطلق السائح إلى جانبه ، فعرض بعد ذلك أنَّ السائح اتفقت له حاجة إلى تلك المدينة ، فانطلق فاستقبله القرد ، فسجد له وقبل رجليه ، واعتذر إليه، وقال : إنَّ القرود لا يملكون شيئًا ، ولكن اقعد حتى آتيك، وانطلق القرد ، وأتاه بفاكهة طيبة ، فوضعها بين يديه ، فأكل منها حاجته.

ثم إن السائح انطلق حتى دنا من باب المدينة فاستقبله الببر ، فخرَّ له ساجدًا وقال له : إنك قد أوليتني معروفًا ، فاطمئن ساعة حتى آتيك ، فانطلق الببر فدخل في بعض الحيطان[1] إلى بنت الملك فقتلها ، وأخذ حليها ، فأتاه بها ، من غير أن يعلم السائح من أين هو .

فقال في نفسه : هذه البهائم قد أولتني هذا الجزاء ، فكيف لو قد أتيت إلى الصائغ فإنه إن كان معسرًا لا يملك شيئًا فسيبيع هذا الحلي فيستوفي ثمنه ، فيعطيني بعضه ، ويأخذ بعضه ، وهو أعرف بثمنه .

فانطلق السائح ، فأتى إلى الصائغ ، فلمَّا رآه رحب به وأدخله إلى بيته ، فلمَّا بصر بالحلي معه ، عرفه وكان هو الذى صاغه لابنة الملك ، فقال للسائح : اطمئن حتى آتيك بطعام فلست أرضى لك ما في البيت .

ثمَّ خرج وهو يقول : قد أصبت فرصتي ، أريد أن أنطلق إلى الملك وأدله على ذلك، فتحسن منزلتي عنده .

فانطلق إلى باب الملك ، فأرسل إليه : إن الذى قتل ابنتك وأخذ حليها عندي فأرسل الملك وأتى بالسائح ، فلما نظر الحلي معه لم يمهله ، وأمر به أن

(١) البساتين .

يعذب ويطاف به في المدينة ، ويصلب .

فلمـا فعلوا به ذلك جـعل السائح يبـكى ويقول بأعلى صـوته لو أني أطعت القرد والحية والببر فيما أمرني به وأخبرنني من قلة شكر الإنسان لم يصر أمري إلى هذا البلاء ، وجعل يكرر هذا القول .

فسمعت مقالته تلك الحيـة ، فخرجت من جحرها فـعرفته ، فاشتـدَّ عليها أمره، فجعلت تحتال في خـلاصه ، فانطلقت حتى لدغت ابن الملك ، فدعا الملك أهل العلم فرقوه ليـشفوه فلم يغنوا عنه شيئًا ، ثم مضت الحـية إلى أخت لها من الجن ، فأخـبرتها بما صنع السـائح إليها من المعـروف ، وما وقع فيـه فرقت له ، وانطلقت إلى ابن الملك ، وتخـايلت له ، وقالت له : إنـك لا تبرأ حتى يـرقيك هذا الرجل الذى قد عاقبتمـوه ظلمًا ، وانطلقت الحية إلى السائح ، فدخلت عليه السجن ، وقـالت له : هذا الذى كنت نهيتك عنـه من اصطناع المعروف إلى هذا الإنسان ، ولم تطعني ، وأتته بورق ينفع من سمـها ، وقالت له : إذا جاؤوا بك لترقـي ابن الملك فاسقـه من ماء هذا الورق ؛ فـإنه يبرأ ، وإذا سـألك الملك عن حالك فاصدقه ؛ فإنك تنجو إن شاء الله تعالى .

وإن ابن الملك أخبـر الملك أنه سمع قائـلاً يقول : إنك لن تبرأ حـتى يرقيك هذا السائح الذى حبس ظلمًا .

فدعـا الملك بالسـائح ، وأمره أن يرقى ولده ، فـقال : لا أحـسن الرقى ، ولكن أسقيه من ماء هذه الشجرة فيبرأ بإذن الله تعالى .

فسـقاه فبرىء الغـلام ، ففرح الملك بذلك ، وسأله عن قـصته ، فأخـبره ، فشكره الملك ، وأعطاه عطيـة حسنة ، وأمر بالصائغ أن يصلب ، فـصلبوه لكذبه وانحرافه عن الشكر ومجازاته الفعل الجميل بالقبيح .

ثم قال الفـيلسوف للملك : فـفي صنيع الصائغ بالسـائح ، وكفـره له بعد استنقاذه إياه ، وشكر البـهائم له ، وتخليص بعضها إياه عبـرة لمن اعتبر ، وفكرة

لمن تفكر ، وأدب في وضع المعروف والإحسان عند أهل الوفاء والكرم ، قربوا أو بعدوا ، لما في ذلك من صواب الرأى وجلب الخير وصرف المكروه .

**( انقضى باب السائح والصائغ )**

* * *

# باب : ابن الملك وأصحابه

قال دبشليم الملك لبيدبا الفيلسوف : قد سمعت هذا المثل . فإن كان الرجل لا يصيب الخير إلا بعقله ورأيه وتثبته في الأمور كما يزعمون ، فما بال الرجل الجاهل يصيب الرفعة والخير ، والرجل الحكيم العاقل قد يصيب البلاء والضر ؟

قال بيدبا : كما أنَّ الإنسان لا يبصر إلا بعينيه ولا يسمع إلا بأذنيه ، كذلك العمل ، إنما هو بالحلم والعقل والتثبت ؛ غير أن القضاء والقدر يغلبان على ذلك، ومثل ذلك مثل ابن الملك وأصحابه .

قال الملك : وكيف كان ذلك ؟

قال الفيلسوف : زعموا أنَّ أربعة نفر اصطحبوا في طريق واحدة ، أحدهم ابن ملك والثاني ابن تاجر والثالث ابن شريف ذو جمال والرابع ابن أكار[1] . وكانوا جميعًا محتاجين ، وقد أصابهم ضرر وجهد شديد في موضع غربة لا يملكون إلا ما عليهم من الثياب ، فبينما هم يمشون إذ فكروا في أمرهم ، وكان كل إنسان منهم راجعًا إلى طباعه وما كان يأتيه منه الخير .

قال ابن الملك : إن أمر الدنيا كله بالقضاء والقدر ، والذى قدر على الإنسان يأتيه على كل حال والصبر للقضاء والقدر وانتظارهما أفضل الأمور .

وقال ابن التاجر : العقل أفضل من كل شيء .

وقال ابن الشريف : الجمال أفضل مما ذكرتم .

ثمَّ قال ابن الأكار: ليس في الدنيا أفضل من الاجتهاد في العمل .

فلما قربوا من مدينة يقال لها مطرون ، جلسوا في ناحية منها يتشاورون ، فقالوا لابن الأكار : انطلق فاكتسب لنا باجتهادك طعامًا ليومنا هذا .

---

(١) الأكار الحرَّاث وجمعه أكرة كأنه جمع آكر .

فانطلق ابن الأكار ، وسأل عن عمل إذا عمله الإنسان يكتسب فيه طعام أربعة نفر فعرفوه أنه ليس في تلك المدينة شيء أعز من الحطب ، وكان الحطب منها على فرسخ ، فانطلق ابن الأكار فاحتطب طُنًا[1] من الحطب ، وأتى به المدينة فباعه بدرهم واشترى به طعامًا وكتب على باب المدينة عمل يوم واحد إذا أجهد فيه الرجل بدنه قيمته درهم ، ثم انطلق إلى أصحابه بالطعام فأكلوا .

فلما كان من الغد قالوا : ينبغي للذى قال إنه ليس شيء أعز من الجمال أن تكون نوبته .

فانطلق ابن الشريف ليأتي المدينة ، ففكر في نفسه وقال : أنا لست أحسن عملاً فما يدخلني المدينة ؟ ثم استحيا أن يرجع إلى أصحابه بغير طعام ، وهمَّ بمفارقتهم فانطلق حتى أسند ظهره إلى شجرة عظيمة ، فغلبه النوم فنام ، فمر به رجل من عظماء المدينة فراقه جماله وتوسم فيه شرف النجار[2] فرق له ومنحه خمسمائة درهم ، فكتب على باب المدينة : جمال يوم واحد يساوى خمسمائة درهم ، وأتى بالدراهم إلى أصحابه .

فلما أصبحوا في اليوم الثالث ، قالوا لابن التاجر : انطلق أنت فاطلب لنا بعقلك وتجارتك ليومنا هذا شيئًا .

فانطلق ابن التاجر فلم يزل حتى بصر بسفينة من سفن البحر كثيرة المتاع قد قدمت إلى الساحل ، فخرج إليها جماعة من التجار يريدون أن يبتاعوا مما فيها من المتاع ، فجلسوا يتشاورون في ناحية من المركب ، وقال بعضهم لبعض ارجعوا يومنا هذا لا نشترى منهم شيئًا حتى يكسد المتاع عليهم فيرخصوه علينا ، مع أننا محتاجون إليه وسيرخص ، فخالف الطريق وجاء إلى أصحاب المركب ، فابتاع منهم ما فيه بمائة ألف دينار نسيئة[3] وأظهر أنه يريد أن ينقل متاعه إلى مدينة

---

(١) حزمة . (٢) الأصل .
(٣) إلى أجل .

أخرى، فلما سمع التجار ذلك خافوا أن يذهب ذلك المتاع من أيديهم ، فأربحوه على ما اشتراه مائة ألف درهم ، وأحال[1] عليهم أصحاب المركب بالباقى ، وحمل ربحه إلى أصحابه وكتب على باب المدينة : عقل يوم واحد ثمنه مائة ألف درهم .

فلما كان اليوم الرابع قالوا لابن الملك : انطلق أنت واكتسب لنا بقضائك وقدرك .

فانطلق ابن الملك حتى أتى إلى باب المدينة فجلس على متكأ في باب المدينة، واتفق أن ملك تلك الناحية مات ولم يخلف ولدًا ولا أحدًا ذا قرابة ، فمروا عليه بجنازة الملك ولم يحزنه وكلهم يحزنون فأنكروا حاله وشتمه البواب ، وقال له : من أنت يا هذا ؟ وما يجلسك على باب المدينة ولا نراك تحزن لموت الملك ؟ وطرده البواب عن الباب .

فلما ذهبوا عاد الغلام فجلس مكانه ، فلما دفنوا الملك ورجعوا بصر به البواب فغضب وقال له : ألم أنهك عن الجلوس في هذا الموضع ؟ وأخذه فحبسه.

فلما كان الغد اجتمع أهل تلك المدينة يتشاورون فيمن يملكونه عليهم ، وكل منهم يتطاول ينظر صاحبه ، ويختلفون بينهم .

فقال لهم البواب : إنى رأيت أمس غلامًا جالسًا على الباب ، ولم أره يحزن لحزننا ، فكلمته فلم يجبني ، فطردته عن الباب ، فلما عدت رأيته جالسًا ، فأدخلته السجن مخافة أن يكون عينًا ، فبعثت أشراف أهل المدينة إلى الغلام فجاؤوا به ، وسألوه عن حاله ، وما أقدمه إلى مدينتهم .

فقال : أنا ابن ملك فويران ، وإنه لما مات والدى غلبني أخى على الملك ،

---

(١) أى فأخذ مائة ألف درهم وأحال إلخ .

فهربت من يده حذرًا على نفسي حتى انتهيت إلى هذه الغابة ، فلما ذكر الغلام ما ذكر من أمره عرفه من كان يغشى أرض أبيه منهم ، وأثنوا على أبيه خيرًا .

ثم إن الأشراف اختاروا الغلام أن يملكوه عليهم ورضوا به وكان لأهل تلك المدينة سنة إذا ملكوا عليهم ملكًا حملوه على فيل أبيض ، وطافوا به حَوالى المدينة .

فلما فعلوا به ذلك مر بباب المدينة فرأى الكتابة على الباب فأمر أن يكتب إن الاجتهاد والجمال والعقل وما أصاب الرجل في الدنيا من خير أو شر إنما هو بقضاء وقدر من الله عز وجل ، وقد ازددت في ذلك اعتبارًا بما ساق الله إليَّ من الكرامة والخير .

ثم انطلق إلى مجلسه فجلس على سرير ملكه وأرسل إلى أصحابه الذين كان معهم فأحضرهم ، فأشرك صاحب العقل مع الوزراء ، وضم صاحب الاجتهاد إلى أصحاب الزرع ، وأمر لصاحب الجمال بمال كثير ثم نفاه كي لا يفتتن به ، ثم جمع علماء أرضه وذوى الرأى منهم وقال لهم : أما أصحابي فقد تيقنوا أن الذى رزقهم الله سبحانه وتعالى من الخير إنما هو بقضاء الله وقدره وإنما أحب أن تعلموا ذلك وتستيقنوه ؛ فإن الذى منحنى الله وهيأه لي إنما كان بقدر ، ولم يكن بجمال ولا عقل ولا اجتهاد ، وما كنت أرجو إذ طردني أخي أن يصيبني ما يعيشني من القوت فضلاً عن أن أصيب هذه المنزلة ، وما كنت أؤمل أن أكون بها لأني قد رأيت في هذه الأرض من هو أفضل مني حسنًا وجمالاً ، وأشد اجتهادًا وأسد رأيًا فساقني القضاء إلى أن اعتززت بقدر من الله .

وكان في ذلك الجمع شيخ فنهض حتى استوى قائمًا ، وقال : إنك قد تكلمت بكلام كامل عقل وحكمة ،وإن الذى بلغ بك ذلك وفور عقلك وحسن ظنك ؛ وقد حققت ظننًا فيك ورجاءنا لك ، وقد عرفنا ما ذكرت ، وصدقناك فيما وصفت ، والذى ساق الله إليك من الملك والكرامة كنت أهلاً له ، لما قسم

الله تعالى لك من العقل والرأى ، وإن أسعد الناس في الدنيا والآخرة من رزقه الله رأيًا وعقلاً . وقد أحسن الله إلينا ؛ إذ وفقك لنا عند موت ملكنا ، وكرمنا بك .

ثم قام شيخ آخر سائح فحمد الله عز وجل وأثنى عليه ، وقال : إنى كنت أخدم وأنا غلام قبل أن أكون سائحًا رجلاً من أشراف الناس ، فلما بدا لي رفض الدنيا فارقت ذلك الرجل ، وقد كان أعطاني من أجرتي دينارين ، فأردت أن أتصدق بأحدهما وأستبقي الآخر فأتيت السوق ، فوجدت مع رجل من الصيادين زوج هدهد ، فساومته فيهما ، فأبى الصياد أن يبيعهما إلا بدينارين ، فاجتهدت أن يبيعنيهما بدينار واحد ، فأبى ، فقلت في نفسي : أشترى أحدهما وأترك الآخر .

ثم فكرت وقلت : لعلهما يكونان زوجين ذكرًا وأنثى فأفرق بينهما ، فأدركني لهما رحمة فتوكلت على الله وابتعتهما بدينارين ، وأشفقت إن أرسلتهما في أرض عامرة أن يصادا ، ولا يستطيعا أن يطيرا مما لقيا من الجوع والهُزال ، ولم آمن عليهما الآفات .

فانطلقت بهما إلى مكان كثير المرعى والأشجار بعيد عن الناس والعمران ، فأرسلتهما فطارا ووقعا على شجرة مثمرة ، فلما صارا في أعلاها شكرا لي ، وسمعت أحدهما يقول للآخر لقد خلصنا هذا السائح من البلاء الذى كنا فيه ، واستنقذنا ونجانا من الهلكة ، وإنا لخليقان أن نكافئه بفعله ، وإن في أصل هذه الشجرة جرة مملوءة دنانير ، أفلا ندله عليها فيأخذها ؟

فقلت لهما : كيف تدلانني على كنز لم تره العيون ، وأنتما لم تبصرا الشبكة ؟

فقالا : إن القضاء إذا نزل صرف العيون عن موضع الشيء وغشى البصر ، وإنما صرف القضاء أعيننا عن الشرك ولم يصرفها عن هذا الكنز .

فاحتفرت واستخرجت البرنية[1] وهى مملوءة دنانير ، فدعوت لهما بالعافية ، وقلت لهما الحمد لله الذى علمكما ما لم تعلما ، وأنتما تطيران في السماء ، وأخبرتما بما تحت الأرض .

فقالا لي : أيها العاقل ، أما تعلم أن القدر غالب على كل شيء ، لا يستطيع أحد أن يتجاوزه .

وأنا أخبر الملك بذلك الذى رأيته فإن أمر الملك أتيته بالمال فأودعته في خزائنه .

فقال الملك : ذلك لك ، وموفر عليك .

**( انتهى باب ابن الملك وأصحابه )**

* * *

(١) إناء من خزف .

# باب : الحمامة والثعلب ومالك الحزين

وهو باب من يرى الرأى لغيره ولا يراه لنفسه .

قال الملك للفيلسوف : قد سمعت هذا المثل فاضرب لي مثلاً في شأن الرجل الذى يرى الرأى لغيره ولا يراه لنفسه .

قال الفيلسوف : إنَّ مثل ذلك مثل الحمامة والثعلب ومالك الحزين .

قال الملك : وما مثلهن ؟

قال الفيلسوف : زعموا أن حمامة كانت تفرخ في رأس نخلة طويلة ذاهبة في السماء ، فكانت الحمامة تشرع في نقل العش إلى رأس تلك النخلة ، فلا يمكن أن تنقل ما تنقل من العش وتجعله تحت البيض إلا بعد شدة وتعب ومشقة لطول النخلة وسحقها فإذا فرغت من النقل باضت ثم حضنت بيضها ، فإذا فقست وأدرك فراخها جاءها ثعلب قد تعاهد ذلك منها لوقت قد علمه بقدر ما ينهض فراخها ، فيقف بأصل النخلة فيصيح بها ويتوعدها أن يرقى إليها فتلقى إليه فراخها .

فبينما هي ذات يوم قد أدرك لها فرخان إذ أقبل مالك الحزين فوقع على النخلة .

فلما رأى الحمامة كئيبة حزينة شديدة الهم ، قال لها مالك الحزين: يا حمامة، ما لي أراك كاسفة اللون سيئة الحال ؟

فقالت له : يا مالك الحزين ، إنَّ ثعلبًا دهيت به كلما كان لي فرخان جاءني يهددني ويصيح في أصل النخلة ، فأفرق منه فأطرح إليه فرخي .

قال لها مالك الحزين : إذا أتاك ليفعل ما تقولين فقولي له لا ألقى إليك فرخي ، فارق إليّ وغرر بنفسك ، فإذا فعلت ذلك وأكلت فرخي ، طرت عنك ونجوت بنفسي .

فلما علمها مالك الحزين هذه الحيلة طار فوقع على شاطىء نهر ، فأقبل الثعلب في الوقت الذى عرف ، فوقف تحتها . ثم صاح كما كان يفعل فأجابته الحمامة بما علمها مالك الحزين .

فقال لها الثعلب : أخبريني من علمك هذا ؟

قالت : علمني مالك الحزين .

فتوجه الثعلب حتى أتى مالكًا الحزين على شاطىء النهر ، فوجده واقفًا .

فقال له الثعلب : يا مالك الحزين ، إذا أتتك الريح عن يمينك ، فأين تجعل رأسك ؟

قال : عن شمالي.

قال : فإذا أتتك عن شمالك فأين تجعل رأسك ؟

قال : أجعله عن يميني أو خلفي .

قال : فإذا أتتك الريح من كل مكان وكل ناحية فأين تجعله ؟

قال : أجعله تحت جناحي .

قال : وكيف تستطيع أن تجعله تحت جناحك؟ ما أراه يتهيأ لك .

قال : بلى .

قال : فأرني كيف تصنع ، فلعمرى يا معشر الطير لقد فضلكم الله علينا ، إنكن تدرين في ساعة واحدة مثل ما ندرى في سنة ، وتبلغن ما لا نبلغ ، وتدخلن رؤوسكن تحت أجنحتكن من البرد والريح، فهنيئًا لكن ، فأرنى كيف تصنع .

فأدخل الطائر رأسه تحت جناحه ، فوثب عليه الثعلب مكانه فأخذه فهمزه همزة دقت عنقه ، ثم قال : يا عدو نفسه ، ترى الرأى للحمامة ، وتعلمها الحيلة لنفسها ، وتعجز عن ذلك لنفسك حتى يستمكن منك عدوك ، ثم أجهز عليه وأكله .

فلما انتهى المنطق للملك والفيلسوف إلى هذا المكان سكت الملك .

فقال له الفيلسوف : أيها الملك ، عشت ألف سنة ، وملكت الأقاليم السبعة، وأعطيت من كل شيء سببًا ، مع وفور سرورك وقرة عين رعيتك بك ، ومساعدة القضاء والقدر لك ، فإنه قد كمل فيك الحلم والعلم ، وزكا منك العقل والقول والنية ؛ فلا يوجد في رأيك نقص ، ولا في قولك سقط ولا عيب، وقد جمعت النجدة واللين ، فلا توجد جبانًا عند اللقاء ، ولا ضيق الصدر عند ما ينوبك من الأشياء، وقد جمعت لك في هذا الكتاب شمل بيان الأمور ، وشرحت لك جواب ما سألتني عنه منها ، فأبلغتك في ذلك غاية نصحي ، واجتهدت فيه برأيي ونظري ومبلغ فطنتي ، التماسًا لقضاء حقك وحسن النية منك بإعمال الفكرة والعقل ، فجاء كما وصفت لك من النصيحة والموعظة ، مع إنه ليس الآمر بالخير بأسعد من المطيع له فيه ، ولا الناصح بأولى بالنصيحة من المنصوح ، ولا المعلم للخير بأسعد من متعلمه منه ، فافهم ذلك أيها الملك ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

## تم كتاب كليلة ودمنة

***

# الفهرس



❊ ❊ ❊

